ملاحظات على كتاب

العقل

بين جماح الطبع وترويض الشرع

الرقيشي الإزكوي

ملاحظات على كتاب (العقل)

للشيخ الخليلي

الرقيشي الإزكوي

الفهرس

مقدمة..... ٥
الفصل الأول (كتاب العقل في الميزان) ٦
لغة الكتاب ٧
منهج البحث العلمي..... ١١
تهم في الميزان ١٥
إنكار السنة مرة أخرى..... ٢٢
الفصل الثاني (الانقلاب الكبير)..... ٢٧
ايضاحات..... ٣٣
منهج إثبات الغيبيات..... ٣٦
هل تستقل الرواية بإنشاء عقيدة؟..... ٤٠
أحاديث ينبغي أن تفهم..... ٤٥
الفصل الثالث (حجة العقل من تأويل كتاب الله)..... ٥٢
حجة العقل من تأويل كتاب الله ٥٣
ما هو العقل؟ ٥٣
لم يذم الله عز وجل العقل في كتابه أبداً **٥٥**
اليهود صناع العقلانية!!..... ٥٧
الصراع الوهمي بين العقل والشريعة..... ٦١
أمثلة تطبيقية ٧٣
الفصل الرابع (حيتان وعروش) ٨١
حوت في البحر..... ٨٢
علم من الكتاب ٩٤
الفصل الخامس (كرامات وكرامات) ١٠١
ولن تجد لسنة الله تبديلاً ١٠٢
يضل من يشاء ويهدي من يشاء ١١٩

قل سيروا في الأرض ١٢٧
الفصل السادس (إعصار جونو وفيضانات ميزاب) ١٣١
الكوارث الطبيعية ابتلاء من الله ١٣٤
إعصار جونو وفيضانات ميزاب ١٤٠
أمثلة تطبيقية ١٤٧
(١) قصة السفينة تيتانك وغرقها ١٤٧
(٢) قصة طفل ينجو على مخدة وسفينة تغرق ١٤٨
(٣) قصة بيت مشعوذ تبتلعه الأرض ١٤٩
الفصل السابع (الرقية والعين) ١٥٢
القرآن شفاء ورحمة ١٥٣
كلام جيد للقرطبي ١٥٦
عين ١٥٨
العين وقطعية الثبوت ١٦١
العين والبحث الكوني ١٦٥
مسائل الدين ومسائل الرأي ١٦٧
كلمة أخيرة ١٧٠

كلمة المرتب

إيماناً منا بتفعيل ثقافة الحوار والنقاش في المجتمع، قمنا بترتيب هذه الملاحظات التي كتبها الكاتب (الرقيشي الإزكوي) على موقع: الحارة العمانية **(www.alharah.net)** في الفترة ما بين ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٨م، إلى ٢٤ نوفمبر ٢٠٠٨م، وسماها (ملاحظات على كتاب العقل للشيخ الخليلي) ، واقتصر عملنا فيها على:

- تنسيق ما كتبه الكاتب
- وضع بعض العناوين الجانبية، وأشرنا إليها في الحاشية
- حذف بعض الجمل في بداية بعض الحلقات والتي تمثل ملخصاً للحلقة السابقة.
- وضع بعض الكلمات القليلة للربط بين الحلقات المتعددة لدمجها تحت عنوان واحد، وهذه قليلة جداً.

مقدمة

لا شك أن النقاش والحوار في أي مجتمع يعود بالفائدة على الجميع، لما يؤديه من نضج للأفكار وتلاقح بين الآراء، مما يساهم في نهضة الأمم ورفعتها، وصدور كتاب (العقل بين جماح الطبع وترويض الشرع) لسماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عمان يمثل حراكاً ثقافياً في المشهد الثقافي في عمان.

ولقد عودتنا الثقافة المتأخرة التي سادت في المجتمع أنه لا نقاش حول آراء العلماء من قِبل الناس الذين صنفوا جميعاً على أنهم عامة ومقلدون، رغم تطور في المعارف وتفجرها ونضج المناهج وتقدمها، لكن الثقافة التي بدأت تسود في السنوات الأخيرة أن الناس من حقهم أن يناقشوا ويتساءلوا عما يطرحه العلماء، لأنهم أي الناس إما متضررون أو منتفعون بتلك الآراء، فهم محلها ومن تدور عليه، وطبعاً هذا يكون في إطار الطرح العلمي الموضوعي وكذلك الأخلاقي، ومراعاة أعراف المجتمع وطبائعه.

والكتاب المذكور أصله محاضرة ألقيت بمسجد جامعة السلطان قابوس في يوم الاثنين ٣/ ١٢/ ٢٠٠٧م، ضمن الدروس التي يلقيها سماحته، ثم هذبها وضم إليها بعض ما قاله في غيرها من المحاضرات مع زيادات أخرى، والكتاب طبعته وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، وقد صدر في الأيام الأخيرة الماضية، والكتاب موجه بالدرجة الأولى ضد ما طرحه كتاب (الإيمان بين الغيب والخرافة) لخميس العدوي وخالد الوهيبي، وكذلك عموم ما يطرحونه، وإن لم يذكر الكتاب أو غيره بالاسم، لكن كل الشواهد تدل على ذلك.

ولذلك أحببت أن أعلق على هذا الكتاب من خلال بعض الملاحظات التي أرجو أن تؤخذ على حسن الظن، فأنا لا أنتمي لأحد بعينه، وكذلك لا أمثل إلا نفسي، وكلامي يلزمني ولا يلزم غيري، وأحترم الجميع، وأتمنى أن يقابل ذلك بالمثل، وأتمنى كذلك أن تسود روح التسامح بيننا، وتطغى لغة النقاش العلمي على أية لغة.

الرقيشي الأزكوي

٢٣/ ٩/ ٢٠٠٨م

www.alharah.net

الفصل الأول

كتاب العقل في الميزان

لغة الكتاب

أولى الملاحظات على كتاب (العقل بين جماح الطبع وترويض الشرع) للشيخ الخليلي أن لغته جاءت متشنجة وعنيفة إلى أقصى حد، وهي ذات اللغة التي كانت في المحاضرة التي هي أصل الكتاب، وكنت أتمنى أن يبتعد الكتاب عن لغة محاضرة مرتجلة لفها الانفعال والغضب أكثر من التعقل، لكن جاء الكتاب هو أيضاً مصوغاً بلغة العنف والحدة، وهذه اللغة لم تعد مقبولة في أوساط العلماء والأكاديمين والباحثين والمثقفين وعموم القراء، بحيث صارت شعاراً للمتطرفين والغلاة ودعاة العنف والتحريض على الناس، ولا أحد يرغب بأن يلز في خانة هؤلاء.

فالكتاب ملئ بالسب والشتم وعبارات التضليل والتبديع والتفسيق وما هو أكثر من ذلك، بحيث لا تنتقل من صفحة إلى أخرى إلا وتجدها مشحونة بالعديد من تلك العبارات، ومن أمثلة ذلك:

- ص٢٥: (على أن الإنسان باستقصائه دراسات الدارسين لهذا الجانب يستيقن أن تصرف هؤلاء وتحركهم في أوساط المجتمعات ما هو إلا نتيجة مخطط يهودي رهيب ...وقد وجدوا من غرور هؤلاء وما يعتمل في نفوسهم من حب الظهور والشهرة بين الناس سبيلاً إلى أن يدفعوا بهم إلى هذه المسالك).

- ص٣٣: (ما هذه العقلانية التي ينادون بها إلا ارتكاسة في الفكر وانتكاسة في الأخلاق).

- ص٤١: (وما هذه إلا من مغالطاتهم العجيبة، وهي دليل عمى بصائرهم وإظلام تفكيرهم).

- ص٤٣: (ولضلال عقول هؤلاء وانحراف فكرهم أخذوا يصورون خصومة بين الأخذ بالسنة واتباع منهج السلف الصالح).

- ص٤٦: (إذ لم يلبثوا إلا يسيراً حتى فضحهم الله تعالى بكشف خبايا نفوسهم وطوايا ضمائرهم، إذ لم يكتفوا برد السنة المطهرة حتى انقضوا على نصوص القرآن يردونها بضروب من التأويل الباطل).

- ص٤٦: (للتمويه على عامة الناس وتضليل عقولهم، كما صنع سلفهم رشاد خليفة وانتهى إلى ما انتهى إليه من إنكار ثوابت الدين والتلاعب بنصوص القرآن).

- ص٤٧: (ولئن كان المرء يقاس على غيره إذا ماشاه، فكيف لا يقاس عليه إذا ضاهاه في أقواله وأعماله، ولا أظن بعد هذا يحتاج أحد إلى عناء ليثبت أن هؤلاء يصدرون مع سلفهم رشاد خليفة من مستنقع واحد، وأن اليد التي كانت تحركه هي التي عادت تحركهم).

- ص٤٧: (وإليك صوراً مما جاءوا به من الإفك لتغيير ثوابت الدين وإنكار حقائق القرآن).

- ص٦٠: (أما يردده أولئك من المجادلات العقيمة بأن الالتقام يطلق على غير الابتلاع كما في قولهم"التقم الطفل ثدي أمه" مع كونه لا يبتلعه فهو من دلائل جهلهم وغبائهم).

- ص٦٥: (وبموجب هذا الاعتقاد لا يبقى بينهم وبين ملاحدة الشيوعية وغيرهم أي فرق في الفكر).

- ص٨٧: (فماذا عسى أن يقول هؤلاء في هذه الأخبار التي حوتها هذه النصوص، أيردونها كما يقتضيه منهجهم في القبول والرفض، فيكونون قد جاهروا بكفرهم وباحوا بسريرتهم التي يحرصرون على كتمها).

- ص٩٦: (وواعجباً من هذا الفكر الذي يرمي بصاحبه في هذه المتاهات السحيقة، وهذه البحور المتلاطمة بالضلال، ولو فكروا قليلا لربأوا بأنفسهم عن النزول في هذه الدركات المتدنية من السفسطائية؛ التي تكاد البهائم العجماء تنكرها ولا ترضاها لأنفسها).

- ص١٥٥: (وقد كابر هؤلاء المعاندون دلائل الشرع والعقل بإنكارهم أن يكون ما يحدث في الكون من كوارث مدمرة وزعازع مزعجة عقوبة على فجور الفجرة).

- ص١٥٥: (وهم لا يستحيون أن يناقضوا أنفسهم فيما يقولون، فكم ردد الذي تولى كبر هذه الدعوة منهم قصة السفينة العملاقة).

- ص٢١١: (فذلك إن دل على شيء لا يدل إلا على الحماقة التي يربأ جميع الحمقى بنفوسهم عنها).

- ص٢٦٩: (وقد ايفت قلوب هؤلاء الذين عزفوا عن الكتاب والسنة، واغتروا بما أوتوه من عقل بهذه الآفة الخطيرة، فقد أظلمت عقولهم ومرضت قلوبهم بإعراضهم عن ذكر الله، حتى بلغ بهم الأمر أن تضيق منه صدورهم).

- ص٢٨٠: (وبسبب هذا الغرور اندفعوا إلى إنكار كثير من الحقائق).

- ص ٣٠٣: (وأنت إذا تأملت إلى الذين ينادون بهذا الفكر القذر في عالم اليوم وجدتهم جميعاً شواذ تنكروا للإسلام).

النتيجة المتحصلة من هذه النصوص وغيرها أن هؤلاء (((يحركهم اليهود....مغرورون... أظلمت قلوبهم وعميت بصائرهم...حمقى ... أغبياء... جهلة... يردون السنة النبوية... يسعون لرد القرآن... يسعون لتغيير ثوابت الدين... يسعون للتلاعب بنصوص القرآن ... ليس بينهم وبين ملاحدة الشيوعية فرق))).

ولم يقتصر الأمر على مجرد هذا، فقد ارتفعت الوتيرة وازدادت حدة الاتهامات، ففي جلسة إفتاء في مسجد جامعة السلطان قابوس في ٢٤/ ٣/ ٢٠٠٨م، أي بعد أربعة أشهر تقريباً من المحاضرة التي سبق ذكرها والتي صارت كتاباً، قال الشيخ الخليلي عمن وصفهم بالعقلانيين، ومن رفعوا شعار المدرسة الجابرية، الذين تحدث عنهم في محاضراته السابقة بالجامعة (انظر شريط: جلسة إفتاء، تسجيلات الهلال الإسلامية، ٢٠٠٨م):

(... فلو كانت السنة ملغاة كما يقول هؤلاء ...

(... على أن هؤلاء المتنطعين الذين مرقوا من الدين وضلوا ضلالاً مبيناً وتطاولوا على مقام النبي عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام نجد أنهم أنفسهم لا يستطيعون أن يتخلوا عن أمور معينة...

(... ينكرون على المرأة أن تغطي قدميها ولا ينكرون عليها أن تتبرج تبرج الجاهلية الأولى، لا يعنيهم شي أن تخرج المرأة متبرجة تبرج الجاهلية، وأن تفسد، وأن تنحرف، لأن الجهات التي توجههم، والتي تضغط على أزرار لتحريكهم من الخارج، هذه الجهات تريد هذا الفساد، وتريد أن تكون الأمة الإسلامية أمة ضائعة، أمة منحلة، أمة منحرفة عقيدة وسلوكاً، فلذلك هم يسيرون حسب هذا الاتجاه، حسب هذا التوجيه الذي يأتيهم من جهات خارجية، من الصهيونية ومن عملاء الصهيونية ومن يحركهم من الخارج...

(... وكانوا يظهرون الغيرة على القرآن الكريم، ويتركون السنة جانباً، بل يلغون السنة تماماً، ويجعلون السنة كأنما هي معادية للقرآن، وأن من استمسك بالسنة فقد أضاع القرآن، ثم إذا بهم يحرفون الآي في التأويل، وهذه مرحلة، وسيأتي وقت إن امتدوا على هذه الحالة أيضاً أن يحرفوا نصوص القرآن كما كان ممن قبلهم ...

(... يريدون أن يقضوا على هذا الدين بضرب مقوماته شيئاً فشيئاً، ووصل الأمر فيما بلغني في بعض الكتابات التي تكتب الآن، وصل الأمر بهم أن يقولوا لا دليل على حرمة الخمر) اهـ (من الشريط).

نحن الآن بصدد اتهامات خطيرة للغاية: هي نسبة الكفر البواح بتحليل ما حرم الله والتآمر على الدين والكيد له والمروق من الدين والتآمر مع الصهيونية!!، لا أتصور أن مثل هذه التهم تطلق إلا على خارج على ملة الإسلام، أو إنسان يكيد لهذا الدين أكثر مما كاد له المنافقون على عصر النبي صلى الله عليه وسلم!، في حين أن الشيخ الخليلي لم يقدم لنا دليلاً واحداً مقنعاً على ما يقول، وسنناقش هذه القضية بالتفصيل في الحلقات القادمة إن شاء الله تعالى.

وهذه اللغة هي التي تسبب الفرقة والاختلاف والتمزق بين الناس وتحزبهم ضد بعضهم، بل وهي التي تدفعهم إلى ارتكاب الحماقات، والدفع بهم نحو التوجهات العنيفة في سبيل تغيير ما يرونه خطأ، وأضرب على ذلك مثالاً من الواقع الإباضي، **فالفقيه الجزائري الميزابي الإباضي بيوض إبراهيم رحمه الله (توفي في عام ١٩٨١م) تعرض لأربع محاولات اغتيال بسبب آرائه الفقهية** التي لم ترق لبعض الغلاة، فحرضوا الناس وعبأوهم ضده وكالوا له التهم كيلاً، مما دفع بعض الطائشين إلى محاولة تصفيته جسدياً (انظر: بابكر عبدالرحمن، متطلبات المجتمع في مواجهة التحديات، ص٣١).

السؤال الملح الآن: ماذا يضرنا في حال حصل اختلاف في وجهات النظر أن نطرح ما عندنا طرحاً علمياً موضوعياً دون هذه اللغة العنيفة الحادة التي تصنع الغلاة والمتطرفين؟!، وأنا أدعو كل أحد، وأعني الجميع دون استثناء إلى التزام الموضوعية قدر المستطاع والبعد تماماً عن تجريح الأشخاص وسوء الظن بهم وكيل التهم لهم دون دليل.

منهج البحث العلمي

عودنا الشيخ الخليلي في العديد من كتبه العلمية على الطرح الهادىء العلمي الذي أعجب الناس وأثنوا عليه، مثل (جواهر التفسير)، و(الحق الدامغ)، ويرجع ذلك في نظري إلى التزام الشيخ الخليلي بقواعد البحث العلمي، وتجاوزه للكثير من سلبيات العلماء التقليديين، فكان ينسب الأقوال إلى قائليها ولا يلقي الكلام هكذا على عواهنه، ويناقش بكل موضوعية، وهذا هو سبب انتشار كتابه الرائع في وقته (الحق الدامغ).

هذا هو الشيخ الخليلي الذي نعرفه، والذي تعلمنا منه الشيء الكثير، لكن الوضع تغير كثيراً منذ عدة سنوات، وصارت القضايا تناقش بصورة عشوائية وانفعالية، تعتمد على القيل والقال وأخبرنا الثقة وحدثنا الثقة وأنبأنا الثقة، بدلاً من قرأت في كتاب أو سمعت شريطاً مسجلاً، فصارت المناقشات هي الأخرى تخرج بصورة لا تتناسب مع الاسم والتاريخ الذي حظي به سماحة الشيخ.

والمحاضرة التي ألقاها الشيخ الخليلي في ٣/ ١٢/ ٢٠٠٧م والتي تحولت لكتاب (العقل) أراها علامة فارقة على تغير كامل في منهج الشيخ الخليلي، فالكتاب خلا تماماً من نقل موضوعي من كتب أو محاضرات أو مقالات موثقة لمن يرد عليهم، بل ما كان ينسبه إليهم لم نقرأه في شيء من كتبهم أو مقالاتهم المنشورة ولم نسمعه منهم في أي لقاء حصل معهم، فمن أين استقى الشيخ الخليلي تلك المعلومات؟! هل هي من مخطوطات دونوها ولم يطالعها أحد سوى الشيخ الخليلي؟ أم هي أمور اطلع عليها وحده دون سواه؟، وإذا كان قد اطلع عليها وحده دون سواه فهل كلامه ملزم للآخرين ويحق له التشنيع على الناس بهذه الصورة؟.

دعونا نلقي نظرة سريعة على الكتاب، ونطالع هذه المسألة، ثم في الحلقات القادمة سوف نتعرض بالتفصيل لكل قضية من القضايا المطروحة.

١. الكتاب يخلو تماماً من نسبة الأقوال لقائليها، فلم يذكر الشيخ الخليلي اسم كتاب واحد من الكتب التي ألفها من رد عليهم، أو من مقالات كتبوها، أو من محاضرات ألقوها، ونسب إليهم ما يتهمهم به من خلال هذه المؤلفات.

في حين أن المعنيين بهذا الرد بالدرجة الأولى خميس بن راشد العدوي وخالد بن مبارك الوهيبي وآخرين غيرهم لهم كتب مطبوعة متداولة، وأغلبها طبعتها مكتبة الغبيراء وهي:

- الإيمان بين الغيب والخرافة، لخميس العدوي وخالد الوهيبي
- قراءة في جدلية الرواية والدراية، زكريا المحرمي (ط مكتبة الضامري)
- الإباضية: تاريخ ومنهج ومبادئ، زكريا المحرمي
- أشراط الساعة، خالد الوهيبي
- رؤية تاريخية، خميس العدوي (ط مكتبة الأجيال)
- الصراع الأبدي، زكريا المحرمي
- المنهج العقدي الإباضي، خميس العدوي
- معالم للزمن القادم، خالد الوهيبي (ط مكتبة مشارق الأنوار)
- الواقعية والوحدة الإسلامية، خميس العدوي
- قراءة حضارية في نعيم الجنة، زكريا المحرمي
- فلسفة العيد وفقهه، خميس العدوي
- صفة الصلاة، خالد الوهيبي
- كتاب "إعادة صياغة الأمة" للشيخ الخليلي، إعداد وتعليق: خالد الوهيبي (ط مكتبة الجيل الواعد)
- مجموعة مقالات عن السنة النبوية ، خالد الوهيبي (نشرت في جريدة الوطن، وموجودة في عدة مواقع على الانترنت)
- كتاب "الدين الحياة للشيخ الخليلي إعداد: خميس العدوي (ط مكتبة الأجيال)
- وهناك أيضاً العديد من المقالات والمقابلات في الصحف والإذاعة والتلفزيون خلال السنوات الماضية لم نذكرها .

وهنا نحن أمام مشكلة ليست بالسهلة، فلا أقوال تنسب ولا آراء توثق، مع كل هذا الإنتاج الذي يعد ضخماً بمقياس بلد كسلطنة عمان، ولا نجد رأياً واحداً يوثق في كتاب (العقل) للشيخ الخليلي، نتساءل: أين الموضوعية العلمية؟.!

٢. في المقابل اعتمد الشيخ الخليلي في كتاب (العقل) على المصادر الشفوية (أخبرني وحدثني) في نقل الآراء عن هؤلاء :ففي

- ص١٩٠: (على أنني بلغني من بعد أنه صرح بهذا في الكتاب الذي اشترك في تأليفه مع صاحبيه الذين يشدان من أزره ويدعون بدعوته، فقد أخبرني من اطلع عليه – وهو ثقة أمين– أنه ذكر فيه قوله تعالى "وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى" وقال: "إن هذا فيما يبلغه من القرآن، أما في حديثه بنفسه فهو لا يعدو أن يكون بشراً يخطئ ويصيب"، بل ذكر لي الناقل أن مما قالوه في ذلك الكتاب "في بعض القضايا هذا ما فهمه الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن، ولكننا نفهم خلافه).

- ص٢١٢: (ومن عجيب ما سمعته عنهم ما حدثني به أحد الثقات عن أحد أركانهم أنه قال: لو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بحقيقة غيبية، ولم تكن مذكورة في القرآن لم أكن مكلفاً أن أصدقه فيها).

والاعتماد على مثل هذه المصادر يبعث على العجب، فمن يرد عليهم الشيخ الخليلي لهم كتب مطبوعة كثيرة، لماذا لا ينقل عنهم ما لا يراه صواباً ويرد عليهم رداً علمياً، بدلاً من نقل شفوي يعتريه ما يعتريه في أجواء مشحونة بالخصومة؟.!

ثم إذا طبقنا قواعد مصطلح الحديث، فهؤلاء الذين يروي عنهم الشيخ الخليلي ويصفهم بالثقات مجهولون للقارئ، فكيف يستطيع الحكم عليهم، أم أن عليه التسليم بتعديل الشيخ لهم، ولو فرضنا أن الشيخ عدلهم، فيا ترى ماذا يقول فيهم علماء الحديث الآخرون لدينا، أمثال: محمد بن راشد الغاربي، وسعيد بن مبروك القنوبي، وناصر بن سليمان السابعي، وخلفان بن محمد المنذري، وصالح بن أحمد البوسعيدي، وأحمد بن يحيى الكندي؟، أم أن من روى عنه الشيخ الخليلي فقد جاوز القنطرة؟.

وهذه تساؤلات منطقية في زمن صارت قواعد البحث العلمي مرعية ويتم التشديد عليها في الجامعات والكليات والمعاهد، فكيف يخاطب الناس الآن في كتاب يفترض أنه علمي بلغة أخبرني فلان وحدثني علان مع وجود النقول الموثقة عن هؤلاء الأشخاص يمكن الرجوع إليها؟.!

٣. في أكثر الأحيان ينسب الشيخ الخليلي إليهم آراء لم يأت عليها بدليل أو شاهد واحد من خلال ما كتبوا وألفوا : المصدر الذي يعتمد عليه الشيخ الخليلي في هذه الحالة غير معروف!! ويطالبنا في الوقت ذاته بتصديقه، من ذلك:

- ص٤٢: (وما أعجب حال من أسقط حجية سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم).

- ص٤٦: (إذ لم يلبثوا إلا يسيراً حتى فضحهم الله تعالى بكشف خبايا نفوسهم وطوايا ضمائرهم، إذ لم يكتفوا برد السنة المطهرة...)

- ص٩٣: (فإنهم أنكروا أصل الخوارق).

- ص٤٨: (أنكروا خوارق العادات جملة).

- ص٤٩: (أعرضوا عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم إعراضاً شائناً، أدى بهم إلى الاستخاف بهديه عليه أفضل الصلاة والسلام، وتجاوزا ذلك إلى اتهام شخص الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالوقوع في الخطأ).

- ص٤٩: (صدوا عن ذكر الله الذي ينير القلوب، ويفتح البصائر، ويصل العبد بربه سبحانه، حتى أنهم استخفوا بالدعاء والأذكار المشروعة أدبار الصلوات أو عند إقبال الليل أو النهار أو إدبارهما).

- ص٥٠: (تجرأوا وجرأوا غيرهم على الاستخفاف بالعلم وأهله، والقول على الله بما ليس لهم به علم، وزينوا ذلك لأطفال لم يشبوا على الطوق).

- ص١٥٥: (وقد كابر هؤلاء المعاندون دلائل الشرع والعقل والواقع، بإنكارهم أن يكون ما يحدث في الكون من كوارث مدمرة وزعازع مزعجة عقوبة على فجوز الفجرة).

٤. وفي أحيان أخرى ينسب الشيخ الخليلي الآراء إلى هؤلاء من خلال لقائه بأحدهم :وهنا نحن أمام دعوى شخصية، لا نستطيع فيها الاعتماد على كلام الشيخ الخليلي وحده، ولا بد أن نستمع لكلام الطرف الآخر حتى نستطيع الحكم:

- ص١٨٩: (بل بلغت الوقاحة في التعبير وسوء الأدب في حقه صلى الله عليه وسلم أن قالوا فيه بأنه بشر يصيب ويخطئ، وقد ذكرت هذا أمام من تولى كبر هذه الدعوة في آخر جلسة بيني وبينه ولم ينكر ذلك).

هذه هي مصادر كتاب (العقل) للشيخ الخليلي في نسبة الآراء لمن يرد عليهم، وهي غير علمية بمعايير البحث العلمي المعاصر مع توافر الكتب والأشرطة والمقالات لمن تنسب إليهم هذه الآراء، وهذا ما يخل كثيراً بمصداقية كتاب (العقل) للشيخ الخليلي.

ونحن الإباضية إذا كنا كثيراً ما نضج بالشكوى من كتاب المقالات والفرق كالبغدادي والشهرستاني وابن حزم ممن نسبوا المقولات الباطلة عن الإباضية ونسبوا إليهم الأكاذيب مع توافر كتب المذهب

وانتشارها، وكنا نقول إنه لا يجوز الرجوع إلى هـذه الكتـب في التعريـف بالمـذهب الإبـاضي وآرائـه؛ فكيف يسوغ الآن لعالم جليل بمكانة ومنزلة الشيخ الخليلي أن يفعل الشيء ذاته ثم يمـر الأمـر علينـا مرور الكرام؟.!

تهم في الميزان

ساق الشيخ الخليلي في المحاضرة التي ألقاها في ٣/ ١٢/ ٢٠٠٧م والتـي تحولـت إلى كتـاب (العقـل) الذي صدر في شهر رمضان لعام ١٤٢٩هـ تهماً عديدة في حق من يرد عليهم، وزاد عليها في محاضرتـه التي ألقاها بنفس المسجد (مسجد جامعة السلطان قابوس) في ٢٤/ ٣/ ٢٠٠٨م، أي بعد أربعة أشهر تقريباً من المحاضرة التي سبق ذكرها والتي صارت كتاباً.

وهذه التهم لم يستند فيها الشيخ الخليلي إلى دليل سوى المصادر التي سبق أن ذكرناها، وهذه الـتهم في الميزان الشرعي إذا كانت غير ثابتة وليس لها مستند سوى أخبروني وحدثوني؛ فإن الأمر لا يستهان به، وليس في الأمر كبير وصغير، أو عالم وجاهل، فلا يجوز شرعاً التقول على الناس أياً كانوا، مسلمين أو غير مسلمين، مرضي عنهم أو غير مرضي عنهم، قال الله تعالى: (هُنَالِكَ تَبْلُـو كُـلُّ نَفْـسٍ مَّـا أَسْـلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) يونس: ٣٠ وقال: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً) الأحزاب:٥٨

ومن هذه التهم:

١. العمالة لليهود والصهيونية:

- ص٢٥: (على أن الإنسان باستقصائه دراسات الدارسين لهذا الجانب يستيقن أن تصرف هؤلاء وتحركهم في أوساط المجتمعات ما هو إلا نتيجة مخطط يهودي رهيب...وقد وجدوا من غرور هؤلاء وما يعتمل في نفوسهم من حب الظهور والشهرة بين الناس سبيلاً إلى أن يدفعوا بهم إلى هذه المسالك).

ونفس الكلام قاله في مسجد جامعة السلطان قابوس في ٢٤/ ٣/ ٢٠٠٨م، أي بعد أربعة أشهر تقريباً من المحاضرة التي سبق ذكرها والتي صارت كتاباً، قال الشيخ الخلـيلي عمـن وصـفهم بـالعقلانيين،

ومن رفعوا شعار المدرسة الجابرية، الذين تحدث عنهم في محاضراته السابقة بالجامعة (انظر شريط: جلسة إفتاء، تسجيلات الهلال الإسلامية، ٢٠٠٨م):

(... لأن الجهات التي توجههم، والتي تضغط على أزرار لتحريكهم من الخارج، هذه الجهات تريد هذا الفساد، وتريد أن تكون الأمة الإسلامية أمة ضائعة، أمة منحلة، أمة منحرفة عقيدة وسلوكاً، فلذلك هم يسيرون حسب هذا الاتجاه، حسب هذا التوجيه الذي يأتيهم من جهات خارجية، من الصهيونية ومن عملاء الصهيونية ومن يحركهم من الخارج...).

لا ندري الآن ما هي مصادر الشيخ الخليلي في ذلك، هل هي احدى وكالات المخابرات الذي أمدته بهذه المعلومة الرهيبة؟ أم وكالة حدثني وأخبرني الثقة؟ أم الرؤيا المنامية التي تأتي مثل فلق الصبح؟ أم الإلهام والقوى الروحية التي قذفت في روع الشيخ الخليلي – بارك الله فيه – أن هؤلاء عملاء مأجورون للصهيونية؟ أم هي مصادر أخرى لم يكشف الشيخ النقاب عنها.

أنا لا أسخر ولا أستخف بأحد أبداً، ولكن هذه تساؤلات منطقية، فكم وجدنا من الناس من يعتمد على هذه الأمور في الحكم على الآخرين، وإلا فإن الأصل في المسلم حسن الظن به، ولا يجوز شرعاً التقول على الناس بالباطل دون دليل، فهذا أمر محرم بلا شك.

٢. إباحة الخمر:

في (شريط: جلسة إفتاء، تسجيلات الهلال الإسلامية، ٢٠٠٨م) لمحاضرة ٢٤/ ٣/ ٢٠٠٨م:

(... ووصل الأمر فيما بلغني في بعض الكتابات التي تكتب الآن، وصل الأمر بهم أن يقولوا لا دليل على حرمة الخمر) اهـ (من الشريط).

تهمة أخطر من سابقتها، بادعاء أنهم يقولون بعدم وجود دليل على تحريم الخمر، وهذه يقول الشيخ الخليلي إنه قرأها عنهم، نقول إنصافاً إننا لم نقرأها لخالد الوهيبي أو زكريا المحرمي أوخميس العدوي أو أيٍ ممن يقصدهم الشيخ بمجمل هذه الحملة، فقد قرأنا بسبب كل هذه الفوضى الحاصلة في الساحة كل إنتاجهم العلمي ولم نجد هذا الكلام، لا من قريب ولا من بعيد، وتحريم الخمر وكافة الخبائث من أبجديات الإسلام وأساسياته، فكيف يتصور أن يحيد مسلم عنه؟ .!

وإذا كان الشيخ الخليلي يمتلك دليلاً غير مجرد الادعاء فليظهره للناس ليقيموا مدى حجيته، وإلا فهو بخصوص هذه التهمة بالذات في موقف حرج جداً أمام الناس،

ويهدد ذلك مصداقيته فيما يلقيه لهم، فالناس ليسوا مغفلين إلى هذه الدرجة ليصدقوا كل ما يلقى إليهم دون دليل.

٣. إنكار السنة:

قال الشيخ الخليلي في

- ص٤٢: **(وما أعجب حال من أسقط حجية سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم)** .

- ص٤٦: **(إذ لم يلبثوا إلا يسيراً حتى فضحهم الله تعالى بكشف خبايا نفوسهم وطوايا ضمائرهم، إذ لم يكتفوا برد السنة المطهرة)** .

وهذه التهمة لم يقم عليها الشيخ الخليلي في كتاب (العقل) وفي المحاضرات التي أشرنا إليها دليلاً واحداً، بل لم نعرف ماذا يريد الشيخ بالضبط من ذلك:

- فمرة يقول إنهم ينكرون السنة كما نقلنا .

- وتارة ينسب إليهم القول بعدم استقلال السنة بالتشريع. انظر ص ١٩٣.

- وتارة ينسب إليهم أن يأخذون بالسنة العملية فقط. انظر ص ٢١١.

وأنا شخصياً قد قرأت كتاب (قراءة في جدلية الرواية والدراية) للدكتور زكريا المحرمي، ولم أجد فيه ما يدل على إنكار السنة لا من قريب ولا من بعيد، وكذلك ما كتبه خالد الوهيبي في (أشراط الساعة) و(صفة الصلاة) ومقالاته عن السنة النبوية، وكذلك ما كتبه خميس العدوي وخالد الوهيبي في(الإيمان بين الغيب والخرافة)، بل وجدنا فيها تعظيماً للسنة ولمقام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ورداً لما ألصق بالسنة من روايات باطلة وأكاذيب ملفقة، نعم قد نختلف معهم في توجيه بعض الأحاديث، أو انتقاد البعض الآخر، لكن هذا أمر حاصل بين العلماء في تصحيح وتضعيف الروايات، فلا يجوز أن ننسب لأحد أنه ينكر السنة لمجرد أنه له رأياً في عدم ثبوت أحاديث معينة رأى فيها ما يعيبها من جهة السند أو المتن.

فمثلاً يقول زكريا المحرمي في كتابه (قراءة في جدلية الرواية الدراية):

في ص٢٥: (ولا يحتاج العاقل إلى كثير من الجهد ليدرك أن حجية السنة تأتي في الدرجة الثانية بعد القرآن الكريم، فالكتاب مقطوع بثبوته إجمالاً وتفصيلاً لوصوله إلينا بالتواتر، ولم تختلف الأمة بجميع طوائفها عليه، بينما السنة مقطوع بثبوتها إجمالاً، ولكنها مظنونة الثبوت تفصيلاً، لأن معظم الروايات

آحادية، والآحاد ظني الثبوت. كما أن حجية السنة تنبع أساساً من أمر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بتبيين أحكام القرآن للناس (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) النحل:٤٤، ولا يمكن أن يكون الشرح أفضل من المشروح، لأنه لو عُدم الشرح لم يتأثر المشروح بينما لو عُدم المشروح لم يكن للشرح فائدة).

ويقول في ص٢٥ أيضاً: (إذا السنّة في جوهرها هي شرح لمجمل القرآن، بمعنى آخر هي الجزئيات العملية للأحكام المجملة في كتاب الله العزيز والتي أُمرَ الرسول صلى الله عليه وسلم بتوضيحها للأمة، وهذه السنّة العملية اتفقت الأمة على معظمها، وهو ما تناقلته بالتواتر كعدد ركعات الصلاة، وقيمة الزكاة، وشعائر الحج كالوقوف في عرفة، ثم المبيت في مزدلفة، ورمي الجمرات، والرجم والاختتان وغيرها .أما أطنان الروايات الآحادية التي يفرضها علينا أهل الحديث على أنها السنة المقصودة بالحجية والاتّباع، فلا يمكن قبولها إلا وفق نظام صارم من التحقيق والتدقيق، ينبع من الرغبة في تنزيه الشريعة من الدخيل عليها. وهذه النتيجة نفسها يلخصها عبد الله بن محمد بن بركة (ت ٣٦٢هـ) بقوله: "والسنة على ضربين: فسنة قد اجتمع عليها، وقد استغني بالإجماع عن طلب صحتها، وسنة مختلف فيها، ولم يبلغ الكل علمها، وهي التي يقع التنازع بين الناس في صحتها. فلذلك تجب الأسانيد والبحث عن صحتها ثم التنازع في تأويلها إذا صحت بنقلها، فإذا اختلفوا في حكمها كان مرجعهم إلى الكتاب) اهـ.

ويقول زكريا المحرمي في كتاب (الصراع الأبدي): ص٩١: (وقد كانت ممارسات النبي صلى الله عليه وسلم والتي تمثل السنة الشارحة للكتاب العزيز مطابقة لهذا الفهم) اهـ.

وكُتب الدكتور زكريا المحرمي مشحونة بالاستدلال بالأحاديث النبوية، يقبل ما صح من أحاديث ويرفض ما لا ينسجم مع دلالات الكتاب العزيز والسنة المتفق عليها مبيناً الأساس الذي بنى عليه في ذلك، عارضاً آراء العلماء الذي يذهبون هذه الوجهة من النظر.

أما خالد الوهيبي، فقد كتب مقدمة أطال النفس فيها في الاستدلال بالسنة النبوية وتمييز الصحيح من الأحاديث من غيره في كتابه (أشراط الساعة..النص والتاريخ)، فقد قال في ص :٢٧-٢٦ من واقع الاستقراء للنصوص السابقة المأثورة عن فقهاء المدرسة الجابرية، يتبين لنا أن مصطلح:

السنة: استعمل للتعبير عما جرى عليه عمل الأمة واستقرت عليه الشريعة وما اجتمعت عليه من السنن، دون ما ينفرد به الأفراد القليلون .

الرواية: استعمل للتعبير عن بعض ما ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أقوال قيلت في مناسبات ووقائع لا تذكر في كثير من الأحيان الملابسات والظروف التي قيلت فيها من قبل الرواة، مما ينفردون به عن غيرهم .

الحديث: استعمل للتعبير عن أقوال أو أفعال تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو أحد من صحابته الكرام رضي الله عنهم، مما يرويه الآحاد من الناس .

إذن نلاحظ أن مصطلحي"الرواية" و"الحديث" متقاربان جداً وليس بينهما سوى فروق طفيفة للغاية، بينما مصطلح"السنة" يعبر عن درجة أعلى ومستوى من الثبوت أرقى، هذا ما بينه الاستقراء) اهـ.

ثم قال في ص٢٧- ٢٨: (قدمنا فيما سبق من تعريفات للسنة والحديث أن السنة تعبر عن الجانب التشريعي المتيقن منه عن الرسول صلى الله عليه وسلم، بينما يعبر الحديث عن وقائع متفرقة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم مما ينفرد به الآحاد من الرواة.

إذن يكون بذلك الحديث دالاً على السنة أحياناً، وفي أحيان أخرى معبراً عن جوانب منها، وفي أحيان أخرى قد يحصل للحديث نوع من عدم الانسجام الداخلي مع البنية الهيكلية للسنة نتيجة للعوارض الداخلية والخارجية التي ترافق عملية نقله).

ويقول في ص ٩٥ من نفس الكتاب: (لا بد أن يكون الحديث منسجماً مع دلالات الكتاب العزيز والسنة).

وكذلك في كتابه صفة الصلاة: قال في ص٢٥ : (إثبات هيئات الصلاة يكون من خلال النقل العملي المجتمع عليه مما وصل علمه إلى الجميع، وذلك يتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية المتبعة).

وقال في ص٨٣ من نفس الكتاب: (درجة ومستوى إلزامية أية صلاة من الصلوات يكون بالدليل من الكتاب والسنة المتبعة، والتي تتمثل في الممارسات العملية للنبي صلى الله عليه وسلم من حيث: المواظبة والترغيب فيها).

وهكذا الحال في بقية مؤلفاتهم، وكذلك الحال بالنسبة لمؤلفات خميس العدوي لا تختلف عن هذه اللغة وهذه الطريقة (راجع كتب خميس العدوي: الواقعية والوحدة الإسلامية، والمنهج العقدي الإباضي، وفلسفة العيد وفقهه، رؤية تاريخية، الإيمان بين الغيب والخرافة). فهل من يتحدث بهذه اللغة يكون منكراً للسنة.!!

وهذه المسألة تُلخص في عبارة واحدة: (أنهم يقولون إن هناك أحاديث صحيحة، وأحاديث لا تصح)، وهذا هو شأن كل العلماء والدارسين والباحثين، الاختلاف يكمن في الطرق والوسائل والمناهج في التصحيح والتضعيف، وهذا أمر لا إشكال فيه، لكن لا يجوز بحال أن نقول في حق من ضعف حديثاً أو أحاديث معينة استناداً إلى قواعد معينة إنه ينكر السنة، وإلا لزم من ذلك أن يذم الجميع ويرموا بتهمة إنكار السنة، حينئذ يحق للسلفيين مثلاً أن يتهموا الشيخ الخليلي بإنكار السنة لأنه ينكر أحاديث رؤية الله، وأحاديث الخروج من النار، وأحاديث الشفاعة لأهل الكبائر، وأحاديث المسح على الخفين، وأحاديث الرفع والضم في الصلاة، وأحاديث قول آمين في الصلاة، وأحاديث القنوت في الصلاة، والأحاديث التي تنفي وجود البسملة في أوائل السور وغيرها الكثير (راجع: الحق الدامغ، الفتاوى ج١، للشيخ الخليلي)، فإن السلفيين يرون في هذه الأحاديث حجة في لزوم العمل أو الاعتقاد بما دلت عليه، ومن خالفها فهو مبتدع وضال ومنكر للسنة، وهذا ما قالوه قديماً وحديثاً.

بل الإباضية كلهم رموا بهذه التهمة لذات السبب، يقول البغدادي في "الفرق بين الفرق" ج١ : (ومنها أخبار مستفيضة بين أئمة الحديث والفقه وهم مجمعون على صحتها كالأخبار في الشفاعة والحساب والحوض والصراط والميزان وعذاب القبر وسؤال الملكين فى القبر، وكذلك الأخبار المستفيضة فى كثير من أحكام الفقه كنصب الزكاة وحد الخمر فى الجملة والأخبار فى المسح على الخفين وفى الرجم وما أشبه ذلك مما أجمع الفقهاء على قبول الأخبار فيها وعلى العمل بمضمونها وضللوا من خالف فيها من أهل الأهواء، كتضليل الخوارج في إنكارها الرجم، وتضليل من أنكر من النجدات حد الخمر، وتضليل من أنكر المسح على الخفين، وتكفير من أنكر الرؤية والحوض والشفاعة وعذاب القبر) اهـ.

٤. القول بإمكانية خطأ الرسول صلى الله عليه وسلم:

ص١٨٩: (بل بلغت الوقاحة في التعبير وسوء الأدب في حقه صلى الله عليه وسلم أن قالوا فيه بأنه بشر يصيب ويخطئ، وقد ذكرت هذا أمام من تولى كبر هذه الدعوة في آخر جلسة بيني وبينه ولم ينكر ذلك).

قال الشيخ الخليلي في ص١٩٠: (على أنني بلغني من بعد أنه صرح بهذا في الكتاب الذي اشترك في تأليفه مع صاحبيه الذين يشدان من أزره ويدعون بدعوته، فقد أخبرني من اطلع عليه – وهو ثقة أمين–أنه ذكر فيه قوله تعالى "وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى" وقال: "إن هذا فيما يبلغه من القرآن، أما في حديثه بنفسه فهو لا يعدو أن يكون بشراً يخطئ ويصيب"، بل ذكر لي الناقل أن مما قالوه في ذلك الكتاب "في بعض القضايا هذا ما فهمه الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن، ولكننا نفهم خلافه) اهـ.

وهنا ينسب إليهم الشيخ الخليلي تهمة القول بإمكان وقوع الخطأ من الرسول صلى الله عليه وسلم، ومصدر هذه النسبة هي: كلام الشيخ الخليلي في نقاشه مع أحدهم بسكوته عن ذلك، ونقل الثقة الأمين عنهم فيما كتبوه.

وكلا الأمرين لا يمكن الاعتماد عليهما في مجال البحث العلمي، فكلام الشيخ الخليلي هو عبارة عن دعوى لأحد طرفي خصومة لا يمكن الاعتماد عليه وحده، فلا بد من سماع الطرف الآخر وهو في هذا الموضوع تحديداً كما يعرف الكثيرون الشيخ خميس بن راشد العدوي.

وأما كلام من يصفه الشيخ بأنه ثقة أمين واطلع على ما كتبوه، فغير ملزم لأحد، لجهالة هذا الشخص، وكذلك لم يطالع أحد هذا الكتاب حتى يحكم عليه، **فهذا الشخص بالإمكان أن يكذب في النقل، وبالإمكان أن يكون قد فهم الأمر على غير حقيقته**، وهذا حاصل كثيراً في نقل فتاوى الشيخ الخليلي، وكثيراً ما يضطر الشيخ أن يظهر على وسائل الإعلام ليصحح ما نقل عنه خطأ، فلماذا يثق كثيراً في نسبة الآراء إلى من يعتبرهم خصوماً له؟!، ثم أين هو هذا الكتاب الذي قالوا فيه ذلك؟ لماذا لم يقرأه الجميع وطالعه ذلك الثقة؟.!

نحتاج لإثبات ذلك عنهم إلى نص كتبوه، أو أو تكلموا به في العلن، فهم ليسوا بالمجهولين، فما لديهم ينشرونه علناً دون خوف أو وجل، وأنا رغم اختلافي معهم في طرح بعض القضايا، وهذا ما سأبينه في الحلقات القادمة، لكن أقول إنهم أجرأ من يطرح الرأي في عمان في السنوات الأخيرة، هذا حق علينا أن ننسبه لأهله. وقد قرأنا ما كتبوا ولم يشيروا إلى هذه المسألة أو قالوا بأنهم يعتنقونها، فلا تجدها أبداً في شيء من مؤلفاتهم.

وطالما أن الشيخ الخليلي قد كتب ما كتب وأعلنه للناس، فهو مطالب بإثبات ذلك عنهم بطرق واضحة لا لبس فيها، أو أن يعترف بأنه لا يمتلك في ذلك سوى بنقل هذا أو نقل ذاك ممن يصفهم

بالثقات الأمناء، أو مجرد سكوت في نقاش صاخب لا ندري ما كنهه ولا طبيعته، وكان الأجدر بالشيخ أن لا يتقول على أحد دون دليل أو برهان صريح .

٥. لا ينكرون على المرأة أن تتبرج تبرج الجاهلية الأولى: (قال الشيخ الخليلي في شريط: جلسة إفتاء، تسجيلات الهلال الإسلامية، ٢٠٠٨م) في ٢٤/ ٣/ ٢٠٠٨م: (... **ينكرون على المرأة أن تغطي قدميها ولا ينكرون عليها أن تتبرج تبرج الجاهلية الأولى، لا يعنيهم شي أن تخرج المرأة متبرجة تبرج الجاهلية، وأن تفسد، وأن تنحرف، لأن الجهات التي توجههم، والتي تضغط على أزرار لتحريكهم من الخارج...)** اهـ.

وهذه التهمة لا ندري هل يقصد بها أنهم يبيحون التبرج أيضاً أو أنهم لا يلقون له بالاً، وكلا الأمرين لم نعرفه عنهم من خلال ما يكتبون، ولا بأي طريقة أخرى، ولم يُقِم الشيخ الخليلي كالعادة دليلاً واحداً عليه، ونحن لم نعرف عنهم سوى أنهم من عائلات محافظة شأنهم شأن معظم أفراد الشعب العماني المسلم، فيبقى كلام الشيخ الخليلي مجرد دعوى تنقصها البينة.

٦. الصد عن ذكر الله، والاستخفاف بالعلماء:

قال الشيخ الخليلي في كتاب (العقل) ص٤٩: (**صدوا عن ذكر الله الذي ينير القلوب، ويفتح البصائر، ويصل العبد بربه سبحانه، حتى أنهم استخفوا بالدعاء والأذكار المشروعة أدبار الصلوات أو عند إقبال الليل أو النهار أو إدبارهما**).

– ص٥٠: (**تجرأوا وجرأوا غيرهم على الاستخفاف بالعلم وأهله، والقول على الله بما ليس لهم به علم، وزينوا ذلك لأطفال لم يشبوا على الطوق**).

نفس الكلام السابق يقال هنا، دعاوى دون أدلة ملموسة، ولو أعطي الناس بحسب دعاواهم لادعى من شاء ما شاء.

إنكار السنة مرة أخرى

هذا الموضوع لا زلت أستغرب كثيراً من تكرار الشيخ الخليلي من نسبته في حق من ذكرنا، وتكراره لذلك في عدة مواضع من كتابه (العقل)، وكلامه في ذلك في عدد من المحافل، والغريب أن الشيخ لم

يستطع أن يقدم دليلاً واحداً على صدق دعواه، لكنه مع ذلك ظل مصراً على نسبة هذا الأمر إليهم. مع أن طريقتهم في الكتابة وصريح ما يقولون علناً على خلاف دعوى الشيخ الخليلي، أظن أن الأمر له تفسير واحد بالدرجة الأولى، وهو:

- أن الشيخ الخليلي ينظر إلى أن القول بعدم استقلالية السنة عن القرآن هو نكران للسنة، وهذا ما دفعه إلى تخصيص فصل كامل يبدأ من ص ١٩٣ إلى ص٢٠٥ للحديث عن هذا الموضوع الذي يراه هاماً بنظره، ولذلك قال في ص١٩٤ عند الحديث بأن السنة تستقل بالتشريع والرد على من قال بخلاف ذلك: (فلو كان المراد به الرجوع إلى القرآن وحده مع إهمال السنة النبوية لما كان معنى لذكر الرسول صلى الله عليه وسلم)، فيبدو أن هذا هو الدافع الأكبر الذي جعل الشيخ الخليلي يصف هؤلاء بأنهم ينكرون السنة.

وعدم استقلالية السنة عن القرآن بالفعل هو القول الذي يتبناه هؤلاء- وإن كان الشيخ الخليلي لم ينقل عنهم نصاً واحداً في ذلك كالعادة-، فمثلاً يقول خالد الوهيبي في "صفة الصلاة" ص١٦: (الصلاة من أولها إلى آخرها من أقوال وأفعال عبارة عن معان قرآنية، لذا كان النبي صلى الله عليه وسلم في تعليمه الناس الصلاة وتشريعها لهم يتأول القرآن، فلما نزل "فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ" الحاقة:٥٢ قال: اجعلوها في ركوعكم. فلما نزل "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى" الأعلى:١ قال: اجعلوها في سجودكم) اهـ.

ويقول ذات المؤلف في "أشراط الساعة" ص٢ : (فهي تؤصل وبدرجة كبيرة لمنهج تفتيت وتجزئة الوحي الإلهي، فهذه الروايات في هذه الطريقة من التعامل هي "السنة" التي تستقل بأخبارها وتفصيلاتها عن كتاب الله تعالى وعن حقائق الحياة وسننها، في حين كان من المفروض أن يكون كتاب الله تعالى هو الأصل الذي تقوم عليه الحياة، وبه يحاكم المسلم كل ما يرويه الناس وينسبونه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ" النحل: ٨٩ فالقرآن الكريم هو المؤسس الأصلي للأحكام والعقائد والتصورات "مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ" الأنعام: ٣٨ والقرآن الكريم لم يفرط في تأسيس أصول العقائد والأحكام والتصورات، بل ترك الناس على بينة من أمرهم، وما تلك المرويات البعيدة في لغتها ومفرداتها وتراكيبها عن القرآن الكريم إلا أثر لهجر الناس لكتاب الله تعالى وتعويلهم على ما أحدث من الأمور فـ"محال أن يخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب ربه") اهـ.

وإذا كان القول بأن السنة لا تستقل عن القرآن معناه إنكار السنة، فيلزم من ذلك أن يكون جمهور الإباضية منكرين للسنة، لأن القول بعدم استقلال السنة عن القرآن، وأن السنة تابعة للقرآن هو قول جمهور الإباضية.

فالإباضية رووا منذ أول الأمر حديث النبي صلى الله عليه وسلم في وجوب عرض السنة على القرآن، فقد روى الربيع في المسند: (٤٠) أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس قال: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنكم ستختلفون من بعدي، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافقه فعني، وما خالفه فليس عني)، فعرض السنة على القرآن يدل بشكل واضح وصريح أنها تابعة له لا مستقلة عنه، وهذه القاعدة وهي عرض السنة على القرآن مما أثارت حنق الكثير من الفرق على الإباضية ممن صنفوفهم بسببها في خانة المنكرين للسنة الذين قد يستحقون القتل.

وهذا الحديث بالذات قد صنف ضمن ما وضعته الزنادقة، ففي تذكرة الموضوعات للفَتَّنِي: (وفي رسالة علم الحديث ما أورده الأصوليون من قوله "إذا روي عني حديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فاقبلوه وإن خالفه فردوه" وقال الخطابي: وضعته الزنادقة ويدفعه حديث أني أويت الكتاب وما يعدله"، ويروى "ومثله معه" وكذا قال الصغاني) اهـ (انظر: موقع المحدث على الانترنت).

وبالفعل فإن في مقابل حديث العرض على كتاب الله، الذي يعني تبعية السنة للكتاب يروى حديث (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه إلا أني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل ينثني شبعاناً على أريكته يقول عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه) رواه أحمد.

ولذلك يستغرب الفقيه عند أهل السنة مثلاً موضوع تبعية السنة للقرآن لأنه يتصور أن كلاً منهما يعمل في دائرة مختلفة ولا يتصور حصول تعارض بين رواية تروى والقرآن، في حين أن الفقيه الإباضي من قديم كان يطرح دائماً تساؤلاً مفاده: هل هذه الرواية تتفق مع القرآن؟، وهذا ما حصل مع الإمام التابعي جابر بن زيد عندما قال عن أحاديث المسح على الخفين: (أدركت جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألتهم: هل يمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم على خفيه ؟ قالوا : لا . قال جابر: كيف يمسح الرجل على خفية والله تعالى يخاطبنا في كتابه بنفس الوضوء؟! والله أعلم بما يرويه مخالفونا في أحاديثهم).

وأبو أيوب وائل بن أيوب إمام الإباضية بالبصرة بعد الربيع يقول: (لا تقل عن النبي صلى الله عليه وسلّم إلا ما وافق كتاب الله، وأن سنة النبي صلى الله عليه وسلّم موافقة لكتاب الله لا يخالفه صلى الله عليه وسلّم) انظر: ابن جعفر، الجامع، ج١ ص ١١٠-١١١.

وإمامي الإباضية في عصريهما ورأسي المدرستين الرستاقية والنزوانية أبو سعيد وابن بركة يصرحان بذلك في وضوح تام، يقول أبو سعيد الكدمي، المعتبر، ج١ ص١٤: (ثبوت العلم كله من كتاب الله تعالى، **معناه أن الأصل كله من القرآن، خارجة أحكامه كلها من التنزيل**، فمنه ما يخرج بنفسه من غير تأويل، ومنه ما يحتاج إلى التأويل، ومنه ما لا يخرج في تأويل التنزيل؛ ويخرج في تأويل التأويل للتنزيل، فمنه ما كان دالاً على نفسه من التنزيل ولم يحتج إلى تأويل، وما احتاج إلى تأويل؛ فمنه ما اختلف في تأويله، ولم يصح من اختلاف المتأولين إلا ما وافق التنزيل المحكم؛ غير المتشابه ولا المنسوخ، فهذا أحكام التنزيل.

فالحق كله خارج بأسره من حكم التنزيل عن الله تبارك وتعالى، وهو أنه لا يدرك الحق إلا منه، وما خرج من أحكامه منه وفيه، وما لم يوافقه ولم تخرج أحكامه منه فهو باطل، لأنه الحق من الله وما سواه باطل، وما بعد الحق إلا الضلال، وما خرج على الحق فهو باطل، لأنه قيل: إن الحق كله إنما يدرك من كتاب الله تبارك وتعالى، أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، أو إجماع المحقين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، أو حجة العقل مما وافق فيه هذه الأصول الثلاثة: كتاب الله وسنة رسوله وإجماع المحقين من الأمة، وهذه الأصول كلها من كتاب الله تعالى، وهو القرآن الذي أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، منه ما يخرج في نصِّ الكتاب بغير تأويل، ومنه ما يخرج من تأويل كتاب الله تبارك وتعالى. **والسنة كلها تأويل لكتاب الله تبارك وتعالى**، وكذلك الإجماع من تأويل كتاب الله، فكما كان تأويل التنزيل تأويلاً له؛ كذلك السنة والإجماع من تأويل كتاب الله، وكذلك حجة العقل من تأويل كتاب الله تبارك وتعالى، والرأي من أهل الرأي من المسلمين يخرج حجة من العقول، فثبت أن الحق كله والعلم كله هو من القرآن)اهـ.

ويقول ابن بركة في الجامع، ج١ ص ٢٨٠: (وأحكام الشريعة كلها مأخوذة من طريق واحد وأصل واحد، وهو كتاب رب العالمين، فهو قوله: "اتبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مّن رّبّكُمْ وَلاَ تَتّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ قَلِيلاً مّا تَذَكّرُونَ" الأعراف:٣، والسنة أيضاً مأخوذة من الكتاب قال جلَّ ذكره: "أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرّسُولَ" النساء:٥٩ وقال: "فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدّوهُ إِلَى اللهِ وَالرّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ

الاَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً" النساء:٥٩ وقال جلَّ ذكره: "فَلْيَحْذَرِ الّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" النور:٦٣ وقال: "مّنْ يُطِعِ الرّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ" النساء:٨٠ وقال: "فَلاَ وَرَبّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتّىَ يُحَكّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمّ لاَ يَجِدُواْ فِيَ أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مّمّا قَضَيْتَ وَيُسَلّمُواْ تَسْلِيماً" النساء:٦٥ وقال: "وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىَ ، إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحَىَ" النجم: ٣– ٤ والسنة عمل بكتاب الله، وبه وجب اتباعها).

ويقول البسيوي في جامعه، ج٣ ص ٤٥: (فمن حدثكم بحديث يخالف القرآن فلا تصدقوه واتهموه؛ إلا ما صحّ عن الرسول صلى الله عليه وسلّم مما يؤيد القرآنُ مثلَه).

هذا ما يقوله أقطاب الإباضية الأوائل إلى القرن الرابع الهجري في أن السنة: تعرض على كتاب الله، ومأخودة من كتاب الله، وتأويل لكتاب الله، في حين صار الآن من يقول بذلك من منكري السنة ومن جملة أهل الضلال والأهواء!!، وهذه من جملة الانقلابات الهائلة التي نمر بها.

الفصل الثاني

الانقلاب الكبير

الانقلاب الكبير

ذكرنا فيما سبق أن القول بتبعية السنة للقرآن هو قول جمهور الإباضية، وذكرنا أمثلة على ذلك من كلام علماء الإباضية إلى القرن الرابع الهجري، وقلنا إن الدافع الحقيقي للشيخ الخليلي لرمي من يرد عليهم بتهمة إنكار السنة هو قولهم بتبعية السنة للقرآن والذي لا يراه الشيخ الخليلي كما صرح به في كتاب (العقل).

الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل وصل إلى حد تبني الشيخ الخليلي صراحة لفكرة إثبات الغيبيات بالأحاديث التي يرويها آحاد الرواة، منقلباً بذلك على كل مقررات المذهب الإباضي، في إثبات القضايا الغيبية بالأدلة القطعية .

بل انقلب على كل ما يراه في الزمن الماضي من ضرورة إثبات الغيبيات بالأدلة القطعية، وهي القرآن الكريم والمتواتر تواتراً لا شك فيه من السنة النبوية، ولا حاجة بنا إلى نقل واحد عنه في ذلك لاشتهاره عن الشيخ ولكونه من المقررات الأساسية في البناء العقدي في المذهب الإباضي، وأرجع القارئ في ذلك إلى ما كتبه الشيخ الخليلي في (تعليقاته على كتاب مشارق أنوار العقول، وكتابه الرائع في وقته الحق الدامغ).

فقال في كتابه الأخير (العقل):

- ص٢١٣-٢١٢:**(ومن عجيب ما سمعته عنهم ما حدثني به أحد الثقات عن أحد أركانهم أنه قال: "لو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بحقيقة غيبية، ولم تكن مذكورة في القرآن لم أكن مكلفاً أن أصدقه فيها"، فأي ضلال للعقول أبعد من هذا الضلال).**

طبعاً هذا النقل جاء من طريق الثقات كالعادة!!، ونحن لا نقبل مثل هذه النقول عن الناس، الذين تروى عنهم في أجواء مشحونة بالخصومة، ولو شغلنا (الفلتر، والفلتر هنا هو العقل) لقرأنا هذا النقل - إن كان له أصل صحيح- كالتالي :

((لو روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يتعلق بأمر الغيب ولم يكن مذكوراً في القرآن لم أكن مكلفاً أن أعتقده)).

النص الذي نقله الشيخ الخليلي والنص الذي قمنا بتنقيته بواسطة (الفلتر) يتقابلان كالتالي:

١. (لو سمعت رسول الله) في مقابل (لو روي عن رسول الله)

فمن يعيش في أزماننا لا يصله إلا ما يرويه الرواة لا ما يسمعه من النبي عليه السلام، وهؤلاء الرواة قد ينقلون الرواية على وجهها، وقد يزيدون وينقصون فيه، بل وحتى يكذبون، وهنا يحصل التعارض، يقول هلال بن عطية: (هناك من يسندون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم روايات أحاديث، يتركون من الحديث بعضه ويأخذون بعضه، فيظهر اللفظ مخالفاً لكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم) انظر: هلال بن عطية، سيرة هلال بن عطية، ص٨١ (مخطوط)

٢. (يخبر بحقيقة غيبية) في مقابل (ما يتعلق بأمر الغيب)

فما يرويه الرواة ابتداء لم يتحول بعد لحقيقة غيبية، إنما موضوعه يتعلق بأمر غيبي، ثم ينظر فيه من بعد.

٣. (لم أكن مكلفاً أن أصدقه فيها) في مقابل (لم أكن مكلفاً أن أعتقده)

المسألة ليست تصديقاً للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام أو عدم تصديقه، إنما هي تصديق للرواة الذين يروون عنه أو لا، لكن يبدو أن الرغبة في تجييش مشاعر الناس قلب الأمور إلى مسألة الزج بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم في الموضوع، وإلا فإن السلفيين مثلاً يستطيعون القول- وقالوه بالفعل- إن الشيخ الخليلي والإباضية عموماً يُكذِّبون الرسول صلى الله عليه وسلم في إخباره عن رؤية الله تعالى، وخروج العصاة من النار، وشفاعته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للعصاة .

ثم قال الشيخ الخليلي في ص٢١٤: (على أن الرسالة كلها إنما هي صلة بين الشهادة والغيب، وقد أمرنا أول ما أمرنا بالإيمان بالغيب، وهل يأتينا ذلك الغيب إلا من طريقه عليه أفضل الصلاة والسلام؟، على أنه من البدهيات أن رد السنة إنما هو رد للقرآن لأن القرآن هو أصلها، فإنما أمرنا باتباعه صلى الله عليه وسلم وطاعته بدلائل القرآن، فأنى يكون أحداً متبعاً للقرآن وقد أعرض عما دعا إليه عليه أفضل الصلاة والسلام؟).

في هذا النص يقرر الشيخ الخليلي **بشكل صريح لا غموض فيه ولا لبس أن إثبات الغيب يكون بما يروى عنه صلى الله عليه وسلم دون تقييد لطبيعة ما يروى عنه في ذلك هل هو من المتواتر أم مما يتفرد به آحاد الرواة**، وحشر في الموضوع مسألة رد السنة والإعراض عنها، وهو ذاته الخطاب السلفي المعهود الذي يجعل لأحاديث الآحاد ذات الحجية لنصوص القرآن القطعية الثبوت، أي أنك إذا لم

تقبل حديثاً في إثبات أمر غيبي فأنت ترد السنة وتجحدها . !وهذه القضية سوف نناقشها بالتفصيل في الحلقات القادمة بإذن الله تعالى.

ملاحظة هامة: أطلب من جميع القراء تطبيق هذه القاعدة التي يراها الشيخ الخليلي على مختلف القضايا العقدية، من الإيمان بالملائكة والرسل والبعث والحساب والعقاب والجنة والنار، وستكتشفون النتيجة بأنفسكم دون توجيه من أحد.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره من مطالبة الشيخ الخليلي الناس بإثبات الغيبيات بالروايات التي يرويها الرواة دون تحديد لطبيعتها، وإلا كانوا ممن يردون السنة عندما قال: في ص٢١٤ من كتاب (العقل): **(على أن الرسالة كلها إنما هي صلة بين الشهادة والغيب، وقد أمرنا أول ما أمرنا بالإيمان بالغيب، وهل يأتينا ذلك الغيب إلا من طريقه عليه أفضل الصلاة والسلام؟، على أنه من البدهيات أن رد السنة إنما هو رد للقرآن لأن القرآن هو أصلها، فإنما أمرنا باتباعه صلى الله عليه وسلم وطاعته بدلائل القرآن، فأنى يكون أحداً متبعاً للقرآن وقد أعرض عما دعا إليه عليه أفضل الصلاة والسلام؟)**؛

زاد الشيخ قاعدة أخرى للبحث العقدي تنص أن ما لم يكن منفياً في الغيبيات لا يمكن نفيه إلا بدليل قطعي شأنه شأن الإثبات، قال في ص ٩٣: **(فليس لإنسان أن ينكر ما لم يكن ثابتاً بالقطع، ولئن كان الإثبات يتوقف على دليل قطعي، فإن النفي أولى بأن يتوقف عليه)** اهـ، ويمكن صياغة كلام الشيخ: ((أن غير المنفي لا يجوز نفيه إلا بدليل قطعي)).

ولنتحدث عن تطبيق هذه القاعدة الغريبة في منطقة الغيبيات:

كما قلنا سابقاً، إن الغيبيات لا تثبت إلا بالأدلة القطعية في ثبوتها ودلالتها، وهذا لأجل طبيعتها غير المدرَكة بالحواس، لذا فإن الباب الذي تلج منه شتى أنواع الخرافات أن تثبت الغيبيات بمحض الظنون والأوهام بشتى أنواعها.

والخطأ في هذا الباب أن يقاس الغائب على الشاهد، فيقال إن المسكون عنه في الغيبيات شأنه شأن المسكوت عنه في عالم الشهادة، ويستتبع ذلك أنه يمكن إثبات المسكوت عنه في الغيبيات أو السماح له بالبقاء مجاوراً لها بدعوى عدم نفيه. ولم نجد لهذه الدعوى أصلاً في كتاب الله تعالى ولا في نص نبوي متواتر، بل وجدنا أصلها في بعض الكتابات التي حاولت أن تتسور جدران الشريعة بإثبات بعض

المعتقدات أو المزاعم بدعوى عدم نفيها، وادعاء أن (المسكوت عنه لا يمكن نفيه) هو أحد أصول المجسمة والمشبهة لله تعالى، فرعوا عليه في باب التشبيه والتجسيم الذي اعتمدوا عليه.

قال عثمان الدارمي : (ولو قد شاء لاستقر على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته ولطف ربوبيته فكيف على عرش عظيم أكبر من السماوات والأرض، فكيف على عرش عظيم أكبر من السماوات والأرض، فكيف تنكر أيها النفاج أن عرشه يقله) انظر: ابن تيمية، بيان تلبيس الجهمية،ج١ ص ٥٦٨، فاستقرار الله تعالى على جناح بعوضة ليس منفياً نفياً قطعياً بذاته وبعينه، لا سيما إذا أضفنا مبدأ القدرة الإلهية المطلقة، لذا فتدخل في باب (غير المنفي الذي لا يجوز نفيه إلا بالدليل القطعي حسب التصور التجسيمي).

وهناك أمثلة عديدة على فساد مقولة أن (المسكوت عنه لا يمكن نفيه في باب الغيبيات)، إذ أنها تفتح الباب مشرعاً أمام أية إضافات أو انحرافات يمكن أن تلج إلى منطقة الغيبيات:

١. هذه المقولة (المسكوت عنه لا يمكن نفيه في باب الغيبيات) تجوِّز أن يوصف الله تعالى بالحواس، لأن القرآن الكريم لم ينفها عنه تعالى بأعيانها، فمثلاً الله تعالى يقول (يَدُ اللهِّ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) الفتح:١٠ فلم تنف الآية وصف اليد (الجارحة) بل أثبتتها حسب الفهم الظاهر السطحي، وعلى هذا يسوغ للمجسمة أن يفهموا من قول الله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) الشورى:١١ بأنها يد لا كالأيادي، ولا يمكن القول بأن عمومات النصوص تنفيها، لأنهم يتكلمون عن ظاهرية حرفية في المسكوت عنه، ولا يطرحون فكرة عمومات النصوص وحِزَم الدلالات التي تتجمع منها، وعليه فيمكن فهم قوله تعالى:(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) الشورى:١١ الفهم السابق الذي تعاطاه المجسمة من قديم.

٢. هذه المقولة (المسكوت عنه لا يمكن نفيه في باب الغيبيات) تجوّز أن يوصف الله تعالى بأي وصف قبيح أو خارج عن الأدب مع الله تبارك وتعالى، فلم يرد مثلاً نفي وصف الله تعالى بأنه "صباغ" أو "دهان" على اعتبار أنه هو من خلق هذا الكون البديع بألوانه الزاهية، ويسوغ لمن يريد قول ذلك أن يفهم من قول الله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) الشورى: ١١ بأنه صباغ لا كبقية الصباغين، على اعتبار أن هذه الصفة لم تنف عنه تبارك وتعالى، فـ(المسكوت عنه لا يمكن نفيه في باب الغيبيات).

بل أتت بعض الروايات بإثبات أن الله تعالى يخبز أي ((خباز))!!، روى البخاري (٦١٥٥) ومسلم (٢٧٩٢) عن أبي سعيد الخدري: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكَفَّؤُها الجبَّار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر، نزلاً لأهل الجنة .(فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: (بلى). قال: تكون الأرض خبزة واحدة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: إدامهم بالام ونون، قالوا: وما هذا؟ قال: ثور ونون، يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفا).

٣. أن القرآن الكريم نفى صفة الأنوثة عن الملائكة الكرام حين شنع على الكفار مقولتهم تلك (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً) الإسراء:٤٠ ، لكنه سكت عن وصفهم بالذكورية ولم ينفها صراحة، وعليه فلا يمكن نفي صفة الذكورية عن الملائكة لأن (المسكوت عنه لا يجوز نفيه في باب الغيبيات)؟.

٤. فيما يتعلق بعالم الجن أو الملائكة لم يُنف عنهم أنهم لا يتزوجون من بني البشر، فلم يرد نص في ذلك، فهل هو من المسكوت عنه الذي لا يمكن نفيه في باب الغيبيات؟!، وعليه إذا ادعت امرأة أنها حملت من جني أو من مَلك فلا يجوز نفي ذلك ولا يمكن القطع بتكذيبها في مقولتها لأن (المسكوت عنه لا يمكن نفيه في باب الغيبيات)!. وهذا يستتبع بدوره أن لا تنال المرأة عقوبة وجواز نسبة الولد إلى أبيه من الجن إذا كانت العلاقة زواجاً.

٥. بناء على هذه المقولة يمكن أن يفسر قوله تعالى تعالى (لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) الأنعام:١٠٣ بأن الأبصار فقط هي التي لا تدركه، وأما غيرها كالآلات أو السمع أو العقل فيمكن أن تدرك ذات الله تعالى بناء على أن (المسكوت عنه لا يمكن نفيه في باب الغيبيات).

وسبب اعتراضي على هذه المقولة (غير المنفي لا يجوز نفيه إلا بدليل قطعي) في باب الغيبيات، أن أصول العقائد محددة على سبيل الحصر لا يجوز إضافة شيء إليها أو اكتشاف شيء جديد منها يدخل في إطار الممكنات أو المستحيلات، الغيبيات محددة على سبيل الحصر، وهي حصراً في كتاب الله تعالى لا يشذ عنها شيء ولا يطالب المسلم بغيرها حتى يكون في عداد المسلمين والمؤمنين .

فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر قضايا محددة على سبيل الحصر، وتطبيق هذه القاعدة عليها يفضي إلى فتح هذه الدائرة المغلقة، وهذا الفتح لدائرة الغيب بهذه المقولة تم قديماً

بروايات قدمت عقائد لم توجد في كتاب الله بدعوى استقلال السنة عن القرآن، أو عدم الرغبة في رد روايات يخشون منها أنهم بذلك يكذبون النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يدروا أنهم وقعوا في فخ نصبه لهم الكذبة الذين أدخلوا في دين الله ما ليس منه كروايات التجسيم والتشبيه، وهذا ما دفع الإباضية في أصولهم العقائدية أن لا يعتمدوا على حديث الآحاد في إثبات الغيبيات، لاحتمال الوهم والخطأ والكذب في رواته.

نعم هذه المقولة ((غير المنفي لا يجوز نفيه إلا بدليل قطعي)) صالحة للعمل في منطقة عالم الشهادة أو منطقة البحث الكوني التي تحتمل الإمكان والاستحالة وفق بعض الشروط والضوابط .وسنناقش هذه المسألة بالتفصيل عند الحديث على موضوع الكرامات والخوارق عموماً.

ايضاحات

١. فيما يتعلق بالنقل الذي نسبه الشيخ الخليلي في ص ٢١٢-٢١٣: (**ومن عجيب ما سمعته عنهم ما حدثني به أحد الثقات عن أحد أركانهم أنه قال: "لو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بحقيقة غيبية، ولم تكن مذكورة في القرآن لم أكن مكلفاً أن أصدقه فيها"، فأي ضلال للعقول أبعد من هذا الضلال**) اهـ.

وقلنا إن بالفهم الصحيح وتشغيل الفلتر لقرأنا هذا النقل- إن كان له أصل صحيح- كالتالي: ((**لو روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يتعلق بأمر الغيب ولم يكن مذكوراً في القرآن لم أكن مكلفاً أن أعتقده**)).

وعلماء الإباضية في مناقشتهم لموضوع ولاية الحقيقة وبراءة الحقيقة ناقشوا مثل هذه المسألة، فيما يتعلق بالذي يسمع من فم النبي صلى الله عليه وسلم شهادة لأحد بالجنة، وتجد ذلك في الكتب المخصصة لذلك، كالاستقامة للشيخ أبي سعيد الكدمي، ويضرب العلامة حمد بن عبيد السليمي في (الشمس الشارقة، ص٩٥) مثالاً لذلك فيقول: (ولو سمع ابن عباس من النبي صلى الله عليه وسلّم شهادة لأحد بالجنة، فخرج من عنده فلقي جابر بن زيد وأخبره بذلك، لما صح لجابر أن يشهد للمشهود له بالجنة من خبر ابن عباس حتى يسمع من النبي عليه الصلاة والسلام كما سمع ابن عباس) اهـ.

من هذا النص يتبين الفرق بين سماع ابن عباس وسماع جابر بن زيد

- **فسماع ابن عباس كان واضحاً وصريحاً** وملزماً لابن عباس لسماعه مباشرة من فم النبي صلى الله عليه وسلم (وهو النبي المعصوم المؤيد بالوحي (أن فلاناً هو من أهل الجنة) وطبعاً هذه مسألة افتراضية لأنه لا يوجد مثال واحد عليها على الإطلاق.

- **أما جابر بن زيد الذي يسمع من ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم** أن فلاناً في الجنة، فلا تلزم جابر بن زيد بذلك، لأن الرواية هنا في مسألة غيبية تلزم التواتر في النقل ولا تواتر هنا، فاحتمالات الخطأ والوهم وغيرها قائمة، والعقائد والغيبيات لا تبنى على الظنون مهما أحسنا الظن بالرواة.

٢. سأل البعض عن أمثلة على إثبات الشيخ الخليلي للغيبيات بحديث الآحاد:

المسألة الآن بدون أمثلة في كتاب (العقل)، لكنه أصلها من الناحية النظرية، وحشر موضوع رد السنة وإنكارها في ذات السياق، فمن لا يقبل حديثاً آحادياً في إثبات الغيبيات فهو راد للسنة!!

لكن توجد أمثلة على ذلك مما قاله الشيخ الخليلي في مناسبات أخرى في الآونة الأخيرة، فقد نشرت جريدة (الوطن) يوم الخميس ٢٩من رجب ١٤٢٩هـ الموافق ٣١ من يوليو ٢٠٠٨م. العدد (٩١٣٤): (من برنامج سؤال أهل الذكر):

فعندما سأل المذيع: (قلتم بأن الإسراء ثبت بنص الكتاب العزيز أما بالنسبة للمعراج فثبت بإشارة القرآن الكريم، ما هو البعد العقائدي لحادثة الإسراء والمعراج، بمعنى هل يقع حادثي الإسراء والمعراج ضمن دائرة المعلوم من الدين بالضرورة ؟

أجاب الشيخ الخليلي: (**نعم، أما بالنسبة إلى الإسراء فلأجل النص القطعي في سورة الإسراء، وأما المعراج فمن حيث الإشارة إلى ذلك التي تكاد تكون صريحة في سورة النجم، مع الأحاديث المستفيضة، ولذلك قالوا بأن من أنكر الإسراء فهو كافر كفر شرك لأنه رد نصاً صريحاً لا يقبل الجدل، <u>ومن أنكر المعراج فهو فاسق</u>**) اهـ.

يعلم الشيخ الخليلي جيداً أن ما يقوله بأن هناك إشارات لمسألة المعراج في القرآن لا يسلم به الكثير من العلماء، ولهم أوجه أخرى معتبرة في تفسيرها، والروايات التي وردت فيه هي من أحاديث الآحاد التي لا تستقل بإنشاء عقيدة ولا يثبت بها أمر غيبي، هذا مع مطاعن كثيرة في هذه الأحاديث من حيث السند والمتن، ومع ذلك ينقل الشيخ كلاماً مرتضياً له عن بعضهم أنه من ينكر المعراج فهو فاسق، هكذا بكل بساطة.

مع الأخذ في الاعتبار:

- أنه لا يوجد حديث واحد في المعراج عند الإباضية، سوى حديث الربيع (١٨٩): عن جابر بز زيد عن ابن عباس: (...وكان النبي صلى الله عليه وسلم صلى إلى الكعبة بمكة ثماني سنين **إلى أن عرج به إلى بيت المقدس، ثم تحول إلى قبلته**)، وهو واضح أنه عبر به عن رحلة الإسراء كما جاء في الأحاديث، وليس فيه أي ذكر للمعراج إلى السماوات، بل عبر بالعروج إلى بيت المقدس.

فهذه الأحاديث مما تفردت بها كتب الحديث عند أهل السنة.

- هناك عدد من علماء الإباضية من صرحوا بإنكار فكرة المعراج، ومن أشهرهم الشيخ ناصر بن أبي نبهان الخروصي، حيث قال: ((وأن جميع ما ذكروه فيه من رؤيته في السموات الأنبياء، وذكر تخفيف الصلوات، وتردده على الله تعالى غير صحيح، والله تعالى أسرى به بجسده وروحه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأنزل في كرامته له هذه تنزيلاً في ذكرها لنؤمن بهما فيه، فكيف لا يذكر البارئ تعريجه إلى السموات في تنزيله؟ ولو كان صحيحاً لأنزل ذكر ذلك البارئ في تنزيله، **وجهل علم وقوع المعراج مما يسع، فليس هو من العقائد الدينية**، والله أعلم) انظر: قاموس الشريعة، ج٦ ص ٣٥٩، وكذلك الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي، الذي نقل كلام الشيخ ناصر بنصه وأقره عليه. (انظر تمهيد قواعد الإيمان للشيخ سعيد بن خلفان)، وهذا هو الذي رجحه زكريا المحرمي في كتابه (قراءة في جدلية الرواية والدراية).

- هذا الفارق بين مناهج العلماء السابقين في المذهب وما يقوله الشيخ الخليلي في الآونة الأخيرة، فعندما يقول ابن أبي نبهان أنه (لو كان صحيحاً لأنزل ذكر ذلك البارئ في تنزيله، وجهل علم وقوع المعراج مما يسع، فليس هو من العقائد الدينية)، فهو ينكر وقوع ما يسمى بالمعراج، لطريقة نقله الظنية التي لا تتناسب وأهميته البالغة في نظر الناس لكونه من المسائل الغيبية، وكذلك لكثير من المطاعن التي وجهت إلى سند الروايات ومتونها، ولم يفسق أحداً لاعتناقه هذه الفكره إذا لم يعدها عقيدة دينية واعتبرها مجرد رأي، لأنه لا نص قطعي في إثباتها.

بينما الشيخ الخليلي كان يتحدث في سياق المعراج - ويقرنها بالإسراء - عن قدرة الله التي لا يحدها حد وعن تأييد أنبيائه بالمعجزات، (نحن نؤمن بأن رسل الله تبارك وتعالى قرن الله عز وجل دعواتهم بمعجزات خارقة للعادات ، بمعنى أنها خارجة عن مألوف البشر، وعن السنن التي عهدوها في هذه الحياة ، إلا أن ذلك إنما كان في مقام التحدي. في مقام التحدي كانت معجزة عيسى عليه السلام في

إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى. كانت في مقام التحدي معجزة موسى عليه السلام وهي العصا التي لقفت كل ما جاء به سحرة فرعون. في مقام التحدي كانت معجزة إبراهيم عليه السلام إذ لم تؤثر النار عليه احتراقا....) اهـ (المقابلة السابقة المشار إليها)، وأوصل الأمر إلى حد التفسيق لمن ينكر المعراج.

منهج إثبات الغيبيات[١]

يقوم الخط العقائدي في إثبات الغيبيات في البحث الفقهي الإباضي على القطعيات من الأدلة ثبوتاً ودلالة، أي لا بد أن يكون الدليل قطعياً من حيث السند، بأن يكون من القرآن الكريم أو المتواتر من السنة النبوية، وتكون دلالته على ذلك من باب النص، أي لا تحتمل إلا تلك الدلالة دون سواها . وهذه العبارات صار الناس يحتاجون إلى شرحها.

(الغيبيات)... في باب الاعتقاد هي ما غاب عنا من عالم لا نستطيع أن نلج إليه بحواسنا كالملائكة والجن واليوم الآخر، وكذلك حقيقة الكتب السماوية التي حرفت عن أصلها، اللهم إلا ما أخبرنا الله تعالى به في كتابه، وكذلك قصص الأنبياء السابقين، الذين حرفت سيرهم ولم يعد ممكناً الاعتماد إلا على كتاب الله وحده في قصصهم.

(المتواتر من السنة النبوية)... وذلك بأن يروى الحديث من طريق عدد كبير جداً من الرواة يستحيل تواطؤ مثلهم على الكذب، بأن يكونوا من بلدان شتى ومن مذاهب شتى، وإلا كان الخبر دون هذا المستوى، لأنه إذا رواة أهل الكوفة أو أهل البصرة مثلاً، فلا يحيل العقل تواطؤ مثلهم على الكذب، أو يشيع الحديث عند السنة وحدهم فقط، أو عند الشيعة فقط، فعندئذ لا نكون أمام حديث متواتر، بل مشهور عند أهل مذهب معين كأحاديث المهدي المنتظر التي لا يعرفها الإباضية والزيدية والمعتزلة، وكذلك أحاديث نزول المسيح في آخر الزمان التي لم يروها الإباضية والمعتزلة، وأحاديث الرفع والضم في الصلاة لم يروها الإباضية ولم يعرفوها، ولا يصير مثل هذا النوع من الأحاديث متواتراً وإن رواه من أهل مذهب معين عشرات الألوف، فليس يجزي فيه بعض الأمة وإن يكونوا ألف ألف مئة.

واعتماد الإباضية على القطعي من الأدلة في إثبات الغيبيات يرجع إلى عاملين اثنين:

---

١ هذا العنوان من وضع المرتب.

- أن القرآن الكريم حوى كل العقائد الغيبية لم يفرط في شيء منها: (مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) الأنعام:٣٨، وقوله: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) العنكبوت:٥١، والسنة المتواترة ترجمة للقرآن الكريم، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو الناس لشهادة الشهادتين وما يندرج تحتها من القول والعمل، كالإيمان بالرسل والكتب والملائكة واليوم الآخر، هذه هي السنة المتواترة في الغيبيات، فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس للقول بأن الله تعالى في السماء أو أنه قاعد على العرش أو أنه ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل وغيرها من العقائد الفاسدة التي جاءت بها بعض الروايات التي حاولت أن تلصق نفسها بالغيب .

- أن عالم الرواية التي ينفرد بها بعض الرواة غير السنة التي يعلمها الجميع، وهي وكتاب الله تمثل الوحي؛ فالرواية الآحادية عرضة للدس والكذب والوهم والخطأ، لذلك كان العلماء يقولون: إن حديث الآحاد لا يفيد العلم، أي لا يستقل بإنشاء عقيدة ولا يعول عليه في إثبات الغيبيات.

وسنبين للقارئ من خلال استعراض نصوص المدرسة الإباضية الأولى - التي سار الإباضية من بعد على منهجها- منهجها في إثبات الغيبيات، يقول عداب الحمش: (الزيدية والإباضية والمعتزلة ظلوا ملتزمين مع اصطلاحهم أن العقائد لا تثبت بأخبار الآحاد إلى حد كبير) انظر: عداب الحمش، المهدي المنتظر، ص٢٥٨.

١. المدرسة الإباضية الأولى:

روى الربيع في المسند: "أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنكم ستختلفون من بعدي، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافقه فعني، وما خالفه فليس عني)".

وهذا الحديث كان العمدة في الاعتماد على القطعي من الأدلة في البناء العقدي، ولذا ما يرويه الناس عن الرسول صلى الله عليه وسلم يعرض على الكتاب العزيز، وما جاء في هذا الحديث هذا هو ذاته ما في قوله تعالى: (مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) الأنعام:٣٨، وقوله: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) العنكبوت:٥١

من خلال سبر النصوص التي وصلتنا من تراث فقهاء المدرسة الإباضية الأولى وتلاميذهم، يتبين لنا بجلاء أن المصدر الرئيس بل والوحيد المؤسس للعقائد هو كتاب الله تعالى، ولم توجد في مؤلفاتهم العقدية سوى أحاديث قليلة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، هي عبارة عن نفس الدلالات القرآنية لا تتجاوزها (انظر كتاب: التوحيد لعبدالله بن يزيد الفزاري، وكتاب أصول الدينونة الصافية، لعمروس بن فتح).

ولذلك لا توجد مسألة عقدية واحدة أثرت عنهم لم يؤسسوها ابتداء على قواعد متينة من كتاب الله.

بل إنهم كانون يردون على الأفكار التي تحاول أن تؤصل للغيبيات دون اعتماد كتاب الله:

- جاء في الأخبار المقاطيع (٨١) عن جابر بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ليست الشفاعة لأهل الكبائر من أمتي)) يحلف جابر عند ذلك: ما لأهل الكبائر شفاعة لأن الله قد أوعد أهل الكبائر النار في كتابه وإن جاء الحديث عن أنس بن مالك أن الشفاعة لأهل الكبائر فوالله ما عنى القتل والزني والسحر وما أوعد الله عليه النار وذكر أن أنس بن مالك يقول: (إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر ما كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من الكبائر).

- وفي الأخبار المقاطيع (٢١) عن جابر بن زيد قال: (المرجئة يهود أهل القبلة، لأنهم يعدون أهل المعصية الجنة وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة كما قالت اليهود والنصارى).

ويظهر اعتمادهم على الأدلة القطعية من حيث الثبوت والدلالة في إثبات الغيبيات ما رووه عن جيل الصحابة والتابعين من تعويلهم على هذا المنهج، وردهم لما يخالفها من روايات يرويها الناس:

ففي آثار الربيع في الحجة على مخالفيه:

- (٨١) قال الربيع: أخبرنا بشر بن إسماعيل بن عُليّة عن داود بن أبي عقيل عن أبي هند عن الشعبي عن مسروق قال: كنت عند عائشة رضي الله عنها فقالت: ثلاثة من تكلم بواحدة منها فقد أعظم على الله الفرية، من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئاً فجلست وقلت: يا أم المؤمنين انظري ولا تعجلي، ألم يقل الله: ((وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى)) ((وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى)) فقالت عائشة رضي الله عنها: أنا أول هذه الأمة سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: (ذلك جبريل عليه السلام، ولم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين، رأيته قد هبط من السماء فسد جسمه ما بين السماء والأرض) ألم تسمع لقوله تعالى: ((لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ

اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)) قال مسروق: تفسير هذه الآية دليل على ما روت عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى)) ((لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)).

- (٩٨) قال الربيع: وأخبرنا أبان قال: حدثنا يحيى بن إسماعيل عن الحارث الهمداني قال: بلغ علياً أن قوما من أهل عسكره شبهوا الله وأفرطوا .

قال: فخطب علي الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس اتقوا هذه المارقة ، فقالوا يا أمير المؤمنين وما المارقة ؟.

قال: الذين يشبهون الله بأنفسهم، فقالوا: وكيف يشبهون الله بأنفسهم؟

قال: يضاهئون بذلك قول الذين كفروا من أهل الكتاب إذ قالوا خلق الله آدم على صورته سبحانه وتعالى عما يقولون سبحانه وتعالى عما يشركون، بل الله الواحد الذي ليس كمثله شيء، استخلص الوحدانية والجبروت وأمضى المشيئة والإرادة والقدرة والعلم بما هو كائن، لا منازع له في شيء، ولا كفؤ له يعادله، ولا ضد له ينازعه، ولا سمي له يشبهه، ولا مثل له يشاكله ولا تبدو له الأمور، ولا تجري عليه الأحوال ولا تنزل به الأحداث، وهو يجري الأحوال وينزل الأحداث على المخلوقين، لا يبلغ الواصفون كنه حقيقته ولا يخطر على القلوب مبلغ جبروته، لأنه ليس له في الخلق شبيه، ولا له في الأشياء نظير، ولا تدركه العلماء بألبابها، ولا أهل التفكير بتدبيرها إلا بالتحقيق إيمانا بالغيب، لأنه لا يوصف بشيء من صفات المخلوقين، وهو الواحد الذي لا كفؤ له...).

- (١٣٢) قال الربيع: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم قال: حدثنا ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن عبدالله بن عمر أنه سئل عن الصخرة التي كانت في بيت المقدس فقال له: إن ناساً يقولون - فذكر قولهم - سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، فارتعد ابن عمر فرقاً وشفقاً حين وصفوه بالحدود والانتقال، فقال ابن عمر: إن الله أعظم وأجلّ أن يوصف بصفات المخلوقين، هذا كلام اليهود أعداء الله تعالى، إنما يقول: ((الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)) أي؛ استوى أمره وقدرته فوق بريته.

- (١٣٩) : (مر ابن مسعود بشيخ يحدث عن التوراة، فلما رأى ابن مسعود سكت، فقال: وبم يحدثكم صاحبكم؟ فقالوا: ذكر أن الله لما خلق السموات والأرض صعد إلى السماء من بيت المقدس، ووضع رجله على صخرة بيت المقدس، فاسترجع ابن مسعود رضي الله عنه، ثم قال: اللهم لا كفر بعد إيمان. يقولها مراراً، ثم قال: ((وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً))، ما أظنه إلا إبليس

تمثل في صورته. ثم قال :فهلا أنكرتم عليه وقلتم كما قال العبد الصالح إبراهيم عليه السلام: ((لا أُحِبُّ الآفِلِينَ))؛ يقول: الزائل المتنقل. فاتهموا اليهود على دينكم).

ودون إطالة على القارئ: أحيله للتوسع في دراسة هذه المسألة الهامة جداً إلى المراجع القديمة: كأصول الدينونة الصافية لعمروس بن فتح، وكتاب النور لأبي عبدالله عثمان الأصم، والجزء الأول من جامع أبي الحسن البسيوي، والجزء الأول من منهج الطالبين للشقصي، والأجزاء من ١-٧ من كتاب قاموس الشريعة لجميل بن خميس السعدي، ومشارق أنوار العقول للسالمي .

ومن المراجع الحديثة: كتاب خميس بن راشد العدوي (المنهج العقدي الإباضي)، وكتاب (شرح غاية المراد) للشيخ أحمد بن حمد الخليلي.

هل تستقل الرواية بإنشاء عقيدة؟

التساؤل المنطقي الذي يطرح نفسه :إذا كانت الرواية التي يتفرد بها آحاد الرواة لا تفيد العلم ولا تستقل بإنشاء عقيدة فماذا نصنع بها؟.

والجواب: أجاب مؤلفا كتاب "الإيمان بين الغيب والخرافة" على هذا التساؤل بجواب حسن، أنقله عنهما كما هو، حيث قالا في ص ١٥٣ : (فالعلماء اتفقوا على أن الاعتقاد لا يكون إلا من نصوص قطعية متواترة، ومن المعلوم أن مصدر العقائد الإيمانية هو كتاب الله الحكيم، فيه كافة الاعتقادات "مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ" الأنعام: ٣٨، وأما الروايات الواردة عنه صلى الله عليه وسلم، فهي:

١. إما أن تكون موافقة للكتاب، فتكون بمثابة تعبير عن المضامين التي بين دفتيه.

٢. أو تكون مخالفة له فترد وترفض لأجل ذلك، مثل روايات الخروج من النار والشفاعة والتجسيم والتشبيه، وأشباهها.

٣. أو تكون مستقلة بقضايا غيبية ليس لها أصل قطعي من الكتاب، فهنا اختلفت نظرة العلماء إليها، فمنهم من قبلها على سبيل الرأي؛ إلا أنه لم يقطع عذر مخالفيه لعدم وجود الدليل القطعي، ومنهم من رفضها لأن الغيبيات إما أن تثبت بالدليل القطعي وإما أن لا تثبت أصلاً، ومنهم من توقف في أمرها، وهذا كله على اعتبار أن المسألة من قبيل الرأي دون رفعها إلى مستوى العقائد، وهذه الأقوال الثلاثة موجودة في المذهب الإباضي، وتظهر جلية في مسألة عذاب القبر.

وهذا التقسيم لأجل حل إشكال الرواية وفض الاشتباك بين مسائل الرأي ومسائل الدين، لكن قضايا الاعتقاد هي في كتاب الله وحده دون زيادة أو نقصان "مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ" الأنعام: ٣٨ "أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" العنكبوت:٥١، يقول ناصر بن أبي نبهان: "التوحيد والوعد والوعيد والأخبار؛ ففي التنـزيل بيان علم ذلك كله فلا يحتاج فيه إلى معرفته بالسنة" اهـ.

وما يتعلق بالجزئية الأخيرة وهي عندما تأتي رواية آحادية بإثبات قضية غيبية لا أصل لها في الكتاب العزيز، فهناك أمثلة أخرى عديدة عليها، كأن تأتي الرواية الآحادية تصف الجنة بوصف لا يوجد في القرآن ولا يوجد ما يعارضه في القرآن، ففي هذه الحالة:

- هناك من لا يقبل أي زيادة على ذلك ويستبعد مثل هذه الروايات من حساباته.
- ومنهم من يتوقف في أمرها.
- ومنهم من قد يقبلها على سبيل الرأي دون أن يحولها إلى معتقد ملزم لأحد .

وأنقل هنا نصاً رائعاً للعلامة أبي الحسن البسيوي يشرح مسألة عذاب القبر والتعاطي معها، قال في جامعه ج١ ص١١٣- ١١٤: (فأما عذاب القبر، فهو القادر على ذلك إن شاء عذب، وإن شاء عفا. وقد يوجد في الدعاء؛ أن يسأل الله ويستعاذ به من الكفر والفقر وعذاب القبر ، وموقف الخزي في الدنيا والآخرة .

وقد اختلف الناس اختلافا كثيراً في معنى عذاب القبر، وقولنا قول المسلمين، ولا يعجز الله شيئاً من ذلك.

وأما ما سألت عن منكر ونكير وحساب القبر، فذلك إلى الله يفعل ما يشاء. وفي هذا اختلاف يطول. وقد قال الله تعالى: "حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين". وقال تعالى: "قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون" وقد قال الله إن إليه الرجعى وهو أسرع الحاسبين، في القبر، كيف شاء الله كان ذلك. فأما قوله تعالى: "إلى ربكم مرجعكم" فهو في الآخرة، وقوله إنه أسرع الحاسبين في الآخرة، لا شك فيه أنه سريع الحساب في الآخرة ولا شك فيه.

فأما منكر و نكير ، فذلك يوجد في الآثار عن ابن عباس وأيضا عن جابر.

وقد وجدنا عن موسى بن أبي جابر :فالله أعلم بذلك، إنما يجوز لنا القول في الحكم على ناطق الكتاب والإجماع، فأما ما فيه الاختلاف ولم يقع فيه حكم بنص ينصوه، فقولنا فيه قول المسلمين ونحن سائلون) اهـ.

وفيما يظهر أن البسيوي يذهب إلى التوقف في أمر عذا القبر.

هل يعلم النبي صلى الله عليه وسلم الغيب؟[٢]

قال الشيخ الخليلي في ص ٢١٣ من كتاب (العقل): (وكثيراً ما يتذرعون في رد أخبار النبي صلى الله الغيبية بدعوى أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب، وما هذه إلا كلمة حق أريد بها باطل، فالنبي صلى الله عليه وسلم لا ريب أنه لم يكن يعلم الغيب الذي لم يطلعه الله تعالى عليه، فهو من هذه الناحية كسائر البشر، ولكن علينا أن لا ننسى أنه رسول يوحى إليه، وقد استثنى الله رسله إذ يظهرهم على ما شاء من غيبه الذي لم يظهر عليه غيرهم، كما نص عليه قوله: "عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً، إلا من ارتضى من رسول") اهـ.

وهذا الرأي الذي يتبناه الشيخ الخليلي، قد عرض خالد الوهيبي خلافه في عام ٢٠٠٥م في كتابه "أشراط الساعة" ص١٣٨-١٤٣:

(والغريب في الأمر أن هذا النوع من المرويات ينص في صراحة وجرأة غريبة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخبر صحابته عن كل ما هو كائن إلى يوم القيامة، فعن حذيفة أنه قال: "أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة فما منه شيء إلا قد سألته إلا أني لم أسأله ما يخرج أهل المدينة من المدينة ، وعن بريد بن أبي مريم عن أبيه قال: "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فأسرينا ليلة، فلما كان في وجه الصبح نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنام ونام الناس معه، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت علينا، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤذن فأذن، ثم صلى الركعتين قبل الفجر ثم أمره فأقام فصلى بالناس، ثم حدثنا بما هو كائن حتى تقوم الساعة" ، قال أبو عيسى الترمذي: "وفي الباب عن حذيفة وأبي مريم وأبي زيد بن أخطب والمغيرة بن شعبة وذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم حدثهم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، وهذا حديث حسن صحيح.

٢ هذا العنوان من وضع المرتب.

نتساءل: أين موقع الرؤية القرآنية من هذه الروايات؟.!

أقولها وبكل صراحة إنها مغيبة تماماً، بل يمكن القول إنها مما لا يلتفت إليه إلا في القليل النادر، فلا تستغرب أيها القارئ الكريم أن تبقى هذه الروايات حاضرة في الأذهان إلى يومنا هذا، والويل كل الويل لمن يحاول أن يرد الناس إلى فهم ورؤية قرآنية وما كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام في سيرته وحياته، بدعوى ثبوت أسانيد هذه الروايات، وهذه الحقائق البسيطة كانت حاضرة في أذهان فقهاء الصحابة، فالسيدة الجليلة عائشة أم المؤمنين تقول: (ومن زعم أن محمدا يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية؛ لأن الله تعالى يقول "قُل لاّ يَعْلَمُ مَن فِي السّمَاواتِ والأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيّانَ يُبْعَثُونَ" النمل:٦٥) ، لكن هذه الحقائق البسيطة غطيت تماماً مع ضغط المرويات التي كانت تتدفق من كل حدب وصوب، حتى صار الحديث عن الدلالات القرآنية المغطاة في نظر الكثيرين ضرباً من الكفر.

ولعل البعض يستدل بقول الله تعالى "عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىَ غَيْبِهِ أَحَداً، إِلاّ مَنِ ارْتَضَىَ مِن رّسُولٍ فَإِنّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً الجن:٢٦-٢٧ لإثبات أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الأحداث المستقبلية وهي من الغيب، فهو ممن ارتضاه الله تعالى من رسله الكرام.

والحقيقة أن الآية تحتاج منا إلى فهم كلي (محكم) يتجاوز الاقتطاع الجزئي (المتشابه)، فالسياق العام للآيات قُلْ إِنْ أَدْرِيَ أَقَرِيبٌ مّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبّيَ أَمَداً، عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىَ غَيْبِهِ أَحَداً، إِلاّ مَنِ ارْتَضَىَ مِن رّسُولٍ فَإِنّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدا، لّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالاَتِ رَبّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىَ كُلّ شَيْءٍ عَدَداً" الجن:٢٥- ٢٨، والآن نتساءل :ما هو الغيب الذي يوحيه الله تعالى إلى أنبيائه؟، من خلال قراءة كلية للآيات القرآنية نخرج بأن الغيب الذي يوحيه الله تعالى إلى رسله عبارة عن:

- أنباء السابقين من رسل وصالحين وغيرهم "تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـَذَا فَاصْبِرْ إِنّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتّقِينَ" هود:٤٩.

- آيات يؤيد بها المرسلون "وَأُنَبّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنّ فِي ذَلِكَ لاَيَةً لّكُمْ إِن كُنتُم مّؤْمِنِينَ " آل عمران:٤٩.

- الغيبيات المتعلقة بالعالم الذي خفي علينا كالملائكة والجن "الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُوْلِيَ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىَ وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللهَ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" فاطر:١، "قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مّنَ الْجِنّ فَقَالُوَاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً" الجن:١.

- الغيبيات المتعلقة باليوم الآخر كالبعث والحساب والجنة والنار "الَمَ، ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لّلْمُتّقِينَ، الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصّلاةَ وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" البقرة:١-٣.

- أحداث مستقبلية "الَمَ، غُلِبَتِ الرّومُ، فِيَ أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ الروم:١-٤ وهذه لا يوجد غيرها في كتاب الله تعالى فيما يتعلق بالإخبار عن أحداث مستقبلية بعينها وبتفاصيلها الرقمية.

فكل هذه الغيبيات التي توحى إلى الرسل ثبتت في كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهي ثابتة ثبوتاً يقينياً لا شك فيه، وهي تؤكد القاعدة العامة: أن الغيب لا يعلمه أحد إلا الله، وهذه قاعدة يقينية أدلتها مبثوثة في كتاب الله تعالى، وما يشاء أن يُعلمَه الله تعالى من أمر الغيب أحداً من رسله فلابد لنا أن نثبته بأدلة يقينية في درجة دلالتها وثبوتها، وأن لا نعتمد على أمر الظن فيه، ويدلنا عليه قول الله تعالى من بعد في نفس السياق "إِلاّ مَنِ ارْتَضَىَ مِن رّسُولٍ فَإِنّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدا، لّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالاَتِ رَبّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىَ كُلّ شَيْءٍ عَدَداً" الجن:٢٧- ٢٨، "أي فإن الله يسلك أي يرسل للرسول رصداً من بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ومن خلفه رصداً، أي ملائكة يحفظون الرسول صلى الله عليه وسلم من إلقاء الشياطين إليه ما يخلط عليه ما أطلعه الله عليه من غيبه" وهذا الحفظ للغيب الذي يسلكه الله تعالى في قلب رسله الكرام بملائكة تمنع أي عبث للشياطين حتى يحفظ وحي الله تعالى نقياً صافياً "لّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالاَتِ رَبّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىَ كُلّ شَيْءٍ عَدَداً" الجن:٢٨، فإذا كان أمر الغيب الذي يوحيه الله تعالى يحفظ حفظاً شديداً من العبث والتلاعب؛ فإن هذا يدل على أن أمر الغيب أمر عظيم يجب أن يثبت بأرفع وأقوى الأدلة ثبوتاً ودلالة، فهل روايات آحادية فيها عشرات المطاعن في أسانيدها ومتونها وتفردت بها مجموعات حديثية دون باقي المسلمين ينطبق عليها هذا الوصف بعد أن تداولتها الألسن لعشرات ومئات السنين حتى تم تدوينها؟ تساؤل علينا أن نجيب عليه؛ بعدها سنفهم المسألة جيداً.

ثم لو جئنا نتساءل عن ماهية الغيب الذي تتحدث عنه الآية لوجدنا أنه الرسالات والشرائع التي توحى إلى الأنبياء "لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىَ كُلّ شَيْءٍ عَدَداً" الجن:٢٨، وهذه الرسالات تحوي في جوهرها الغيب الذي تحدثنا عنه، فلو أخذنا مثالاً على ذلك الرسالة الخاتمة وهي رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وتساءلنا ما هو الغيب الذي أوحي إليه صلى الله عليه وسلم وعلمنا يقيناً أنه غيب؛ سنجد أنه ما ذكره الله في كتابه العزيز من آيات يؤيد بها المرسلون وغيبيات متعلقة بالعالم الذي خفي علينا كالملائكة والجن وأنباء السابقين من رسل وصالحين وغيرهم وغيبيات متعلقة باليوم الآخر كالبعث والحساب والجنة والنار وأحداث مستقبلية، وهذه كلها ثابتة بأدلة قطعية في ثبوتها ودلالتها.

نخلص من كل هذه المناقشة:

- **أن أمر الغيب خطير جداً؛ ولأجل حفظه جعل الله تعالى رصداً على رسله يحفظونه من تلاعب شياطين الإنس والجن** "فَإِنّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدا، لّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالاَتِ رَبّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىَ كُلّ شَيْءٍ عَدَداً" الجن:٢٧- ٢٨.

- الجميع مقرون بأن النص الروائي الذي تم تدوينه متأخراً بعشرات السنين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم قد حصل فيه نوع من الاختراق، وهذا الاختراق قد نختلف في تحديد درجته وماهيته، لكن الجميع يقرون به؛ حتى أولئك الذين يقدسون الأسانيد ويرفضون نقد المتون، فلا نستطيع بحال من الأحوال أن نعتمد عليه في تمثيل الغيب الذي يوحيه الله تعالى إلى رسله) اهـ.

وذات الفكرة طرحها زكريا المحرمي في كتابه (الصراع الأبدي) ص٤٩-٥٢.

وأنا أتفق مع الرأي الذي يراه كل من زكريا المحرمي وخالد الوهيبي في هذه المسألة، وأرى في رؤيتيهما امتداداً أصيلاً للخط الإباضي في إثبات الغيب بالقطعيات من الأدلة.

أحاديث ينبغي أن تفهم[٣]

هناك من الأحاديث ما اشتبه أمرها على الناس فظنوا أنها من الإنباء بالغيب المستقبلي الذي يصدر عنه صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك ما أورده الشيخ الخليلي في كتابه (العقل):

٣ هذا العنوان من وضع المرتب.

١. ص٢١٦: (ما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي يحكي سؤال جبريل لرسول الله، وفيه أنه سأله عن الساعة وأماراتها فقال له: أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان) اهـ

٢. ص ٢١٧: (ما رواه مسلم في صحيحه قال: حدثنا محمد بن المثنى ومحمد بن بشار "واللفظ لابن المثنى" قالا: حدثنا محمد ابن جعفر. حدثنا شعبة عن سماك بن حرب، عن علقمة بن وائل، عن أبيه وائل الحضرمي؛ أن طارق ابن سويد الجعفي سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الخمر؟ فنهاه، أو كره أن يصنعها. فقال: إنما أصنعها للدواء. فقال: "إنه ليس بدواء. ولكنه داء") اهـ.

٣. ص٢٥٣: (ما رواه البيهقي في "شعب الإيمان" من طريق ابن عمر رضي الله عنهما في حديث طويل جاء فيه: "لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم").

الحديث الأول

حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي يحكي سؤال جبريل لرسول الله، وفيه أنه سأله عن الساعة وأماراتها فقال له :أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان.

هذا الحديث وما يماثله، قال عنه خالد الوهيبي في كتابه "أشراط الساعة" ص١٩٩-٢٠٢: (هناك طائفة من الأحاديث والروايات لا نرى فيها تنبؤات بأحداث مستقبلية بقدر ما نلحظ فيها ربطاً للناس بالساعة من خلال ملاحظة التغيرات الاجتماعية التي يمكن أن تحصل بفعل حركة الحياة.

لننظر في قول الله تعالى "يَأَيّهَا النّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مّنَ الْبَعْثِ فَإِنّا خَلَقْنَاكُمْ مّن تُرَابٍ ثُمّ مِن نّطْفَةٍ ثُمّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمّ مِن مّضْغَةٍ مّخَلّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلّقَةٍ لّنُبَيّنَ لَكُمْ وَنُقِرّ فِي الأرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىَ أَجَلٍ مّسَمّى ثُمّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمّ لِتَبْلُغُوَاْ أَشُدّكُمْ وَمِنكُمْ مّن يُتَوَفّى وَمِنكُمْ مّن يُرَدّ إِلَىَ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، ذَلِكَ بِأَنّ اللهّ هُوَ الْحَقّ وَأَنّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىَ وَأَنّهُ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنّ السّاعَةَ آتِيَةٌ لاّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنّ اللهّ يَبْعَثُ

مَن فِي الْقُبُور" الحج:٥-٧، هذه الآيات تلفت نظر الناس إن كانوا في ريب من البعث إلى أصل خلقهم من طور إلى طور، من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم إلى طفل ثم إلى بلوغ الرشد ثم إلى الهرم ثم إلى الموت، وتقرن الآية فيما يشبه التشبيه حال أطوار خلق الإنسان بحال الأرض الهامدة التي تحيى بالمطر، وهذا الأمر شاهد على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، وأن الساعة لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، أي أن (هذا الذي ذكرت لكم أيها الناس من بدئنا خلقكم في بطون أمهاتكم ووصفنا أحوالكم قبل الميلاد وبعده طفلاً وكهلاً وشيخاً هرماً، وتنبيهنا لكم على فعلنا بالأرض الهامدة بما ننزل عليها من الغيث) لتعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها.

نلاحظ من هذه الآيات الثلاث:

(١) الربط بين التغييرات الاجتماعية (الأطوار التي يمر بها الإنسان و إحياء الأرض بالمطر بعد جدبها وجفافها) وبين قيام الساعة وبعث الموتى من قبورهم.

(٢) وهذا الربط لأجل بعث روح التقوى في النفس لأن الساعة بداية لانهيار النظام الكوني وبعث الناس ومحاسبتهم على ما قدموه في دنياهم، فالحياة متقلبة لا تدوم على حال، فعلى الإنسان أن يكون دائم الصلة بالله تعالى حتى يصل إلى بر الأمان .

فعندما سأل سائل النبي صلى الله عليه وسلم متى الساعة؟ قال: (ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذا ولدت المرأة ربتها فذاك من أشراطها، وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أشراطها في خمس لا يعلمهن إلا الله "إِنَّ اللهَّ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ" لقمان:٣٤).

وفي رواية أخرى: (فأخبرني عن أمارتها، قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان).

فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول عن الساعة (ما المسئول عنها بأعلم من السائل)، وهذا الجواب منه صلى الله عليه وسلم هو تعبير عن مضمون الكتاب العزيز في رجع علم الساعة إليه تبارك وتعالى"يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ" الأعراف:١٨٧، لكنه أراد أن يوظف الدلالات القرآنية في ربط التحولات

والتغيرات الاجتماعية التي يمكن أن تحدث في أي مكان وزمان بأمر الساعة، حتى يركز في الأذهان أنه عند أي تحول وتبدل في الحياة فعلينا أن نتذكر أمر الساعة وأنها أقرب إلينا مما نتصور فنحسن العمل ولا نغتر بكل ما يحدث حولنا من تغيرات، ففي هذا الحديث يوظف النبي صلى الله عليه وسلم الدلالات القرآنية فيربط بين تطاول الرعاة الحفاة في البنيان وولادة الأمة ربتها وبين قيام الساعة، ونحن نعلم أن تطاول الرعاة في البنيان هو عبارة عن تحول اجتماعي حصل قبل عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فالقبائل الجرمانية التي أطاحت بالدول الرومانية الغربية (روما) كانت قبائل من الرعاة وتحولت من بعد إلى مجتمعات مدنية متحضرة، وبعد عهد النبي صلى الله عليه وسلم بعدة عقود من الزمن شيد العرب المسلمون- الذين خرجوا من جزيرة العرب وكان كثير منهم يمتهنون الرعي- المدن المتحضرة كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ثم بغداد وغرناطة وقرطبة وغيرها من الحواضر المدنية، وفي أيامنا هذه تحولت الجزيرة العربية ذات الطابع الرعوي البدوي في غالبيتها إلى مدن تضاهي لندن وباريس ونيويورك في بنيانها وعمارتها.

ففي كل هذه الأوضاع من التغيرات والتحولات الاجتماعية وما تجره على الناس من حركة دائبة قد تكون سلبية أو إيجابية توجب علينا إدراك أن الساعة آتية فلا نغتر أبداً ولا ننسى أمر الآخرة وما أعده الله سبحانه من ثواب للطائعين وعقاب للعاصين.

كذلك ما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة) فقيل: كيف إضاعتها؟ قال: (إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة).

فتوسيد الأمر إلى غير أهله عبارة عن فساد إداري معبر عن سلوك اجتماعي قد يسري في أي أمة من الأمم أو شعب من الشعوب، ومن ينظر في صعود وهبوط الحضارات والإمبراطوريات عبر التاريخ يجد أن من أهم أسباب انهيارها وسقوطها هو توسيد الأمر إلى غير أهله، فهو أمر كان قبل عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعده، فالربط بينه وبين قرب الساعة هو توظيف للدلالات القرآنية في أن التحولات والتغيرات الاجتماعية يجب أن لا تجعل الإنسان يغفل عن أمر الساعة وأنها قريبة منه فعليه أن يستعد للرحيل إلى الآخرة بتحسين العمل.

وسبب توجيهنا لهذه الروايات هذه الوجهة جاء بناء على:

١. أننا لم نلحظ فيها ما يدل على كونها تنبؤات بأحداث مستقبلية في عالم الغيب، بقدر ما لاحظنا فيها ربطاً بين تحولات اجتماعية وبين أمر الساعة.

٢. استحضارنا للرؤية القرآنية التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يوظفها في ترسيخ المفاهيم الإيمانية) اهـ.

الحديث الثاني:

(أن طارق بن سويد الجعفي سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الخمر؟ فنهاه، أو كره أن يصنعها. فقال: إنما أصنعها للدواء. فقال: "إنه ليس بدواء .ولكنه داء") وفي رواية أخرى: (إن الله لم يجعل شفاءكم في حرام).

قال الشيخ الخليلي في ص ٢١٩ من كتاب (العقل): **(فترى النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الأحاديث الشريفة يصدع بحقيقة لم تكن متقبلة في عقول الناس لما ألفوه من التداوي بالخمر، واعتقاد أن فيها منفعة صحية، إذ كان هذا مما شاع عند الأطباء في عهد النبوة وقبلها)** اهـ.

يرى الشيخ الخليلي هنا أن قول النبي صلى الله عليه وسلم عن التداوي بالخمر: (إنه ليس بدواء. ولكنه داء) عبارة عن إنباء بأحداث مستقبلية.

لكن علينا قبل ذلك أن نوضح جملة أمور:

أن الله تعالى لما حرم الخمر في قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ) المائدة: ٩٠-٩١، وصفها بأنها رجس من عمل الشيطان، والرجس في اللغة: (الرِّجْسُ: القَذَرُ، وقيل: الشيء القَذِرُ. ورَجُسَ الشيءُ يَرْجُسُ رَجاسَةً، وإنه لَرِجْسٌ مَرْجُوس، وكلُّ قَذَر رِجْسٌ. ورجل مَرْجوسٌ ورِجْسٌ: نِجْسٌ، ورَجِسٌ: نَجِسٌ. قال ابن دريد: وأَحسبهم قد قالوا: رَجَسٌ نَجَسٌ، وهي الرَّجاسَةُ والنَّجاسَة) انظر لسان العرب، لابن منظور، مادة "رجس".

فالخمر رجس أي قذر (مادي ومعنوي)، والقذارة لا شك أنها مجلبة للمرض والأدواء المادية والمعنوية، وقد ذكر القرآن الكريم بعضاً من هذه الأمراض المعنوية والمادية (إِنما يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ)، فالخمر داء على الفرد وعلى من حوله.

فالنبي صلى الله عليه وسلم فَعّل الدلالات القرآنية واستخرج الحكمة منها وقال ما قاله، وهذه هي الحكمة النبوية التي قال الله تعالى عنها (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ) البقرة:١٥١، وعليه فالحكمة النبوية هي تفعيل لدلالات الكتاب العزيز في واقع الحياة، يقول محمد بن جعفر، الجامع، ج١ ص٤٨: (وقال الله تعالى: "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً" والحكمة ها هنا القرآن، وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن العلم فقال: العلم كله القرآن، وهو الأصل والتنزيل، وما بعده تفسير له وتأويل)، وقال العوتبي في الضياء ج١ ص ٥٥: (قال ابن عباس: الحكمة القرآن والفقه والعلم)، وجاء في منهج الطالبين" للشقصي، ج١ ص٣٥٣: (وقال النبي صلي الله عليه وسلم: أوتيت جوامع الكلم، واختصرت لي الحكمة اختصاراً، يعني القرآن).

فليس في الحديث إنباء بأمور مستقبلية أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم، إنما فَعّل النبي صلى الله عليه وسلم ما دل عليه الكتاب بما آتاه الله من فيض حكمته وأرشد الناس إلى مضار الخمر وأدوائها . أما وأن الطب قد كشف ذلك حديثاً، فهذا الكشف يدل على عظمة تعاليم الإسلام وعلو كعب الحكمة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة السلام.

الحديث الثالث

ما رواه البيهقي في "شعب الإيمان" من طريق ابن عمر رضي الله عنهما في حديث طويل جاء فيه: "لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم").

قال الشيخ الخليلي في ص ٢٥٣: (**فأنت ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم يخبر في هذا الحديث الشريف بظاهرة غيبية لم تكن بارزة في عهده، وإنما جاء الزمن بأحداثه ومصائبه ليكشف عنها...**)اهـ.

والسؤال قبل الانتقال إلى هذه النتيجة والقول بأن هذا تنبؤ بظاهرة غيبية هو: هل ظهور الفاحشة والإعلان بها في قوم من الأقوام مؤد إلى فشو الأمراض والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم؛ هي تجربة إنسانية مرت بها البشرية في أطوار معينة من أطوارها؟ بمعنى هل هناك تجارب تراكمية للإنسانية

كانت فيها الممارسات الجنسية الشائنة سبباً في ظهور أمراض لم تكن معهودة من قبل، وعلى أساسها قال النبي صلى الله عليه وسلم ما قال، تعويلاً على أمرين اثنين هما:

- ما جاء في الكتاب العزيز (وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ) الأنبياء:٧٤ (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) العنكبوت:٢٨-٢٩، فهذه القرية كانت تعمل الخبائث والفواحش التي ما سبقهم بها من أحد من العالمين، وأنزل الله بها العذاب الأليم، ولا شك أن الأمراض من جملة العذاب الأليم.

- وجود تجارب إنسانية بشرية سابقة في حصول مثل هذا الأمر، لذا فالموضوع يحتاج لدراسة التجارب الإنسانية في ذلك قبل عهد النبوة لمعرفة هل هذا الأمر نتاج خبرة إنسانية أم لا قبل الجزم بأنها حقيقة غيبية، وكون أن ما قاله عليه السلام نتاج خبرة إنسانية هو ما يقتضيه النظر، لكن في الوقت ذاته ندعو إلى دراسة القضية دراسة تاريخية لمعرفة التجارب الإنسانية قبل عهد النبوة، وقد روى الربيع (٥٢٥) من طريق السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أخبرتني جدامة بنت وهب الأسدية أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لقد هممت أن أنهى عن الغيلة، حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك، ولا يضر بأولادهم شيئاً).

قال الربيع: (الغيلة حمل المرأة وهي ترضع). والحديث رواه أيضاً مسلم (١٤٤٢).

فالرسول عليه السلام همَّ أول الأمر أن ينهى عن الغيلة وهي حمل المرأة وهي ترضع وهي مسألة طبية، وذلك لاعتبارات تتعلق بالمحافظة على صحة المرأة وعدم تعرضها للضرر وكذلك صحة الأبناء، اعتماداً على التجربة الإنسانية المتوفرة لديهم في ذلك الوقت، ثم بدا له عليه الصلاة والسلام أن لا يفعل ذلك تعويلاً على خبرة إنسانية أخرى وهي أن الروم وفارس يصنعون ذلك، ولا يضر بأولادهم شيئاً، فعدل صلى الله عليه وسلم عن اجتهاده الأول وعول على نظر آخر أفضل منه وأولى.

فالرسول صلى الله عليه وسلم ينبهنا هنا إلى أن أخذ النافع والمفيد عن الأمم الأخرى من النظم والأفعال والتجارب هو الأولى بالاتباع، ولا يستبعد مبدئياً هنا أن تكون هناك تجارب إنسانية سابقة في أن الأفعال الجنسية الشائنة أدت فيها إلى ظهور أوبئة وأمراض لم تعهد في السابق.

الفصل الثالث

حجة العقل من تأويل كتاب الله

حجة العقل من تأويل كتاب الله

هذا العنوان قد يتصور البعض صدوره من بعض المعاصرين الذين قد ((يتهمون)) بالعقلانية، لكن يندهش الكثيرون عندما يعلمون أنه للعالم الإباضي الكبير أبي سعيد محمد بن سعيد الكدمي (عاش في القرن الرابع الهجري) في كتابه (المعتبر)، حيث قال: (والسنة كلها تأويل لكتاب الله تبارك وتعالى، وكذلك الإجماع من تأويل كتاب الله، فكما كان تأويل التنزيل تأويلاً له؛ كذلك السنة والإجماع من تأويل كتاب الله، **وكذلك حجة العقل من تأويل كتاب الله تبارك وتعالى**، والرأي من أهل الرأي من المسلمين يخرج حجة من العقول، فثبت أن الحق كله والعلم كله هو من القرآن) المعتبر، ج١ ص١٤.

هذا النص اتخذته مدخلاً لمناقشة قضية (العقل) ودوره في فهم الشريعة، وعلاقته بالشريعة، لما أثير من لغط كبير حول الموضوع، بل صار تهمة كبيرة لمن يتهم بأنه ((عاقل))، بل وصل الأمر إلى نسبة العقلانية إلى اليهود. وسنناقش كل هذه القضايا بالتفصيل إن شاء الله تعالى.

ما هو العقل؟

يقول الشيخ يوسف بن إبراهيم السرحني: ((معنى العقل لغة: الحجز والنهي ضد الحمق، والجمع عقول، وسمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، أي يحبسه، والعاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، أُخذ من قولهم قد اعتُقل لسانه إذا حبس ومنع من الكلام، وقيل هو الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه، وجمع العاقل عقلاء.

واصطلاحاً :العقل هو التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان)) اهـ انظر: العلاقة التلازمية بين العقل والوحي، مقال منشور بمجلة (جند عمان)، العدد (٣٨٠)، ٢٩ رجب ١٤٢٩هـ، ١ أغسطس ٢٠٠٨م.

وقد أحسن الشيخ الدكتور يوسف السرحني بإيراد هذا التعريف للعقل، فبالعقل يتميز الإنسان عن الحيوان، فمن لم يتعقل لم يكن إنساناً مكلفاً، والعقل من أعظم النعم التي أنعم الله تعالى على الإنسان، وعند تعطيل العقل فإن الإنسان قد عطل نعمة عظيمة ونزل بنفسه إلى رتبة أدنى من الرتبة المكرمة، يقول أبو الحسن البسيوي: (وأمَّا أفضلها: فهو العقل الذي حسَّن الله به الحَسَن، وقبَّح به القبيح، وبه وجب الحمد والذمّ، وبه لزم التكليف؛ لأَنَّ الله تعالى إنَّما خاطب العقلاء بما يعقلون، ومن لم يكن له عقل سقط عنه التكليف، بالإجماع من الأمَّة على ذلك، قال الله تعالى: "فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ"

الحشر:٢، وقال: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ" ق:٣٧، يعني: لِمن كان له عقل .فالعقل أفضل نعمةٍ، ومن حُرم العقل فقد حرم النعمة) البسيوي، جامع أبي الحسن البسيوي، ج١ ص١٦-١٧.

فالعقل عبارة عن مَلَكة تكتشف العلاقات بين الأشياء وتربط بين الأسباب ومسبباتها لتكشف سنن الله وآياته التشريعية والتكوينية، التي أوجدها الخالق وأنشأها في هذا الكون، تحكم حركته وتنظم سيره .

١. في الآيات التشريعية:

- قال تعالى: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم، وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين، **كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون**) البقرة:٢٤٠-٢٤٢.

- قال تعالى: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق **ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون**) الأنعام:١٥١.

- قال تعالى: (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبآئكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون**) النور:٦١.

٢. في الآيات الكونية:

- قال تعالى: (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السمآء من مآء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دآبة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السمآء والأرض **لآيات لقوم يعقلون**) البقرة:١٦١ .

- قال تعالى: (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بمآء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل إن في ذلك **لآيات لقوم يعقلون**) الرعد: ٤ .

- قال تعالى: (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك **لآيات لقوم يعقلون**) النحل:١٢ .

- قال تعالى: (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك **لآية لقوم يعقلون**) النحل:٦٧.

- قال تعالى: (ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك **لآيات لقوم يعقلون**) الروم:٢٤.

فكانت الآيات التشريعية والكونية تذيل بـ (لآيات لقوم يعقلون) (لعلكم تعقلون)، وهي دعوة صريحة للنظر والتعقل في التعامل مع آيات الله تعالى الكونية والتشريعية على السواء.

لم يذم الله عز وجل العقل في كتابه أبداً

يقول الشيخ الخليلي في كتابه (العقل) ص٧-٨: (فكم حكى الله سبحانه عن أقوام جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق منطلقين في مجادلاتهم من عقولهم السقيمة وتفكيرهم الضيق وألبابهم الحيرى، منهم من جادل في وحدانية الله تعالى قائلاً "أجعل الآلهة كلها إلهاً واحداً إنّ هذا لشيء عجاب" ، ومنهم من جادل في البعث لنبو عقولهم المأفونة عن تصور إمكانه، وقد حكى الله هذه المجادلة بقوله: "أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ، وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ" يس: ٧٧- ٧٨...) اهـ .

وأورد الشيخ بعدها عدداً من المجادلات التي حكاها القرآن عن الكفار والمعاندين، ثم قال بعدها في ص١٢: (وما كانت هذه الأوهام إلا نتيجة اغترارهم بعقولهم المريضة التي صدتهم عن الإمعان والتفكر في آيات الله الكونية وآياته البينات في وحيه المنزل).

وعند هذه النقطة بالتحديد يقع الكثيرون في الخلط بين العقل وغيره من المفاهيم: كالهوى ورغبات النفس والتأثير الاجتماعي، فالقرآن الكريم لم يذم العقل ولو لمرة واحدة، بل مدحه وأثنى عليه وجعله مناطاً للتكليف (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) الروم:٢٨.

إنما الذم كان لمجادلات أولئك الكفار والمعاندين والتي كانت أبعد ما تكون عن العقل، لذلك وصفهم الله تعالى بأنهم "لا يعقلون" (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا

أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ، وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) البقرة: ١٧٠-١٧١.

(مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) المائدة:١٠٣.

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) العنكبوت:٦٣

ولذلك فمن غرائب وعجائب الاستدلالات أن يجعل من مجادلات الذين كفروا، الذين قال الله عنهم بأنهم "لا يعقلون" دليلاً على ذم العقل ودوره في تثبيت ركائز الإيمان.

في حين أنه لم توجد آية واحدة فيها ذم العقل، أو ذم العقلاء، أو ذم أولي الألباب.....

١. بل هناك ذم لاتباع الهوى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) النساء: ١٣٥

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) ص:٢٦

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) النازعات:٤٠-٤١

٢. وذم لتقليد الأسلاف دون تبين لحقائق الأمور:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ، وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) البقرة:١٧٠-١٧١

والغريب أن بعض الفقهاء كثيراً ما يخلطون بين العقل والهوى، فيجعلون من ذم الهوى ذماً للعقل مع وضوح الفرق بين الأمرين في كتاب الله، **والقرآن بعد أن ساق شبه الكفار والمعاندين في التنكر لحقائق الإيمان وصفهم بأنهم (لا يعقلون) ولم يقل عنهم ((عقلانيين))** ، في حين أن الفقيه اليوم يجعل من تلك الأقوال التي قالها الكفرة والمعاندين دليلاً على ذم العقل في الجملة.

ولكن يبدو أن خصومة هؤلاء مع العقل لا تنبع من كتاب الله، بل تنبع من تراكمات ومناهج غيبت العقل من الحضور بفاعليته في حركة المسلم في الحياة.

اليهود صناع العقلانية!!

أغرب ما كان يمكن أن يتصور صدوره من فقيه كالشيخ الخليلي أن يقول إن اليهود هم صناع العقلانية!، معتمداً في ذلك على نقول من كتاب (نقض أصول العقلانيين)، لسليمان الخراشي، الكتاب منشور عبر الانترنت، ولدي نسخة الكترونية منه، وطبعاً لا أستغرب صدور مثل هذا الكلام من فقيه كالخراشي ينتمي لمدرسة الحشو التي عرفت بتتبع الروايات والعقائد الإسرائيلية اليهودية واستنساخها ضمن منظومتها الفكرية، ثم رمي الآخرين بتهمة متابعة اليهود، لكن أن يعتمد الشيخ الخليلي على كلام فقيه حشوي في ذلك فأمر يستحق النظر.!

قال سليمان الخراشي في كتابه "نقض أصول العقلانيين"، نسخة الكترونية: (يقول الأستاذ عبد السلام بسيوني في بحثه حول العقلانية : "وإنني بالبحث لم يخامرني دهشٌ ولا عجب حين قرأت أن بذور الدعوة العقلانية بذور يهودية، يبرر سارتر الوجودي اليهودي نشرها في العالمين "بأن البشر ما داموا يؤمنون بالدين فسيظل يقع على اليهود تمييز مجحف، على اعتبار أنهم يهود، أما إذا زال الدين من الأرض وتعامل الناس بعقولهم، فعقل اليهودي كعقل غير اليهودي. ولن يقع عليهم التمييز المجحف العقلانية: هداية أم غواية ص ١٠. وقد سبق في كلام الأستاذ محمد قطب) اهـ .

وقال الشيخ الخليلي في كتابه (العقل) ص٣٢: (ومن هنا أثبت الأستاذ عبدالسلام البسيوني المفكر والأديب الإسلامي أنه بالبحث لم يخامره دهش ولا عجب عندما قرأ أن بذور العقلانية بذور يهودية، ومعنى ذلك أن حملة هذه الدعوة إنما يدورون في فلك المخطط اليهودي الرهيب، الذي يسعى إلى نسف القيم الإنسانية، وصبغ العالم كله بصبغة الإباحية ليتجرد من كل ما يصون إنسانيته، ويحفظ له الشرف والكرامة)اهـ.

الشيخ الخليلي والخراشي كلاهما اعتمدا على كلام البسيوني، الذي لم يقدم دليلاً واحداً على ما يقول، سوى كلام لسارتر لم يوثقه أيضاً من أي من مؤلفات سارتر، وسارتر لم يقدم نفسه على أنه يهودي أو ممثل لليهود، بل قدم نفسه على أنه فيلسوف وجودي، فأين كلام اليهود وممارساتهم ((العقلانية)) طوال قرون؟ !والنزعة التي تسمى ((عقلاً)) ليست مرتبطة بسارتر حتى يقال إنه من ابتدعها، ففقهاء

الإباضية والمعتزلة والزيدية وبعض مدارس أهل السنة وغيرهم كثير من الفقهاء المتأخرين منذ ظهور جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده كان لهم نظر عقلي في الاجتهاد والاستنباط الفقهي، تتسع دائرته وتضيق لشتى العوامل .

أما عن كلام الخراشي والشيخ الخليلي بأن (نزعة العقل هي من صنع اليهود ومخططاتهم) فلا دليل عليه، بل الأدلة من القرآن والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة وسيرة اليهود وتاريخهم يشهد بأن اليهود هم من أكثر الشعوب خرافية وأبعدها عن العقل والتعقل، فكيف يتأتى للخرافيين أن ينشروا بذرة العقل والتعقل؟!

- الأدلة من القرآن:

١. (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) الأعراف:١٣٨، فبنو إسرائيل عندما جاوزوا البحر وأتوا على أقوام وثنيين يعكفون على أصنام لهم صورت لهم أهواؤهم الخرافية والبيئة الوثنية التي ألفوها أن يطالبوا موسى عليه السلام بأن تكون لهم آلهم كما للوثنيين آلهة!، ولذلك وصفهم موسى عليه السلام ((بالجهل))، فهل من كانت هذه حاله يصلح أن يقال عنه بأن لديه نزعة تعقل وهو يهرع إلى تقليد أشد أنواع الخرافة وهي الوثنية.

٢. (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ) الأعراف: ١٤٨، موقف آخر لليهود تظهر فيه نزعتهم للخرافة الوثنية، والاحتفاء بها، فرد الله تعالى عليهم بقوله (أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ) فلا ذلك الإله المزعوم يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً، أي بعبارة أخرى هؤلاء قوم ((لا يعقلون)).

٣. (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِّ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِّ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُّ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) التوبة:٣٠، فمع كثرة الأنبياء الذين بعثوا في أوساط اليهود، إلا أنهم كانوا يستنسخون الأفكار والعقائد من الأقوام الوثنيين الذي كانوا حولهم، فهنا حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا إن عزير ابن الله، وهذه الفكرة ما هي إلا نتاج استنساخ

لفكرة توالد الآلهة التي كانت عند الوثنيين، وهذه تمثل الخرافة في أوضح صورها، فهل من كان تفكيره هكذا ينسب للعقل؟.!

٤. (لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ، لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ، لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ) الحشر:١٢-١٤.

سورة الحشر خصصت للحديث عن الإرهاصات التي سبقت جلاء احدى قبائل اليهود عن المدينة المنورة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وصورت السورة أجواء المعركة بين المسلمين والقبيلة اليهودية (لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ) فهم قوم لا يفقهون، أي لا يفهمون، ثم قال الله تعالى: (لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ)، وهم أيضاً قوم لا يعقلون. فمن يصفه الله تعالى بأنه لا يفقه ولا يعقل، فهل نستطيع أن نقول إنه من بذر بذور العقلانية .!!

- الأدلة من الأحاديث النبوية:

١. روى جابر بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد). (كتاب الترتيب، الأخبار المقاطيع عن جابر بن زيد "٢١")

والحديث رواه البخاري ومسلم بلفظ: (قاتل الله اليهود، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد). ففي هذا الحديث يحذر النبي صلى الله عليه وسلم من أقوام -وفي بعض الروايات أنهم اليهود- خرافيين، جعلوا من قبور أنبيائهم مساجد، تعلقوا بها وكانت جسراً إلى الشرك به سبحانه (أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً) الأعراف:١٤٨ فمثل هذه الممارسات الخرافية الوثنية تنطق بأن من يمارسها هو من الذين لا يعقلون.

٢. روى الترمذي (٢٢٧١) عن أبي واقدٍ اللَّيثيِّ: (أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم لَمَّا خرجَ إلى حُنينٍ مرَّ بِشجرةٍ للمُشركينَ يقالُ لها ذاتُ أنواطٍ يُعلِّقونَ عليها أسلحتهُم.

قالوا: يا رسولَ اللهِ اجعلْ لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهمْ ذاتَ أنواطٍ.

فقَالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلِيهِ وسَلَّم: سُبحانَ الله، هذا كما قال قومُ موسى اجعلْ لنَا إلهاً كما لهمْ آلهةً ، والَّذي نَفْسي بيدهِ لتركَبُنَّ سُنَّةَ من كانَ قبلكُمْ).

فالسلوك الخرافي غير العقلي الذي سلكه بعض جهلة الناس-والظاهر أنهم ممن أسلموا حديثاً من طلقاء قريش-، شبهه النبي صلى الله عليه وسلم بالسلوك الخرافي غير العقلي الذي صدر عن بني إسرائيل عندما قالوا لموسى عليه السلام عندما مروا على أقوام يعكفون على أصنام لهم (اجعلْ لنَا إلهاً كما لهمْ آلهةً).

-الأدلة من كلام الصحابة:

١. كتاب الترتيب، آثار الربيع في الحجة على مخالفيه "١٣٢" : (قال الربيع: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم قال: حدثنا ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن عبدالله بن عمر أنه سئل عن الصخرة التي كانت في بيت المقدس فقال له: إن ناساً يقولون - فذكر قولهم- سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، فارتعد ابن عمر فرقاً وشفقاً حين وصفوه بالحدود والانتقال، فقال ابن عمر: إن الله أعظم وأجلّ أن يوصف بصفات المخلوقين، هذا كلام اليهود أعداء الله تعالى، إنما يقول: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) أي؛ استوى أمره وقدرته فوق بريته) اهـ .

ينسب الصحابي ابن عمر تشبيه الله تعالى إلى اليهود، والتشبيه ما هو إلا تفكير وثني خرافي لا شأن له بالعقل والعقلاء.

٢. كتاب الترتيب، آثار الربيع في الحجة على مخالفيه "١٣٩" : (مر ابن مسعود بشيخ يحدث عن التوراة، فلما رأى ابن مسعود سكت، فقال: وبم يحدثكم صاحبكم؟ فقالوا: ذكر أن الله لما خلق السموات والأرض صعد إلى السماء من بيت المقدس، ووضع رجله على صخرة بيت المقدس، فاسترجع ابن مسعود رضي الله عنه، ثم قال: اللهم لا كفر بعد إيمان. يقولها مراراً، ثم قال: (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً)، ما أظنه إلا إبليس تمثل في صورته. ثم قال: فهلا أنكرتم عليه وقلتم كما قال العبد الصالح إبراهيم عليه السلام: (لا أُحِبُّ الآفِلِينَ)؛ يقول: الزائل المتنقل. فاتهموا اليهود على دينكم) اهـ.

كلام صريح من الصحابي عبدالله بن مسعود في أن خرافة التشبيه والتجسيم لله تعالى هي صنيعة يهودية.

إذن يتبين لنا أن خرافية التفكير اليهودي كانت صورتها واضحة لدى عدد من كبار الصحابة، ولم يكن اليهود لديهم ممن يبذرون بذرة التعقل .

-الأدلة من تاريخ اليهود وسيرتهم:

لا داعي للإثقال على كاهل القارئ بنصوص مطولة من العهد القديم فيها الكم الهائل من الخرافات المأثورة عن اليهود عبر تاريخهم الطويل، فهي معلومة معروفة للباحثين في مجال الديانات المقارنة، ومن لم يقنع بذلك سأورد له عشرات الأمثلة على سبيل المثال لا الحصر.

يمكن البحث في نصوص الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) عبر موقع :

http://www.enjeel.com/

من كل الأمثلة السابقة يتبين أن مقولة أن اليهود هم من بذر فكرة العقلانية؛ هي مقولة مجانبة للصواب، ومن قرأ كتاب الله يدرك أن هذه الفكرة مجرد وهم وسراب، شبيهة بقول من قال: (إن الأحاديث التي وردت في مدح العقل ضعيفة أو موضوعة!!).

الصراع الوهمي بين العقل والشريعة

وهذا هو لب المشكلة وأساس الحيرة التي تنتاب الفقهاء والمفكرين والباحثين، وتبعهم الناس على ذلك، والقضية المحورية لكتاب (العقل) للشيخ الخليلي من أوله لآخره تقوم على أساس تصور صراع وانفصام بين العقل والشريعة، فالعقل يعمل في جانب والشريعة تعمل في جانب آخر، وإن جاءت عبارت في الكتاب تدعو إلى الجمع بين النص الصحيح والعقل الصريح، لكن المشكلة سرعان ما ستظهر بسبب أن آليات انتقاء النص الصحيح لا تعمل بكفاءة جيدة، والعقل الصريح هو الآخر يعاني من مشاكل جمة .

وقد قال الإمام الكدمي يوماً ((والسنة كلها تأويل لكتاب الله تبارك وتعالى، وكذلك الإجماع من تأويل كتاب الله، فكما كان تأويل التنزيل تأويلاً له؛ كذلك السنة والإجماع من تأويل كتاب الله، **وكذلك حجة العقل من تأويل كتاب الله تبارك وتعالى، والرأي من أهل الرأي من المسلمين يخرج حجة من العقول**، فثبت أن الحق كله والعلم كله هو من القرآن (المعتبر، ج١ ص١٤، فهو يرفض هذا

الجدل والصراع الوهمي المفترض بين العقل والشريعة، لأنه أدرك أن العقل من خلق الله، فحجته قائمة بكتاب الله، فليس هناك سوى نص معقول وعقل منصوص.

ويرجع خالد الوهيبي أسباب هذا الصراع الوهمي في أذهان البعض إلى ثلاثة أسباب: (انظر: مقال بعنوان: إعمال العقل...المنهج والتطبيق، نشر عام ٢٠٠٤م، بملحق أصدرته وزارة الأوقاف في شهر رمضان، جاء مع جريدة الوطن):

١. عدم تحديد منطقة النص بشكل دقيق.

٢. اختلاط مفهوم العقل بمفاهيم تحكيم الهوى والذوق.

٣. عدم التفرقة بين دور العقل في النظر في الوجود المغيب والوجود الطبيعي.

السبب الأول: عدم تحديد منطقة النص بشكل دقيق:

إذا تتبعت البدايات الأولى لنشأة الخلافات حول النظر في الأدلة والإشكالات التي بدأت تتقافز في الأذهان حول النظر العقلي من عدمه؛ لوجدت أن عدم تحديد نصوص الشريعة بشكل دقيق هو أكبر الأسباب وأعظمها في توليد هذا الإشكال الذي ظل قائماً إلى يومنا هذا.

فمثلاً هناك نصوص تم توليدها وكانت غير موجودة، ثم تحولت وصارت عقائد يهتم بها الناس أكثر أحياناً من اهتمامهم بوحدانية الله تعالى.

المثال الأول: أحاديث رؤية الله تعالى ظهرت هكذا دون سابق إنذار، وكذبها عدد من الصحابة والتابعين كالسيدة عائشة والخليفة الرابع علي بن أبي طالب ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن البصري وغيرهم.(انظر: فتح الباريء لابن حجر، وآثار الربيع في الحجة على مخالفيه).

والعجيب أن الروايات عن هؤلاء الصحابة والتابعين في إنكار أحاديث الرؤية رويت عند أهل السنة والإباضية والشيعة الإمامية والزيدية بأسانيد لا غبار عليها!، ومع ذلك تحولت فكرة رؤية الله تعالى إلى عقيدة وشعار مذهبي لقطاع عريض وواسع من المسلمين.

ومع تقدم الزمن صار المنافحون عن فكرة التنزيه لله تعالى يردون على الأحاديث المثبتة للرؤية بحجج عقلية تدعيماً لنصوص التنزيه، ومخالفوهم يرون في ذلك رداً لنصوص الشريعة بعقولهم القاصرة وأهوائهم، وحتى عندما يعترض المدافعون عن التنزيه بأن هذه الأحاديث تخالف نصوص التنزيه في

القرآن يجاب عليهم بأن فكرة مخالفة القرآن غير واردة لاستقلال السنة بالتشريع والإخبار ولثبوت هذه الأحاديث بأصح الأسانيد لديهم .

فمثلاً عندما يؤلف الشيخ الخليلي كتابه الرائع (الحق الدامغ) ويقول عن أحاديث الرؤية: (وأنت أيها القارئ الكريم تدرك ببصيرتك أن الأخذ بظواهر هذه النصوص يفضي إلى ما يرده العقل ويكذبه البرهان (الحق الدامغ، ص٥٦ فإن إخواننا السلفيين يرفضون هذا المنطق ويتهمون الشيخ الخليلي بإنكار السنة بعقله القاصر المحدود .

انظر موقع من هم الإباضية http://www.alabadyah.com

فالمشكلة من الأساس ليست في تعارض وهمي بين العقل والشريعة، إنما في الإرهاصات التاريخية التي أدت بدخول نص إلى الشريعة، وفيه ما فيه من الدخن، أي أننا أمام توهم أن نصوصاً معينة هي من الشريعة، لم تحاول ابتداء دراسة الإرهاصات التاريخية التي أدلت لتوليد مثل هذه النصوص.

المثال الثاني: هو حديث: عن عبدالله بن مسعود قال: بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى، إذا انفلق القمر فلقتين. فكانت فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه. فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم "اشهدوا". رواه مسلم (٢٨٠٠).

وملخص هذه الرواية أن القمر قد انشق على عهد النبي صلى الله عليه وسلم (فكانت فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه)، ويربطون هذه الرواية بقوله تعالى) :اقربت الساعة وانشق القمر)، هذه الرواية صارت مسرحاً لجدل كبير حوته كتب شروح الأحاديث بين الفلاسفة والمعتزلة من جانب والفقهاء المدافعين عن الروايات التي تروى بالأسانيد الصحيحة لديهم، ينقل ابن حجر في كتابه الموسوعي "فتح الباريء" : (انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء، وذلك أنه ظهر في ملكوت السماء خارجا من جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع، فليس مما يطمع في الوصول إليه بحيلة، فلذلك صار البرهان به أظهر. وقد أنكر ذلك بعضهم فقال: لو وقع ذلك لم يجز أن يخفى أمره على عوام الناس لأنه أمر صدر عن حس ومشاهدة فالناس فيه شركاء والدواعي متوفرة على رؤية كل غريب ونقل ما لم يعهد، فلو كان لذلك أصل لخلد في كتب أهل التسيير والتنجيم، إذ لا يجوز إطباقهم على تركه وإغفاله مع جلاله شأنه ووضوح أمره .

والجواب عن ذلك أن هذه القصة خرجت عن بقية الأمور التي ذكروها لأنه شيء طلبه خاص من الناس فوقع ليلا لأن القمر لا سلطان له بالنهار ومن شأن الليل أن يكون أكثر الناس فيه نياما ومستكنين بالأبنية، والبارز بالصحراء منهم إذا كان يقظان يحتمل أنه كان في ذلك الوقت مشغولا بما يلهيه من سمر وغيره، ومن المستبعد أن يقصدوا إلى مراصد مركز القمر ناظرين إليه لا يغفلون عنه، فقد يجوز أنه وقع ولم يشعر به أكثر الناس، وإنما رآه من تصدى لرؤيته ممن اقترح وقوعه، ولعل ذلك إنما كان في قدر اللحظة التي هي مدرك البصر .

ثم أبدى حكمة بالغة في كون المعجزات المحمدية لم يبلغ شيء منها مبلغ التواتر الذي لا نزاع فيه إلا القرآن بما حاصله: إن معجزة كل نبي كانت إذا وقعت عامة أعقبت هلاك من كذب به من قومه للاشتراك في إدراكها بالحس، والنبي صلى الله عليه وسلم بعث رحمة فكانت معجزته التي تحدى بها عقلية، فاختص بها القوم الذين بعث منهم لما أوتوه من فضل العقول وزيادة الأفهام، ولو كان إدراكها عاما لعوجل من كذب به كما عوجل من قبلهم .

وذكر أبو نعيم في "الدلائل" نحو ما ذكره الخطابي وزاد: ولا سيما إذا وقعت الآية في بلدة كان عامة أهلها يومئذ الكفار الذين يعتقدون أنها سحر ويجتهدون في إطفاء نور الله .

قلت: وهو جيد بالنسبة إلى من سأل عن الحكمة في قلة من نقل ذلك من "الصحابة" وأما من سأل عن السبب في كون أهل التنجيم لم يذكروه فجوابه أنه لم ينقل عن أحد منهم أنه نفاه، وهذا كاف، فإن الحجة فيمن أثبت لا فيمن يوجد عنه صريح النفي، حتى إن من وجد عنه صريح النفي يقدم عليه من وجد منه صريح الإثبات .

وقال ابن عبد البر: قد روى هذا الحديث جماعة كثيرة من الصحابة، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين.ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا، ويؤيد ذلك بالآية الكريمة، فلم يبق لاستبعاد من استبعد وقوعه عذر .

ثم أجاب بنحو جواب الخطابي وقال :وقد يطلع على قوم قبل طلوعه على آخرين، وأيضا فإن زمن الانشقاق لم يطل ولم تتوفر الدواعي على الاعتناء بالنظر إليه، ومع ذلك فقد بعث أهل مكة إلى آفاق مكة يسألون عن ذلك فجاءت السفار وأخبروا بأنهم عاينوا ذلك، وذلك لأن المسافرين في الليل غالبا يكونون سائرين في ضوء القمر ولا يخفى عليهم ذلك .

وقال القرطبي: الموانع من مشاهدة ذلك إذا لم يحصل القصد إليه غير منحصرة، ويحتمل أن يكون الله صرف جميع أهل الأرض غير أهل مكة وما حولها عن الالتفات إلى القمر في تلك الساعة ليختص بمشاهدته أهل مكة كما اختصوا بمشاهدة أكثر الآيات ونقلوها إلى غيرهم. اهـ.

وفي كلامه نظر، لأن أحدا لم ينقل أن أحداً من أهل الآفاق غير أهل مكة ذكروا أنهم رصدوا القمر في تلك الليلة المعينة فلم يشاهدوا انشقاقه، فلو نقل ذلك لكان الجواب الذي أبداه القرطبي جيدا، ولكن لم ينقل عن أحد من أهل الأرض شيء من ذلك، فالاقتصار حينئذ على أن الجواب الذي ذكره الخطابي ومن تبعه أوضح، والله أعلم.

وأما الآية فالمراد بها قوله تعالى: (اقتربت الساعة وانشق القمر) لكن ذهب بعض أهل العلم من القدماء أن المراد بقوله: (وانشق القمر) أي سينشق كما قال تعالى: (أتى أمر الله) أي سيأتي، والنكتة في ذلك إرادة المبالغة في تحقق وقوع ذلك، فنزل منزلة الواقع) اهـ. من الفتح "موقع المحدث على الانترنت.

كل هذا النقاش والجدل حول تعارض وهمي بين نصوص من الحديث والعقل، **في حين أن المسألة مرتبطة بإثبات معجزات للنبي صلى الله عليه وسلم، وهذه المسألة فرع عن الإيمان بالرسل، فهي من مسائل العقيدة الأصلية، فلا تُثبت إلا بالقطعيات من الأدلة**، وهذا ما لاحظه علماء الإباضية عبر التاريخ وبخاصة المتقدمين منهم عندما كانوا حريصين كل الحرص على عدم إثبات مسائل العقيدة إلا بالقطعيات من الأدلة، وذلك لضبط منطقة النص.

أما هذه القضية بعد جعلها مجرد رواية رواها آحاد الرواة فأظن أن التعامل معها بعد ذلك سيكون سهلاً دون طرح لنزاع وصراع وهمي بين الشريعة والعقل.

المثال الثالث: الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر حين غربت الشمس: (تدري أين تذهب). قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: {الشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم}) اهـ.

هذا الحديث دار حوله النقاش، فالفقهاء المدافعون عن الأسانيد صوروه نصاً شرعياً، يصبح من يناقش فيه راداً لنصوص الشريعة بعقله القاصر المحدود.

في حين لو فعلنا القواعد الرصينة للفقهاء وبخاصة فقهاء الإباضية في ضرورة اعتبار إثبات الغيبيات بالنصوص القطعية دون هذه المرويات الآحادية لحلت المشكلة من الأساس، فقضية العرش وما يتعلق به من قضايا العالم الغيبي غير الملموس والمشاهد، فعندما تأتينا الرواية بإثبات هذه الجزئية لا نعتمد عليها في إثبات هذا الأمر الغيبي.

إذن التعارض الوهمي بين الشريعة والعقل هنا انتفى، لعدم اعتبار هذا النص من النصوص الشرعية المقعدة للحقائق الغيبية.

تصبح الرواية مجرد خبر يدرس من حيث توافقه مع البحث الكوني، فالشمس متابعة منا منذ القدم إلى يومنا هذا، ومتابعة بالتليسكوبات لحظة بلحظة، فأين تذهب وأين تطلع فأمره سهل هين.

نجد في المقابل من يعتبر هذا الحديث مثبتاً لأمر غيبي يحول المسألة برمتها إلى تعارض بين العقل والنقل، وتوصف المسألة كالتالي: (المؤمن يقدم النقل والحديث على عقل يحتمل الصواب والخطأ!، والمعتزلة والعقلانيون والفلاسفة وجميع أهل الضلال والأهواء يقدمون عقولهم القاصرة المحدودة على هذا النص النبوي الشريف!!.) هكذا صارت المعادلة!!.

المثال الرابع: **أحياناً يحصل التعارض بسبب أننا لم نستطع أن نميز بين النص الأصلي والنص المتولد منه:** فمثلاً اعتاد الناس أن يتراشقوا بالتهم عند بداية دخول شهر رمضان وعند خروجه حول الطريقة التي يعتمد عليها في إثبات دخول الشهر وخروجه، وإن كانت قد خفت حدة هذا التراشق كثيراً في السنوات الأخيرة، لكن الإشكالات لا تزال قائمة، فمن يعول على الحساب الفلكي يصفه السلفيون مثلاً بأنه معرض عن الحديث الشريف (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته)، والذين يقولون بالحساب الفلكي يصفون من يعرض عن الحساب الفلكي بالذين لا يسايرون العصر ولا يأخذون بما توصل إليه العصر، وكلا الطرفين لم يحلوا تعارضاً متوهماً بين نصوص الشريعة والعقل واكتشافاته.

والحقيقة إن أساس هذه المشكلة أننا لم نحدد ما هو النص، فكل الأطراف تقريباً تظن أن النص الأصلي في هذه المسألة هو حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته)، لكن

الحقيقة أن النص الأصلي هو قول الله تعالى: (فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) البقرة:١٨٥، فالعبرة بشهود الشهر، وشهود الشهر يتحقق بحسب الوسائل المتوافرة، وبعضها قد دل عليها القرآن الكريم:

- كقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) يونس:٥

- وقوله: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً) الإسراء: ١٢

فالقرآن ربط بين حركة الشمس والقمر وتعاقب الليل والنهار من جهة ومعرفة عدد السنين والحساب، مما يدل على اعتبار الحساب الفلكي القائم على العلم والمعرفة.

فعندما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته)، وفي رواية الربيع :

(٣٢٣) أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان : " لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غمي عليكم فاقدروا له "

فإن العبرة بشهود الشهر، وشهود الشهر متحقق بالرؤية البصرية، وهي الوسيلة المتوافرة في ذلك العصر، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليطالب الناس بأكثر مما يستطيعون، وهذا من استخراج الحكمة من كتاب الله، فالنبي صلى الله عليه وسلم فَعّل الدلالات القرآنية واستخرج الحكمة منها وقال ما قاله، وهذه هي الحكمة النبوية التي قال الله تعالى عنها (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ) البقرة:١٥١، وعليه فالحكمة النبوية هي تفعيل لدلالات الكتاب العزيز في واقع الحياة، يقول محمد بن جعفر، الجامع، ج١ ص٤٨: (وقال الله تعالى: "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً" **والحكمة ها هنا القرآن**، وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن العلم فقال: العلم كله القرآن، وهو الأصل والتنزيل، وما بعده تفسير له وتأويل)

وقال العوتبي في الضياء ج١ ص ٥٥: (قال ابن عباس: **الحكمة القرآن والفقه والعلم**)

وجاء في منهج الطالبين" للشقصي، ج١ ص٣٥٣: (وقال النبي صلي الله عليه وسلم: أوتيت جوامع الكلم، واختصرت لي الحكمة اختصاراً، يعني القرآن).

نخرج من كل هذا أن النص الأصلي هو آيات الكتاب العزيز التي ذكرناها، أما حديث النبي عليه الصلاة والسلام فهو النص التابع، وهو استخراج للحكمة من القرآن وتفعيلها في واقع الحياة،

وعندما نغفل هذا ونعجز عن استخراج الحكمة من القرآن كما علمنا النبي صلى الله عليه وسلم نفتعل شجاراً وصراعاً وهمياً بين الشريعة والعقل .!!

المثال الخامس: **وأحياناً يحصل التعارض الوهمي بين الشريعة والعقل بسبب الأصل الذي ترجع إليه بعض النصوص المروية**، وأقصد بالتحديد ظاهرة الإسرائيليات، وهذه كانت أحد أهم الأسباب التي ساهمت في إذكاء نزعة التعارض الوهمي بين العقل والشريعة، لأن الإسرائيليات خرافية بطعبها، وروايتها أدت بشكل كبير إلى ظهور هذا التساؤل الساذج بوجود التعارض بين العقل والشريعة، فعندما قام البعض بنقدها مبكراً قام آخرون بإثبات صحتها من الناحية الإسنادية!، لن أخوض كثيراً في دراسة الظاهرة الإسرائيلية في المرويات الإسلامية، لكن أحيل القارئ إلى وثيقة من أقدم الوثائق التي عالجت الظاهرة الإسرائيلية وبدايات تسربها، وهي (آثار الربيع في الحجة على مخالفيه) وهي مطبوعة مع مسند الإمام الربيع.

أكتفي هنا بإيراد بعض الروايات الإسرائيلية، وليتأمل القارئ في التساؤلات التي يمكن أن ترد على ذهنه بوجود تعارض بين الشريعة والعقل إذا اعتبرنا هذه الأحاديث من صلب الشريعة:

- روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة: (فقدت أمة من بني إسرائيل، لا يدرى ما فعلت. ولا أراها إلا الفأر. ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربه، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته؟).

قال أبو هريرة: فحدثت هذا الحديث كعباً فقال: أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلت: نعم. قال ذلك مراراً. قلت: أأقرأ التوراة؟.

- روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر).

- روى مسلم عن جابر بن عبدالله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن عرش إبليس على البحر فيبعث راياه فيفتنون الناس، فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة).

- روى البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنه رأى شيطاناً).

- روى مسلم عن أبي ذر أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكلب الأسود فأجابه بأنه شيطان.

السبب الثاني: اختلاط مفهوم العقل بمفاهيم تحكيم الهوى والذوق.

يقول الشيخ الخليلي في ص٢٢-٢٣ من كتاب العقل: (فكم استخدم العقل اليوم سلاحاً فتاكاً يفري أديم الإسلام ويحز غلاصمه ويقطع أوصاله)اهـ، وهكذا بقية كلام الشيخ الخليلي في حديثه عن الهوى يسميه ((عقلا))!.

وعند هذه النقطة بالتحديد يقع الكثيرون في الخلط بين العقل وغيره من المفاهيم :كالهوى ورغبات النفس والتأثير الاجتماعي، فالقرآن الكريم لم يذم العقل ولو لمرة واحدة، بل مدحه وأثنى عليه وجعله مناطاً للتكليف (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) الروم:٢٨.

إنما الذم كان لمجادلات أولئك الكفار والمعاندين والتي كانت أبعد ما تكون عن العقل، لذلك وصفهم الله تعالى بأنهم "لا يعقلون" (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ، وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) البقرة: ١٧٠-١٧١.

(مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) المائدة:١٠٣

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) العنكبوت:٦٣

ولذلك فمن غرائب وعجائب الاستدلالات أن يجعل من مجادلات الذين كفروا، الذين قال الله عنهم بأنهم "لا يعقلون" دليلاً على ذم العقل ودوره في تثبيت ركائز الإيمان .

في حين أنه لم توجد آية واحدة فيها ذم العقل، أو ذم العقلاء، أو ذم أولي الألباب.....

١. بل هناك ذم لاتباع الهوى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) النساء: ١٣٥

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) ص: ٢٦

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) النازعات:٤٠-٤١

٢. وذم لتقليد الأسلاف دون تبين لحقائق الأمور:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ، وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) البقرة:١٧٠-١٧١

والغريب أن بعض الفقهاء كثيراً ما يخلطون بين العقل والهوى، فيجعلون من ذم الهوى ذماً للعقل مع وضوح الفرق بين الأمرين في كتاب الله، والقرآن بعد أن ساق شبه الكفار والمعاندين في التنكر لحقائق الإيمان وصفهم بأنهم (لا يعقلون) ولم يقل عنهم ((عقلانيين))، في حين أن الفقيه اليوم يجعل من تلك الأقوال التي قالها الكفرة والمعاندين دليلاً على ذم العقل في الجملة.

السبب الثالث: عدم التفرقة بين دور العقل في النظر في الوجود المغيب والوجود الطبيعي

١. قلنا كثيراً فيما سبق أنه لإثبات الغيبيات لابد من النصوص القطعية في ثبوتها ودلالتها، ودور العقل هنا يقوم على ربط النصوص ببعضها واستخراج المعنى منها وهذا ما عناه الشيخ الكدمي عندما قال: (**وكذلك حجة العقل من تأويل كتاب الله تبارك وتعالى**) المعتبر ج١ ص١٤، فدور العقل هو تأويل أي تفسير النصوص المتعلقة بالغيب، فلا يولد العقل أي قضية غيبية من العدم، لذا فعندما تأتي قضية غيبية في نص آحادي غير قطعي الثبوت، كمسألة الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: عن أبي ذر قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر حين غربت الشمس: (تدري أين تذهب). قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: {الشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم}) اهـ

فالحديث لا يصلح لإثبات الغيب استقلالاً، لذا فمن غير المنهجي والمنطقي أن نتصور تعارضاً بين العقل والشريعة بسبب هذا الحديث، فهذا الحديث لا يمثل الغيب حتى نقول إنه ممثل للشريعة.

وهذه النقطة بالذات لا إشكال فيها عند الإباضية والزيدية والمعتزلة، الذين ظلوا أوفياء إلى حد كبير لمبدأ إثبات الغيبيات بالنصوص القطعية، المشكلة تكمن في كتبة الحديث والمعتنين بالآثار ممن عرفوا

عبر التاريخ بأهل الحديث، الذين جعلوا لمثل هذه النوعية من الأحاديث حجية تعادل حجية آيات القرآن، ثم انطلقوا منها إلى افتراض وجود تعارض وهمي بين العقل والشريعة.

٢. أما عن دور العقل في الوجود الإنساني، أو منطقة البحث الكوني، فالله تعالى أمرنا بالسير في الأرض والنظر في: بدء الخلق- وفي النفس- وفي الأرض- وفي عاقبة الذين كانوا من قبلنا، والنظر هو أعلى درجات التعقل.

(قلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ) العنكبوت:٢٠

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) آل عمران:١٣٧،

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) الأنعام:١١

(أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ،وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ) الغاشية:١٧-١٩

(وفي الأرض آيات للموقنين، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ) الذاريات:٢٠-٢١.

فالعقل عبارة عن مَلَكة تكتشف العلاقات بين الأشياء وتربط بين الأسباب ومسبباتها لتكشف سنن الله وآياته التشريعية والتكوينية، التي أوجدها الخالق وأنشأها في هذا الكون، تحكم حركته وتنظم سيره.

١. في الآيات التشريعية

- قال تعالى: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم، وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين، **كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون**) البقرة:٢٤٠-٢٤٢.

- قال تعالى: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق **ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون**) الأنعام:١٥١.

- قال تعالى: (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو

صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون**) النور:٦١.

٢. في الآيات الكونية:

- قال تعالى: (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السمآء من مآء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دآبة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السمآء والأرض **لآيات لقوم يعقلون**) البقرة:١٦١ .

- قال تعالى: (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بمآء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل إن في ذلك **لآيات لقوم يعقلون**) الرعد: ٤.

- قال تعالى: (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك **لآيات لقوم يعقلون**) النحل:١٢ .

- قال تعالى: (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك **لآية لقوم يعقلون**) النحل:٦٧.

- قال تعالى: (ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك **لآيات لقوم يعقلون**) الروم:٢٤.

فكانت الآيات التشريعية والكونية تذيل بـ (لآيات لقوم يعقلون) (لعلكم تعقلون)، وهي دعوة صريحة للنظر والتعقل في التعامل مع آيات الله تعالى الكونية والتشريعية على السواء.

وبالتالي فلا يمكن بعد ذلك أن نرجع ونقول إن هناك تعارضاً بين هذا النظر - بعد إعماله بالشكل الصحيح المعمق بعيداً عن الهوى ومزالقه- ونصوص الشريعة، هذا هو بيت القصيد في هذه المسألة.

فلذلك لتطبيق النصوص الشرعية لابد من دور للعقل (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)، وهذه هي الحكمة علمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نعملها في تطبيق النصوص(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ)البقرة:١٥١.

أمثلة تطبيقية

(١) مسألة إثبات دخول شهر رمضان وخروجه:

عندما بدأ الفلكيون المعاصرون يثيرون هذه القضية، ويقترحون إثبات دخول الشهر وخروجه وكذا سائر الشهور بالحساب الفلكي رفض أكثر الفقهاء ذلك، واحتجوا بأن الشريعة لا يوجد فيها غير الرؤية البصرية لإثبات دخول الشهر وخروجه، مستندين إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته)، وعدت هذه المسألة من المسائل التي خاف الفقهاء منها أنهم سوف يخالفون النص الشرعي إلى ما دلت عليه العقول القاصرة، يقول الشيخ الخليلي في كتاب الفتاوى، ج١ ص٣١٢: (**فكان التعويل على الحساب الفلكي فيه ما فيه من المجازفة، ويتبين ذلك من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب**) اهـ وكأن أمية الأمة يراد لها أن تبقى إلى قيام الساعة.

وقد قلت سابقاً إن سبب الإشكال في هذه المسألة أننا لم نحدد ما هو النص، فكل الأطراف تقريباً تظن أن النص الأصلي في هذه المسألة هو حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته)، لكن الحقيقة أن النص الأصلي هو قول الله تعالى: (فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) البقرة:١٨٥، فالعبرة بشهود الشهر، وشهود الشهر يتحقق بحسب الوسائل المتوافرة، وبعضها قد دل عليها القرآن الكريم:

- كقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً **وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) يونس:٥

- وقوله: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ **وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً) الإسراء: ١٢

فالقرآن ربط بين حركة الشمس والقمر وتعاقب الليل والنهار من جهة ومعرفة عدد السنين والحساب، مما يدل على اعتبار الحساب الفلكي القائم على العلم والمعرفة.

فعندما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته)، وفي رواية الربيع:

(٣٢٣) أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان : "لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غمي عليكم فاقدروا له".

لذا قال أبو المؤرج: (**والسنة في هذا ما تثبت به الأشياء**، فالبينات أنها تثبت بشاهدين ما خلا القذف، فإذا كان الشهر قد شهد عليه رجلان عند قوم فقد وجب الصوم والفرض بهما، وإذا شهد رجل فالقياس أنه لا يثبت الفرض على العامة، والصوم أولى في الاستحسان إذا كان الشاهد عدلاً، لأن فيه التحصين للفرائض من الشبهات، وهو قول أبي عبيدة وعليه نعتمد، وهو قول العامة من فقهائنا) اهـ المدونة الكبرى، باب الصيام.

فالعبرة بشهود الشهر، وشهود الشهر متحقق بالرؤية البصرية، وهي الوسيلة المتوافرة في ذلك العصر، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليطالب الناس بأكثر مما يستطيعون، وهذا من استخراج الحكمة من كتاب الله، فالنبي صلى الله عليه وسلم فَعّل الدلالات القرآنية واستخرج الحكمة منها وقال ما قاله، وهذه هي الحكمة النبوية التي قال الله تعالى عنها (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ) البقرة:١٥١، وعليه فالحكمة النبوية هي تفعيل لدلالات الكتاب العزيز في واقع الحياة، يقول محمد بن جعفر، الجامع، ج١ ص٤٨: (وقال الله تعالى: "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً" والحكمة ها هنا القرآن، وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن العلم فقال: العلم كله القرآن، وهو الأصل والتنزيل، وما بعده تفسير له وتأويل)

وقال العوتبي في الضياء ج١ ص ٥٥: (قال ابن عباس: الحكمة القرآن والفقه والعلم)

وجاء في منهج الطالبين" للشقصي، ج١ ص٣٥٣: (وقال النبي صلي الله عليه وسلم: أوتيت جوامع الكلم، واختصرت لي الحكمة اختصاراً، يعني القرآن).

وفقهاء الإباضية المعاصرون كانت لهم توجهات مختلفة في التعامل مع هذه المسألة، فالشيخ بيوض (ت:١٩٨١م) والشيخ بكلي عبدالرحمن (ت:١٩٨٦م) اعتبرا الحساب الفلكي في ثبوت دخول الشهر وخروجه يقول إبراهيم بيوض: (إن العمل بالحساب الفلكي في الصيام والإفطار جائز، فإنه قطعي يقيني، والاعتماد عليه اليوم أوثق من الاعتماد على الرؤية التي كثر الكذب والتزوير والشبهة فيها) فتاوى الإمام الشيخ بيوض، ص ٢٦٨

ويقول في موضع آخر: (فإن التقويم الفلكي اليوم عالمي كما تعلمون، لا يتطرق إليه شك ولا تداخله أية ريبة، وقد بلغ من دقته في حساب سير الأجرام أنه يلاحظ الجزء من المليون من الثانية أو أقل من

ذلك، فمن السخف تعريض الشريعة الإسلامية الغراء للسخرية بزعم أنها تعارض القطعي من العلم، وهي التي جاءت بتقديس العلم) المرجع السابق، ص٢٦٥.

أما الشيخ الخليلي فعلى الرغم من تحفظه من الحساب الفلكي فقد قال: (عندما تفشى في الناس الكذب وقول الزور وكثرت الادعاءات في أمر الأهلة؛ نرى أنه لا مانع من أن يكون الحساب الفلكي وسيلة لمعرفة صحة الشهادة عندما يكون هنالك يقين باستحالة رؤية الهلال) الفتاوى،ج١ ص ٣١٢.

انظروا لكل هذه الأشياء، ستجدون أن وهم تعارض الشريعة مع العقل كان سببه:

١. عدم تمييز النص الأصلي عن النص التبعي المولد.

٢. عدم التمييز بين ما دل عليه العقل بمعطياته البحثية المتعلقة بعلم الفلك، والهوى والرغبة في مخالفة النص.

٣. توهم وجود نصوص تمتد بنا إلى الزمن الحاضر بأننا " أمة أمية لا نكتب ولا نحسب"!.

(٢) مسألة معاصرة حصلت أيام قيام حركة طالبان بهدم أصنام بوذا، ففي عام ٢٠٠١م، قبل أحداث سبتمبر، أعلنت حركة طالبان الأفغانية أنها سوف تحطم صنمي بوذا، جاء في موقع (إسلام أون لاين) نشر في: ٩/ ٣/ ٢٠٠١م : (يتوجه وفد من كبار العلماء برئاسة الشيخ يوسف القرضاوي إلى أفغانستان في غضون الأيام القليلة القادمة للقاء الملا محمد عمر رئيس حركة طالبان في محاولة من الوفد لإيضاح وجهة النظر الشرعية المخالفة لما تبنته الحركة بشأن تدمير التماثيل وبخاصة تمثالان لبوذا، وما سيترتب على هذا الأمر من آثار سلبية على صورة الإسلام في العالم...

ويتبنى الوفد الإسلامي ما قد أعلنه الدكتور القرضاوي في فتوى أصدرها الأسبوع الماضي حول هذه القضية التي شغلت الرأي العام العالمي والإسلامي للدرجة التي أثرت على تغطية أخبار الانتفاضة الفلسطينية، وتتركز في أن التماثيل التي تحاول طالبان تدميرها لا تعبد وبالتالي ليس وراءها فتنة على المسلمين، وإنما في تدميرها تشويه لصورة الإسلام وتأليب الرأي العام العالمي وبخاصة البوذيون المنتشرون في العالم، والذين يقدر عددهم بأكثر من ٣٠٠ مليون بوذي، ينتشرون في اليابان والصين وميانمار (بورما سابقاً) وتايلاند والفليبين وماليزيا وسيريلانكا...) اهـ (باختصار).

وقد استندت حركة طالبان في موقفها على (انظر: موقع http://www.islamonline.net)

١. أن الإسلام حرم التماثيل، وقد أجمعت الأمة على ذلك.

٢. أن سيدنا إبراهيم حطم الأصنام، وجعلها جذاذاً، كما حكى القرآن الكريم، وقد قال تعالى لرسوله: "ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين" (النحل: ١٢٣).

٣. أن سيدنا موسى حَرَق (العجل الذهبي) الذي صنعه لهم السامري، وقال له: "وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنَّه ثم لننسفنَّه في اليم نسفاً" (طه: ٩٧).

٤. أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حطم الأصنام عندما فتح مكة، ومكَّن الله له فيها، ونحن مكَّن الله لنا في أفغانستان، فلا يسعنا السكوت عليها.

٥. أن سيدنا علي كرم الله وجهه قال لأبي الهياج الأسدي: أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تدع تمثالا إلى طمسته، ولا قبرا مشرفا إلا سويته" (رواه مسلم).

في حين رأى القرضاوي وغيره ممن سافروا في الوفد لإقناع حركة طالبان بالعدول عن موقفها بـ:

١. وما استندت إليه طالبان: من تحطيم سيدنا إبراهيم للأوثان وجعلها جذاذاً، ومن تحريق سيدنا موسى لعجل السامري، نسفه في اليم نسفا، فمن المعلوم أن فعل الأنبياء ـ ولو كان فعل نبينا صلى الله عليه وسلم ـ لا يدل على الوجوب، إنما يدل على الجواز، وهم لا يكتفون بالقول بجواز الهدم، بل يقولون بوجوبه. إذ الجائز للمكلف أن يفعله وأن يتركه.

على أن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنما حطم أصناما يعبدها أهلها من دون الله، وقد حاجهم في ذلك وأفحمهم في قوله تعالى: "قال: أتعبدون ما تنحتون. والله خلقكم وما تعملون"، (الصافات: ٩٥). ومع هذا لم يحكم كل الأصنام، بل استبقى كبيرهم لمصلحة قدرها، وهو استخدامه في مجادلتهم حجة: "قال: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون" (الأنبياء ٦٣). ومثل ذلك تحريق سيدنا موسى عليه السلام لعجل السامري، لأنه غدا صنما يعبده السامري ومن تبعه من بني إسرائيل الذي قالوا لسيدنا هارون: "لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى" (طه: ٩١).

٢. ومن أهم وأبرز ما استدل به الإخوة الأفغان، ومن انتصر لهم من العرب: تحطيم النبي صلى الله عليه وسلم للأصنام التي كانت حول الكعبة، وكانت نحو ثلاثمائة وستين صنما كما قيل، وقد كان يضربها برمحه، وهو يقول: "وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً"

ولكن نلاحظ هنا جملة أمور:

الأول: أن هذه الأصنام كانت في المسجد الحرام، وحول الكعبة البيت الحرام، ولا يجوز أن يبقى في مسجد من مساجد المسلمين وثن يعبد، فكيف بأعظم مساجد الله، وبأول بيت وضع في الأرض للتوحيد؟

بخلاف التماثيل المذكورة، فهي ليست في مسجد من المساجد، بل هي منحوتة في الجبال، وليس حولها مساكن ولا أحد يعبدها.

الثاني: أن جزيرة العرب لها شأن خاص، حيث يريد الله تعالى أن تكون معقلا للإسلام ولتوحيد الله في الأرض، ولهذا نهى أن يكون بها دينان، وكان لها وضع خاص في الإسلام، ولا سيما الحجاز منها، وعلى الأخص مكة المكرمة، والمسجد الحرام.

الثالث: أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كسر الأصنام يوم فتح مكة، حين مكن الله له في الأرض، وأصبح سيد الجزيرة بلا منازع، فلا خوف من فتنة، ولا خشية من أذى.

ولهذا رأيناه قبل الفتح بعام واحد ـ العام السابع للهجرة ـ يدخل هو أصحابه مكة معتمرين (عمرة القضاء) والأصنام حول الكعبة قائمة لم يمسها بسوء، لأن الأمر لم يكن قد اكتمل له، فصبر على ذلك حتى عام الفتح....الخ .انظر موقع http://www.islamonline.net

ومع كل هذه الاستدلالات والنقاشات التي تمت بين الطرفين يبقى الإشكال قائماً:

١. فهدم الأصنام أمر جائز لأنها رمز للوثنية وعبودية غير الله سبحانه.

٢. وكذلك حماية الأقليات المسلمة في البلدان البوذية كسريلانكا وفيتنام وكمبوديا وتايلاند وغيرها من انتقام ورد فعل غير مسبوق تجاه الأقليات المسلمة هناك أمر مطلوب جداً في فقه السياسة الشرعية.

٣. ولا ننسى كذلك دور علماء الآثار والحفريات في الكشف عن تاريخ الأمم والشعوب، وهذا يتطلب منهم دراسة التماثيل والمسلات والمعابد لدراسة التاريخ الإنساني، وهذا مطلب علمي.

كل هذه الدلالات – من النصوص ومن العقل المهتدي بنور الله– تجد أنها تتزاحم مع بعضها، وهذا هو بالضبط ما ظنه المتوهمون من وجود تعارض بين الشريعة والعقل، فكل تلك الاعتبارات شريعة وكلها عقل، فهي عقل منصوص عليه ونصوص معقولة مفهومة، المهم كيفية ترتيبها وتوجيهها

لتستقيم الحياة وهذه هي الحكمة، فهي أشبه بممر يتزاحم عليه عدد من الأشخاص، كلهم موجودون وكلهم حقيقيون، المهم كيف ننظم عملية سيرهم داخل الممر.

للأسف مع وجاهة رأي واعتبارات الدكتور يوسف القرضاوي التي تكشفت مع الزمن قالت عنه طالبان وبعض الفقهاء: إن حاله كحال من حكى عنه القرآن (قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) الأنبياء:٥٩، وارجعوا إلى أرشيفات تلك الحقبة لتقرأوا ما كتب عنها.

(٣) مسألة التصوير الفوتوغرافي (الشمسي):

روى الربيع (٢٧٤): أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي سعيد الخدري قال: اشترت عائشة رضي الله عنها نمرقة فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف بالباب ولم يدخل، فلما رأت في وجهه الكراهية قالت: يا رسول الله صلى الله عليك وسلم أتوب إلى الله وإلى رسوله مما أذنبت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بال هذه النمرقة" ؟ فقالت: اشتريتها لك لتقعد عليها، وتتوسدها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أصحاب هذه الصور يوم القيامة يعذبون بها في النار، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم" ثم قال: "إن البيت الذي فيه تصاوير لا تدخله الملائكة عليهم السلام" .

وقد اختلف الفقهاء في حكم التصاوير عموماً فمنهم من منعها، ومنهم من أجازها، ومنهم اشترط شروطاً معينة لجوازها، ومنهم من اكتفى بالقول بكراهتها.

وفي المذهب الإباضي، كان القول بالكراهة لعدد من المتقدمين كالربيع بن حبيب (انظر: آثار الربيع)، ومنهم من قال بالمنع وهذا قول الأكثر منهم، وقال بالجواز الشيخ ناصر بن جاعد الخروصي (انظر قاموس الشريعة).

وفي هذا العصر مع ظهور التصوير الفوتوغرافي ازداد ضغط الحياة على الفقهاء فالناس كانوا يطالبون به والحكومات في أمس الحاجة إليه في معاملاتها، فهنا تشجع من تشجع للقول بجوازه، لكن عدداً منهم لم يدروا كيف يصنعون لإيجاد أدلة على القول بجوازه، فجمعوا بين العديد من المتناقضات – إن صح التعبير-.

الحنفية وهم أشهر من قال بجواز التصوير باليد لم تكن لديهم مشكلة في القول بجواز التصوير الفوتوغرافي، لأن دليل القول بالجواز لديهم هو حديث: (إلا رقماً في ثوب)، فما رقم في الثوب-على

سبيل المثال- جائز ويأخذ غيره نفس الحكم، والممنوع لديهم هو المجسم من التصوير الذي يراد به مضاهاة خلق الله.

وفقاء آخرون قالوا بمنع كافة أنواع التصاوير كالحنابلة وبعض الإباضية، ولذلك اختلفت طرائقهم في كيفية التعامل مع هذه المسألة:

- فالكثير منهم منع التصوير الفوتوغرافي بشدة وحزم، كالشيخ السالمي والإمام الخليلي- رحمهما الله- وعليه جرت الفتوى في عمان فترة من الزمن لمكانة هذين الإمامين.

- والشيخ بيوض إبراهيم فقيه الإباضية بالجزائر(ت:١٩٨١م) قال بجوازه، واعتبره كظهور الصورة في المرآة .

- أما في عمان، فمع قيام الدولة الحديثة العصرية بمجئ صاحب الجلالة السلطان قابوس، فقد كانت هي نقطة التحول الفاصلة، فالحياة كانت تتسارع بشكل يفوق الذهن، والفقيه كان يحارب-إن صح التعبير- على كل الجبهات ولا يستطيع أن يفتح على نفسه جبهة المجتمع الذي كان يتطلع إلى منجزات الحياة العصرية بعد فترات حرمان طويلة جداً، ولا يطيق هذا المجتمع سماع فتاوى التحريم في حقها، والشيوعية والبدائل اللادينية كانت هي الأخرى بالمرصاد، هنا كانت فتاوى الشيخ الخليلي بإباحة التصوير الفتوغرافي، وهذا كان يظهر في عمله جلياً بظهوره المتكرر مع الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري – المفتي السابق- في العديد من الصور الملتطقة لهما في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي.

لكن كانت المشكلة في المبرر المنطقي والحل الفقهي لتجاوز الدلالة الصارمة للحديث في تحريم التصوير بكافة أشكاله وصوره، هنا كان الحل الذي ابتكره الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصراية في وقته في جواب شهير بعنوان (الجواب الشافي في إباحة التصوير الفوتوغرافي) في عام ١٩١٥م، وقد صاغ نظرية إباحة التصوير الفوتوغرافي على أساس أنه لا ينتمي إلى جنس التصوير المحرم في الحديث لأنه ((حبس للظل))، ووجدت هذه النظرية قبولاً لدى الفقهاء لأنه لم يوجد حل آخر ينقذهم من هذه الورطة ، ولم يفكر أحد في أنها أجلى وأظهر تطبيق لمقولة ((تقديم العقل على الشريعة)) التي فروا منها.

يقول الشيخ الخليلي عن هذا الحديث: ((أما الصور المرسومة باليد فيشملها التحريم الذي دل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن أصحاب هذه الصور ليعذبون بها يوم القيامة ويقال لهم

أحيوا ما خلقتم" فلا يجوز رسمها ولا اقتناؤها ولا بيعها ولا شراؤها، وأما الصور الفوتوغرافية فقيل حكمها حكم سائر الصور في المنع لصدق اسم الصور في المنع، وقيل لها حكم آخر نظراً إلى أنها ليست صوراً محدثة من قبل أحد من الناس، وإنما هي حبس للصورة التي تنطبع في الأثير، فإن كل شبح تنطبع صورته من كل جانب من جوانبه فيما يحاذيه من الأثير، ويتجلى ذلك عندما يقابله جسم لألاء كالمرآة والماء، فغاية ما تحدثه آلة التصوير الفوتوغرافية هو حبس هذه الصورة حتى تظهر كما هي، وهذا القول ظاهر صوابه)) فتوى بتاريخ ١٨ محرم ١٤١٨هـ.

في هذه الفتوى يذهب الشيخ الخليلي إلى القول بتحريم الصور المرسومة باليد استناداً إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم "إن أصحاب هذه الصور ليعذبون بها يوم القيامة ويقال لهم أحيوا ما خلقتم"، أما الصور الملتطقة بالآلة (الشمسية أو الفوتوغرافية) فهي جائزة والدليل: أنها (حبس للصورة التي تنطبع في الأثير، فإن كل شبح تنطبع صورته من كل جانب من جوانبه فيما يحاذيه من الأثير، ويتجلى ذلك عندما يقابله جسم لألاء كالمرآة والماء، فغاية ما تحدثه آلة التصوير الفوتوغرافية هو حبس هذه الصورة حتى تظهر كما هي، وهذا القول ظاهر صوابه) اهـ

وهذا النظر العقلي المحض الذي لم ترد به آية ولا حديث يقدمه الشيخ الخليلي على الحديث الذي يشمل حكمه كل صورة، ولم يفرق بين صورة ترسم باليد وأخرى يحبس فيها الظل.

وهذا المخرج العقلي المحض لمحمد بخيت المطيعي – الذي قدم هنا على النص الحديثي– ، وتابعه عليه الكثير من الفقهاء من بعد ومن بينهم الشيخ الخليلي، لا يعدو أن يكون خضوعاً للمنطق المتسارع للحياة واضطرار الفقهاء إلى مسايرته، وإلا فهو تخريج على قاعدة (تقديم العقل على الشريعة).

وأنا أوافق على جواز الصور الفوتوغرافية، لكن لا أوافق على مبدأ ((تقديم النظر العقلي المحض على نصوص الشريعة)) رغبة في مسايرة ضغوط الحياة، وأتفق مع القائلين بجواز التصوير استناداً إلى حديث الربيع بن حبيب (إلا رقماً في ثوب)، وليت الشيخ الخليلي أخذ بما دل عليه هذا الحديث بدلاً من اللجوء لما يتصور أنه ينعت به غيره من تقديم العقل عل الشريعة.

الفصل الرابع

حيتان وعروش

حوت في البحر

قصة الحوت الذي التقم نبي الله يونس عليه السلام تحولت عندنا في عُمان إلى تراجيديا مزعجة، واتخذت ستاراً شُنع به على مؤلفي كتاب "الإيمان بين الغيب والخرافة" لتدعيم عدد كبير من التهم في حقهم، وهي:

- التلاعب بالثوابت القرآنية
- التشكيك بقدرة الله تعالى
- إنكار الخوارق (انظر: كتاب "العقل" للشيخ الخليلي ص ٥٥-٦٦)

وكأنه يراد من تقديم القضية بصورة معينة أن تكون السقطة الكبرى لضرب الكتاب ومؤلفيه.

وقبل الشروع في دراسة هذه القضية التي حُملت أكثر مما تحتمل، أبدأ بالتهمة التي كررها الشيخ الخليلي في حق مؤلفي كتاب "الإيمان بين الغيب والخرافة" بإنكار الخوارق.

قال الشيخ الخليلي في ص٤٨ من كتاب (العقل): (**أنكروا خوارق العادات جملة، فكذبوا بكل كرامة، وعدوها مثار للسخرية والاستخفاف، وحملوا ما ذكر في القرآن من معجزات الأنبياء على ضروب من التأويل يرفضها الذوق السليم وتأباها اللغة الصحيحة**) اهـ.

وهذا الكلام لم نجده أيضاً في كتاب "الإيمان بين الغيب والخرافة"، ويمكن تلخيص رسالة كتاب "الإيمان بين الغيب والخرافة" فيما يتعلق بموضوع الخوارق (انظر الكتاب: ص٨٨-٢٢٥) حسب ما فهمت كالتالي:

- الكتاب لا يستعمل مصطلح "خوارق" بادئ ذي بدء، ويستعمل مصطلح "آية"، وهما نوعان: آية معتادة، وهي السنن والشرائع الكونية السائرة في الوجود، وغير معتادة: وهو يختلف في ظاهره عن السنن والشرائع الكونية المعتادة (وهذه هي التي تعرف بالمعجزات).

- والقرآن الكريم يسمي كلا النوعين - المعتاد وغير المعتاد - آية، ويجمعها على آيات، وكلاهما من عند الله سبحانه.

- القرآن الحكيم وهو يسوق هذا الصنف من الآيات لا يقصد إثبات غرابتها، وإنما يقصد الهداية الحاصلة من ورائها للناس، وعلى ذلك علينا أن لا نتشبث بتأويل سلفي بمقدار أن نبحث عن العبرة والعظة في الآية.

- المعيار المتبع في تعيين الآية غير المعتادة هو:

١. مجيء الخبر المقطوع بتواتره أن الآية قد حدثت، فلو دخلت نسبة ضئيلة من الظن فلا تقبل، فوقائع الكون المقطوع بها مقدمة على أي ظن، ولو كان ضئيلاً جداً، وعلى ذلك فلا نقبل الآية إلا من القرآن الكريم وحده.

٢. أن نفقه لغة القرآن الخاصة به.

٣. أن نتجاوز الأشَرَاك الحاجبة عن الوصول إلى الحقيقة.٤. أن لا تَقْبل الآية التأويل أبداً، فإن قبلته فيجب الذهاب إليه، دون الوقوف عند التفسير الذي لا يتسق مع العادة الجارية في الكون.

ومن الأمثلة التي ضربت في الكتاب على تطبيق هذه المعايير:

قوله تعالى عن مريم عليها السلام: (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) آل عمران:٣٧.

فوجد في كتب التفسير أن ذلك الرزق كان فاكهة الشتاء في الصيف، أو فاكهة الصيف في الشتاء، أي أنه يأتي بطريق غير معهود، وعدّ ذلك من الآيات التي وقعت لمريم عليها السلام.

لكن الآية تقبل التأويل، فإضافة الرزق هنا إلى الله تعالى لا يعني أنه يأتي إلى مريم بطريق غير معهود، فقد ورد في الكتاب العزيز إضافة الرزق إلى الله تعالى مع مجيئه بطريق معهود، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَل هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَه مِنَ الثَّمَرَاتِ) البقرة:١٢٦.

وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّة وَلا شَفَاعَة) البقرة:٢٥٤.

وقال: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) الملك:١٥.

فقبول الآية للتأويل يبعدنا عن قبول أي تفسير غير معهود واقعاً، فيمكن أن يكون هذا الرزق الذي أضيف إلى الله تعالى من عند أناس قدّروا هذه المرأة الصالحة المتبتلة، فكانوا يأتون لها بشتى احتياجاتها مما لم يكن زكريا عليه السلام وهو من كفلها على علم به، وما وصلت إليه مريم بنت عمران من كسب احترام الناس بسبب تقواها وصلاحها دفع بزكريا إلى تمني الولد (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) آل عمران:٣٨. اهـ (بتصرف واختصار)

وضرب مثالاً آخر:

ص٣٣: (فعيسى عليه السلام ولد من أم دون أب حقيقة، وموسى عليه السلام تحولت عصاه إلى حية تسعى حقيقة، ولكن بالنسبة لنا اليومَ يعدّ هذا غيباً علينا أن نسلّم به...).

وبناء على ما سبق: فأين هو إنكار الخوارق؟!

- أما عن قصص الخوارق التي وقعت لغير الأنبياء:

يقول الشيخ الخليلي في ص١١٩-١٢٠: (وإن كنا نؤمن بإمكان الكرامة، بل وبوقوعها كما دل عليه القرآن لسنا نصدق بقصص جميع الكرامات المنسوبة إلى أصحابها بعجرها وبجرها، فإن كثيراً من الناس أطلقوا لخيالهم العنان في اختلاق كرامات ليس لها أصل من الواقع ولا نصيب من الصدق، وألبسوها من الوهم نسيجاً مهلهلاً، وحشروا معها من الأساطير ما يدركه العاقل ببصيرته أنه أبعد ما يكون عن الحق والحقيقة، وقد جاؤوا شيئاً إداً عندما عدوا من الكرامات أموراً يستحيي العاقل من ذكرها بلسانه فضلاً عن نسبتها إلى من بعده من أولياء الله الصالحين، فمنها ما يتنافى مع الدين والأخلاق، ومنها ما يتعارض مع النصوص الشرعية المؤكدة لبراهين العقل، ولا أشك أن كل من له نصيب من العقل فضلاً عن الدين يبرأ إلى الله عز وجل من تلك الكرامات ومختلقيها ومصدقيها) اهـ.

ويقول في ص ١٤٢: (ولكن هذا لا يعني بحال أن كل ما نقل من الكرامة هو ثابت صحيح، فلا بد من الكرامة هو ثابت صحيح، فلا بد من التثبت والاستيقان، كما أننا لا نحمل كل ما يكون مخالفاً للنواميس المعهودة على أنه كرامة، فكم يكون الأمر العجيب الخارج عن السنن المعتادة استدراجاً لصاحبه والعياذ بالله، وإنما العبرة في ذلك بالاستقامة وعدمها) اهـ.

الشيخ الخليلي يرفض اعتبار روايات الكرامات:

١. إذا لم تثبت عمن تروى عنه:

٢. إذا تنافت مع الدين والأخلاق:

٣. إذا تعارضت مع النصوص الشرعية المؤكدة لبراهين العقل:

٤. إذا كان صاحبها من غير الموفين بالقول والعمل:

بينما مؤلفا كتاب "الإيمان بين الغيب والخرافة" يزيدون مع تلك الضوابط أنهم يرفضون الحكايات التي تروى مخالفة للنواميس والسنن الكونية (انظر: الإيمان بين الغيب والخرافة، فصل الكرامة والسنن الكونية).

إذن:

١. مؤلفا كتاب "الإيمان" والشيخ الخليلي: متفقون على ما جاء في كتاب الله من آيات يؤيد بها المرسلون وغيرهم مما جاءت على خلاف القانون الكوني المعتاد

٢. الشيخ الخليلي ومؤلفا كتاب "الإيمان" متفقون على ضرورة رد هذه الحكايات التي يتداولها عامة الناس المخالفة للنصوص الشرعية وقواعد الأخلاق والتي لم تثبت عمن نسبت إليه.

٣. مؤلفا كتاب "الإيمان" والشيخ الخليلي يختلفون في هذه الحكايات إذا جاءت مخالفة للسنن الكونية المعتادة وخلت من البندين السابقين، فالشيخ الخليلي يرى إمكانها، والعدوي والوهيبي يرفضانها.

إذن مساحة الاتفاق بينهما قد تزيد على (٨٠٪)، لأن ما جاء في كتاب الله متفق عليه، والحكايات التي تخالف النصوص الشرعية متفق على رفضها وهي الغالب في هذه الحكايات، والمختلف فيه عدد محدود منها.

ولو جئنا ونظرنا بعين الإنصاف لما وجدنا لأحكام بالتضليل أو التبديع في هذه القضية أي معنى، لأن هذه الحكايات لا تمس عقيدة ولا يترتب عليها عمل (مع وجود آثار سلبية جمة تسببها على التفكير والنظر)، فطيران (superman) ومغامرات (batman) وشبكيات (spiderman) لا تمس عقيدة المسلم ولا عمله، فتبقى رأياً من حق من قدر عليه أن يدلي به.

(إذن نخلص من كل هذا)[٤] أن التهمة التي يسندها الشيخ الخليلي لمؤلفي كتاب "الإيمان بين الغيب والخرافة" بأنهم ينكرون الخوارق ليس لها أساس من الصواب، وأن الكتاب يشهد بخلاف ذلك، إنما قد وضعوا معايير منهجية لتمييز الآية غير المعتادة من غيرها، وهي :

(١. مجيء الخبر المقطوع بتواتره أن الآية قد حدثت، فلو دخلت نسبة ضئيلة من الظن فلا تقبل، فوقائع الكون المقطوع بها مقدمة على أي ظن، ولو كان ضئيلاً جداً، وعلى ذلك فلا نقبل الآية إلا من القرآن الكريم وحده.

---

٤ هذه الجملة أضيفت في النص للربط بين حلقتين (المرتب).

٢. أن نفقه لغة القرآن الخاصة به.

٣. أن نتجاوز الأَشْرَاك الحاجبة عن الوصول إلى الحقيقة.

٤. أن لا تَقْبل الآية التأويل أبداً، فإن قبلته فيجب الذهاب إليه، دون الوقوف عند التفسير الذي لا يتسق مع العادة الجارية في الكون) اهـ (كتاب الإيمان، ص١٠٦).

وهذه الشروط منطقية ومنهجية إلى حد كبير، فآيات الأنبياء أو غيرهم فرع عن الإيمان الغيبي، والذي لا يثبت إلا بقطعيات النصوص ثبوتاً ودلالة.

والشيخ الخليلي لم يقدم من أمثلة على ما يقول بأن مؤلفي كتاب "الإيمان" ينكرون الخوارق سوى مسألتين، سنناقشهما نقاشاً علمياً ولا نزيد على ذلك، وهاتان المسألتان هما: التقام الحوت للنبي يونس عليه السلام، وعرش ملكة سبأ.

المسألة الأولى: التقام الحوت:

أولاً: يرى الشيخ الخليلي أن التقام الحوت للنبي يونس عليه السلام الوارد في قوله تعالى (فالتقمه الحوت وهو مليم) الصافات:١٤٢ معناه الابتلاع كما نصت عليه كتب اللغة. انظر كتاب "العقل" ص٥٥. وسرد كلام علماء اللغة في معنى الالتقام بمعنى الابتلاع، إلى أن قال في ص٥٨: (**فأنت ترى أن أئمة اللغة سواء المتقدمون منهم والمتوسطون والمتأخرون إلى عصرنا هذا لم يختلفوا في أن التقم بمعنى ابتلع**) اهـ

هنا نسجل نقطة نظام: فقد ورد في كتب اللغة قديماً وحديثاً الالتقام بمعنى غير الابتلاع، وهو الإمساك بالفم أو الإطبق على الشيء في الفم

فقد جاء في لسان العرب مادة "لقم": (لقم: اللَّقْم: سُرعة الأَكل والمُبادرةُ إِليه. لَقِمَه لَقْما والْتَقَمه وأَلْقَمه إِياه، **ولَقِمْت اللُّقْمةَ أَلْقَمُها لَقْما إِذا أَخَذْتَها بفيك**، وأَلْقَمْت غيري لُقْمةً فلقِمها. والْتَقَمْت اللُّقْمة أَلْتَقِمُها الْتِقاما إِذا ابْتَلَعْتها في مُهْلة، ولَقَّمْتها غيري تَلْقيما . وفي المثل: سَبَّه فكأَنَّما أَلْقم فاه حَجَراً. وفي الحديث: أَن رجلاً أَلْقَمَ عينَه خصاصةَ الباب أَي جعل الشَّقَّ الذي في الباب يُحاذي عينه فكأَنه جعله للعين كاللُّقمة للفم. وفي حديث عمر رضي الله عنه: فهو كالأَرْقم إِن يُتْرك يَلْقَم أَي إِن تَتْرُكه يأْكلك. يقال: لَقِمْت الطعامَ أَلقَمُه وتَلقَّمْتُه والْتَقَمْتُه)اهـ.

- وفي لسان العرب أيضاً: (**كما يرضع الرضيع إذا لقم حَلَمة الثَّدْي**) اهـ، فالطفل لا يبتلع حلمة الثدي، إنما يمسكها بفيه.

وهذا المثال قد اعترض عليه الشيخ الخليلي في ص ٦٠: (**إذ الطفل لا يولج الثدي كله في فيه، وإنما يولج منه حلمته فحسب، وما هي إلا جزء يسير منه، فبناء على تفسيرهم التقام الحوت ليونس بإطباق فكيه عليه يلزمهم أن يكون معنى التقام الثدي دخول الثدي جميعاً بين ماضعي الطفل وإطباقهما عليه، وأنى لهم بذلك وفوه لا يسعه، وإنما هذا من باب المجان الإرسالي**)اهـ، وهذا الكلام لا يسلم به، لأن شواهد اللقم تدل على معنى الإمساك بالفم، وهذا يختلف بحسب الشيء الملتقم، ففي حالة الثدي يكون الالتقام للحلمة، وفي حالة الإنسان كما في قصة الحوت الإمساك بجزء منه بالفم أو حتى الإمساك به من ثيابه، كما في شواهد أخرى سنوردها التقام الفم للأذن يكون بالتصاق الفم بها، وهكذا.

- القاموس المحيط: (**ولَقَمَ الطريقَ وغيرَه: سَدَّ فَمَه**).

- تاج العروس: (: (اللَّقْمُ): سُرعة الأَكل والمُبادرةُ إِليه. (لَقِمَه لَقْماً) و(الْتَقَمه) و(أَلْقَمه) إِياه، و(**لَقِمْت اللُّقْمةَ أَلْقَمُها لَقْماً) إذا أَخَذْتَها بِفيك**، و(أَلْقَمْتُ) غيري (لُقْمةً فلقِمها). و(الْتَقمْت اللُّقْمة أَلْتَقِمُها الْتِقاماً) إِذا ابْتَلَعْتها في مُهْلة، و(لَقَّمْتها) غيري (تَلْقيماً).

- الإبانة للعوتبي (٤/ ٢٢٥): (قد نبح الكلب **فألقمه الحجر**

وانبض إذا الذئب عراك بالوبر *** فالكلب والذئب سواء في القذر

وقال الشاعر الآخر:

ما هكذا جاء لنا عن حاتم *** **تفقد اللقمة من فيِّ اللاقم**).

- (أساس البلاغة): (ل ق م: **لقم الطعام والتقمه وتلقمه وألقمته لقّمته** .

ورجل تلقامة.

وخذ هذا اللقم وهو المنهج.

قال زهير: له لقم لباغي الخير سهل وكيد حين تبلوه متين

ومن المجاز: ألقم فم البكرة عوداً ليضيق.

والتقم أذنه: سارّه.

وألقمته أذني فصبّ فيها كلاماً.

وألقم إصبعه مرارة) اهـ.

- المخصص في اللغة: (واللِّقْم- سُرعة الأَكل والمبادرة إليه لَقِمه لَقْماً والْتَقَمه وتَلَقَّمه وأَلْقَمته إِيَّاه وفي المثَل "سَبَّه **فكأَنَّما أَلْقَم فاه حَجَراً**" ورجِلُ تلْقام وتِلْقامَة- عَظيم اللَّقْم ، **صاحب العين، واللُّقْمة- ما تُهَيِّئُه لِلفَّمْ**) اهـ،

وإلقام الحجر يكون بسد الحجر للفم لا بابتلاع الحجر.

- (الصحاح للجوهري): (لقم : اللَقَم بالتحريكِ: وسَط الطريق .

واللَقْم بالتسكين: مصدر قولك لَقَمْت بالفتح الطريقَ وغيره، **أَلْقُمُه بالضم، إذا سددتَ فمه.**

والْتَقَمْتُ اللُّقْمَةَ، إذا ابتلعتها؛ ولَقِمْتُها بالكسر لَقْمًا وتَلَقَّمْتُها ، إذا ابتلعتَها في مُهْلة.

ولَقَّمْت غيري تَلْقِيمًا ، وأَلْقَمْتُه حجرًا) اهـ.

من كل هذه النقول نجد أن الالتقام وارد أيضاً في اللغة بمعنى الإمساك بالفم أو الإلصاق بالفم أو سد الفم، ووارد أيضاً بمعنى الابتلاع، وهذا المعنى (أي معنى الإمساك أو إلصاق الفم) وردت به بعض الأحاديث:

ففي سنن الترمذي (٢٥٤٨): عن أبي سعيد قال: قال رسول اللهّ صلى اللهّ عليه وسلم: "وكيف أنعم وصاحب القرن قد **التقم** القرن ...).

قال الشارح في تحفة الأحوذي ج٧ ص ١٠٠ : (وصاحب القرن قد **"التقم القرن" أي وضع طرف القرن في فمه**) اهـ.

وفي سنن أبي داود (٤٧٩٤): عن أنس قال: (ما رأيت رجلاً **التقم أذن** رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فينحِّي رأسه، حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه، وما رأيت رجلاً أخذ بيده فترك يده، حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده).

قال الشارح في عون المعبود ج١٣ ص ١٠٤ : (التقم أذن النبي صلى الله عليه وسلم، **أي وضع فمه على أذنه للتناجي**) اهـ.

من هنا تدرك أن عبارة الشيخ الخليلي في كتاب "العقل" ص ٥٩ : (وهو يؤكد ما أجمع عليه المفسرون واللغويون، بل جميع الأمة من كون الالتقام إنما هو بمعنى الابتلاع) اهـ، لا معنى لها، وما أكثر دعاوى الإجماع، وما أقل ما تكون صحيحة، المهم أن نقرأ جيداً، **وهذاه النقطة بالتحديد تعكس رغبة**

ملحة في الإيقاع بهؤلاء الناس بأي طريقة كانت، حتى ولو بترك آثار أخطاء فادحة في الاستدلالات، فأين الموضوعية العلمية في الاقتصار على معنى واحد للالتقام وهو (البلع)، والإعراض عن المعنى الآخر وهو (الإمساك بالفم)، مع وجود هذا المعنى الأخير في كافة المعاجم اللغوية؟.

وحول هذه النقطة قال مؤلفا كتاب "الإيمان" ص٩٣: (فالقرآن الكريم لا يقول؛ لا من بعيد ولا من قريب: إن الحوت قد ابتلع يونس في بطنه ثم فلحه، بل يبيّن أن الحوت التقمه، والالتقام ابتداءً هو الوقوع في الفم أو الإمساك به) اهـ.

وذهب الدكتور زغلول النجار في مقابلة له مع قناة الجزيرة:

http://www.aljazeera.net/Channel/archive/archive?ArchiveId=١٠٤١٨٨

إلى أن الالتقام بمعنى (الإطباق في الفم) لا بمعنى (البلع) وهذا هو بعض ما جاء في الحوار:

(أحمد منصور: عن قصة الحوت الأزرق وسيدنا يونس تفضل.

زغلول النجار: نعم هذا الحوت طبعا على ضخامته وقلنا أنه طول يصل ٣٥ متر ووزنه مائة وثمانين طن..

أحمد منصور: ٣٥؟

زغلول النجار: ٣٥ متر.

أحمد منصور: لأن أنت قلت ١٣٥ قبلها.

زغلول النجار: لا ٣٥ متر ووزنه مائة وثمانين طن، بلعومه لا يبلع إلا هذه الكائنات الدقيقة فإذا دخل فمه أي شيء كبير لا يُبتلع ولذلك بقي سيدنا يونس عليه السلام في فمه كاللقمة فقال ربنا {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ}..

أحمد منصور: يعني لا عارف يبلعه ولا يمضغه لأنه أهتم ليس له أسنان؟

زغلول النجار: ولا عارف يمضغه ليس له أسنان طبعا، الحوت بيتنفس بالأوكسجين فيرتفع فوق سطح الماء مرة كل خمسة لعشرة دقائق سيدنا يونس جالس في غرفة مكيفة يعني يطلع يتنفس ويرجع لا يضيره شيء ما فيه أسنان تؤذيه، يقول علماء الحيوان أن لسان الحوت يقف عليه خمسين رجل والفم مغلق مرتاحين بدون أي مضايقة..

أحمد منصور: واقفين؟

زغلول النجار: واقفين.

أحمد منصور: يعني مش نايم ولا متضايق؟

زغلول النجار: مش نايم واقف مرتاح جدا..

أحمد منصور: خمسين واحد.

زغلول النجار: خمسين واحد على لسانه مرتاحين ولذلك قال الله..

أحمد منصور: ده فندق ممتاز قوي.

زغلول النجار: نعم؟!

أحمد منصور: فندق مكيف.

زغلول النجار: قال ربنا تبارك وتعالى {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ} وقفة يعني أنا قرأت الآية مئات المرات لم تستوقفني أبدا يعني إلا حينما تأملت فيها ولذلك أقول كلما تأمل المسلم في القرآن الكريم يرى العجب..

أحمد منصور: تأملت وراجعت للمصادر العلمية التي أعطتك مفهوم ودلالة الكلمة.

زغلول النجار: تأملت وراجعت للمصادر العلمية نعم حينما راجعت للعهد القديم باللغة الإنجليزية وجدتهم يقولون..

أحمد منصور: اللي هو التوراة يعني.

زغلول النجار: (He was swallowed by a big fish) ما يسمى التوراة ابتلعته سمكة كبيرة **طبعا فرق كبير جدا لأنه لو أُبتلِع لهلك وضاع** يقول..

أحمد منصور: وبقي الفترة كلها في فم الحوت؟

زغلول النجار: بقي الفترة كلها ثلاثة أيام..

أحمد منصور: **فالتقمه غير فابتلعه؟**

زغلول النجار: غير ابتلعه تماما.

أحمد منصور: يعني الدلالة القرآنية هنا دقيقة تماماً.

زغلول النجار: في غاية الدقة {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ} **بقي لقمة في فمه لا يستطيع أن يبلعها ولم يلفظها مباشرة** ثم يقول رب العالمين {وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ} اشمعنا اليقطين؟ اليقطين هو القرع

بأنواعه المختلفة ومنه القرع العسلي ويملك أكبر حجم لورقة نبات ويريد ربنا تبارك وتعالى أن يستر عبده ونبيه فستره بشجرة من يقطين ثم بدراسة متأنية..) اهـ

وهذا توجيه حسن يتفق هو أيضاً مع دلالات اللغة وسياق الآيات، فإذن هناك ثلاثة آراء حول المسألة:

- رأي يقول: بأن التقام الحوت ليونس عليه السلام بمعنى الإمساك به بالفم
- ورأي آخر: بأن الالتقام بمعنى الإطباق عليه بالقم
- ورأي بأنه ابتلعه في بطنه

والذي أراه أن أقرب الرأيين إلى الصواب هما الرأيان الأول والثاني، **وأما الرأي الثالث (الابتلاع في البطن) فهو رأي ضعيف بنظري، لكني لا أقطع أعذار الناس ولا أضللهم لمجرد النظر والرأي**، حتى لو اعتبرته تأثراً بما جاء في التوارة، فسيبقى مجرد رأي له احترامه وإن لم أقبله.

ثانياً: في مسألة التقام الحوت لنبي الله يونس عليه السلام هي ما ذكره الشيخ الخليلي في ص٥٨: **(فأنت ترى أن أئمة اللغة سواء المتقدمون منهم والمتوسطون والمتأخرون إلى عصرنا هذا لم يختلفوا في أن التقم بمعنى ابتلع، ويؤيده النص القرآني حيث قال تعالى: "فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون" الصافات ١٤٣-١٤٤، فإن من الظاهر بداهة أن لبثه في البطن إنما هو بعد وصوله إليه، فلم ينقذه من ذلك إلا تسبيحه لله سبحانه وإنابته إليه) اهـ.**

فالشيخ الخليلي يؤيد رؤيته أيضاً بقوله الله تعالى (فلولا أنه كان من المسبحين، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) الصافات: ١٤٣-١٤٤ على اعتبار ذكر اللبث في بطن الحوت. هذا هو مجمل استدلال الشيخ الخليلي على ابتلاع الحوت ليونس عليه السلام بمعنى بلعه ومكثه في بطنه.

وهذا الوجه في الاستدلال غير مسلم به، وتعالوا بنا لدراسة الآيات:

قال الله تعالى: (فلولا أنه كان من المسبحين، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) الصافات ١٤٣-١٤٤ :

١. **أن (لولا) في هذا الموضع هي (لولا) الامتناعية**، جاء في شذور الذهب: (لولا: حرف يدل على امتناع شيء لوجود غيره، تقول : لَوْلاَ زَيْدٌ لأَكْرَمْتُكَ، تريد بذلك أن الإكرام امتنع لوجود زيد)اهـ وهذا ما نصت عليه كتب النحو (راجع شرح ابن عقيل على الألفية)، فـ(لولا) حرف امتناع لوجود،

أي يمتنع حصول الجواب لوجود الشرط، وإذا كان الجواب في صيغة الإثبات فإنه يكون غالباً مقترناً باللام، ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم:

- (لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللهِّ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (الأنفال:٦٨)

فلولا كتاب من الله لمسهم العذاب، فالعذاب ممتنع ولم يحصل، لوجود الشرط (كتاب من الله) فامتنع حصول العذاب.

- (لَوْلا أَنْ مَنَّ اللهُّ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) (القصص:٨٢)

فلولا حصول الشرط وهو منة الله عليهم، لخسف بهم، فجواب الشرط امتنع ولم يحصل.

- (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) (سبأ:٣١)

فلولا الذين استكبروا لكان ايمان الذين استضعفوا، أي بوجود الشرط (الذين استكبروا) امتنع الجواب (إيمان الذين استضعفوا).

- (لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ) (القلم:٤٩)

وهذه شبيهة تماماً بموضوعنا، وهي تتحدث عن نبي الله يونس عليه السلام، ولكنها كانت في البر، فلحصول الشرط (تدارك النعمة من الله) امتنع الجواب (النبذ بالعراء وهو مذموم).

وعليه يكون معنى قول الله تعالى بناء على أصول وقواعد الأساليب العربية التي وردت في القرآن الكريم وعرفت عند العرب: (فلولا أنه كان من المسبحين، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) الصافات ١٤٣-١٤٤، **أي لوجود الشرط وهو تسبيحه وعبادته وصلاحه امتنع حصول الجواب وهو (اللبث في البطن إلى يوم يبعثون)، وبذلك يتأيد ما ورد من تعبير قرآني دقيق وهو الالتقام بمعنى الإمساك بالفم أو الإطباق بالفم وليس البلع.**

أما الاستدلال بمجرد ذكر (اللبث في البطن) دون مراعاة للأساليب العربية البليغة، فلا يتناسب مع الأساليب الراقية التي يخاطبنا الله تعالى بها، والغريب أن هذا الوجه من الاستدلال قد طرح من قبل في الحارة العمانية من قبل بعض الكتاب بعد محاضرة الشيخ الخليلي في ٣/ ١٢/ ٢٠٠٧م، ولكن لم يتم الاستفادة منه والنظر فيه، وظلت تهمة التشكيك في قدرة الله هي اللغة السائدة في طرح هذه المسألة، .

وعليه من الظاهر أن فكرة ابتلاع الحوت لنبي الله يونس عليه السلام مما سرى إلى تفكير المسلمين من الإسرائيليات، وعلى ضوء ما جاء في التوراة حملوا عليه آيات القرآن، جاء في العهد القديم (سفر يونان ١٧/ ١): (وأما الرب فأعدّ حوتاً عظيماً ليبتلع يونان، فكان يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال).

وإذا كان الأمر كما ذكرنا ، لماذا جعل الشيخ الخليلي من هذه المسألة هي الدليل الدامغ على:

- التلاعب بالثوابت القرآنية

- التشكيك بقدرة الله تعالى.

- إنكار الخوارق (انظر: كتاب "العقل" للشيخ الخليلي (ص ٥٥-٦٦)؟!

فالمسألة لغوية صرفة، ليس مجالها إقحام صراعات وهمية بين العقل والشريعة، وإنكار المعجزات والخوارق والتلاعب بثوابت الشريعة وعدم التسليم بقدرة الله.

علم من الكتاب

وهي المسألة الثانية من المسائل التي شنع بسببها الشيخ الخليلي على مؤلفي كتاب "الإيمان"، واتهمهم بإنكار الخوارق والتشكيك بقدرة الله تعالى، فقال في ص٦٦ من كتاب "العقل" : (فإن دلالة النص القرآني عليه واضحة لا غموض فيها، ومحاولة لي ذلك النص ليتفق مع هوى أولئك إنما هي لا تعدو أن تكون تشكيكاً في قدرة الله سبحانه، الذي يختص من يشاء بماء يشاء من هباته) اهـ.

وأنا أستغرب من تحميل هذه المسألة كل هذا القدر من الأحكام القاسية دون مبرر، القضية أهون من ذلك بكثير، وإليكم التفصيل:

المسألة الثانية: عرش ملكة سبأ

قال الله تعالى: (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ، قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) النمل:٣٨–٤٠.

قال الشيخ الخليلي في كتاب العقل ص٦٧: **(على أن الحق سبحانه وتعالى عندما ذكر هذه القصة أسند هذا القول إلى الذي عنده علم من الكتاب، ونحن لا ندري ما ذلك الكتاب ولا نوع العلم الذي احتواه، ولكن نؤمن بأن الله سبحانه جعل ما في ذلك الكتاب من علم سبباً لهذا التمكين)** اهـ.

أولاً: إذن أساس المسألة يكمن في (الذي عنده علم من الكتاب) وقام بنقل عرش ملكة سبأ.

١. (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ)...هذه المفردات الواردة في الآية ليست طلاسم وأوفاق حتى نقول إنها لا تُفهم، فالله تعالى يقول في سورة الرعد: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) الرعد:٤٣، وكثير من المفسرين قالوا إنهم المؤمنون الذين عندهم علم الكتاب المنزل.

٢. لدينا مفردتان في قوله تعالى: (قال الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ) هما : (علم) و(الكتاب) هما مفاتيح فهم هذه الآية.

(العلم) البشري في القرآن الكريم: لا يخرج عن:

علم بالوحي الذي أنزله الله وبلغ بواسطة رسله

أو علم بالحياة الإنسانية ومفرداتها، الطبيعية والاجتماعية

أو يعني الاثنين معاً في بعض المواضع

- (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِير) البقرة:١٢٠

- (هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَـابِ وَأُخَـرُ مُتَـشَابِهَاتٌ فَأَمَّـا الَّـذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَـمُ تَأْوِيلَـهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِـخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ) آل عمران:٧

- (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) يونس: ٩٣

- (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) الإسراء: ٨٥

- (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً) مريم: ٤٣

- (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِـلَ صَـالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَـا إِلَّا الـصَّابِرُونَ) القصص:٨٠

- (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ) العنكبوت:٤٩

- (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَـوْمُ الْبَعْـثِ وَلَكِـنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) الروم:٥٦

- (يَرْفَعِ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) المجادلة:١١

إذن من كل هذه الآيات يتبين أن العلم البشري هـو علـم بـالوحي وعلـم بـالكون، وكلاهمـا علـوم يكتسبها الإنسان بالتعلم ، فهي ليست ذات طبيعة خوارقية أو طلسمية أو كما يتصورها البعض.

وبداية القدرة على اكتساب العلوم والمعارف كان مع أب الإنسانية آدم عندما أعطاه الله تعـالى القـدرة على تعلم العلوم والمعارف وتسميتها بأسمائها (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَـةِ إِنِّي جَاعِـلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَـةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَـمُ مَـا لاَ تَعْلَمُونَ، وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَـهُمْ عَـلَى الْمَلاَئِكَـةِ فَقَـالَ أَنبِئُـونِي بِأَسْـمَاء هَـؤُلاء إِن كُنـتُمْ صَادِقِينَ، قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ

فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ) البقرة: ٣٠-٣٣. فآدم تميز على الملائكة بأن عنده القدرة على توسيع معارفه ومداركه باستمرار والقدرة على توليدها، بينما الملائكة كائنات علومها محددة وهي كائنات مطيعة لما أمرها الله تعالى به.

أما (الكتاب) فيعني في استعمال القرآن الكريم:

١. الكتاب المنزل من عند الله

- (ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) البقرة:٢

- (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) البقرة:٤٤

- (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ) البقرة:٧٨

- (وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُواً وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) البقرة: ٢٣١

- (فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) آل عمران:١٨٤

- (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) آل عمران:١٨٦

- (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً) النساء: ٥٤

- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ) النساء:١٣٦

٢. أو معنى الكتابة، أي الشيء المكتوب

- (وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) النور: ٣٣

٣. أو الكتاب الذي تدون فيه أعمال العباد:

- (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) الكهف:٤٩

وعليه يكون معنى قوله تعالى: (قال الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ)

أي قال الذي لديه علم بالوحي أو علم بعلوم الكون أو لديه علم بهما معاً، قال الطاهر بن عاشور في "التحرير والتنوير" ج١٩ ص٢٧١: (و "الذي عنده علم من الكتاب" رجل من أهل الحكمة من حاشية سليمان).

وهذا العلم الذي علِمَه الذي عنده علم من الكتاب كما يقول الشيخ الخليلي في كتاب "العقل" ص٦٧: (نؤمن أن الله سبحانه جعل ما في ذلك الكتاب من علم سبباً لهذا التمكين) اهـ .

فهذا العلم كما أسلفنا هو علم يكتسب بالتعلم –سواء كان علم من الوحي المنزل أو من علوم الكون– هو السبب الذي مكنه –وهو الإنسان المتعلم– من أن يأتي بعرش ملكة سبأ (قبل أن يرتد إليك طرفك)، فهذا العلم وسع من المدارك وعلم من المعارف ما أمكن من القيام بنقل عرش ملكة سبأ، فهو بالفعل كان السبب في النقل.

وهنا ننبه على أمر هام جداً وهو أننا أمام عالم يعمل في بلاط سليمان عليه السلام، فالمسألة برمتها تنسب إلى هذا العالم لا إلى سليمان عليه السلام، وعليه ليس في الآيات القرآنية ما يشير إلى معجزة تنسب للنبي سليمان عليه السلام، حتى يقال بأن في الموضوع إنكار للمعجزات، إذن نحن أمام عمل علمي من قبل إنسان لديه ((علم من الكتاب)) وشرحنا بالتفصيل ما هو العلم وما هو الكتاب.

ثانياً: قال الله تعالى: (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) النمل:٤٠، فهذا العالِم البشري–فهو ليس جنياً أو ملاكاً وكذلك ليس نبياً– قال لسليمان عليه السلام إن لديه من المقدرة العلمية (علم من الكتاب) على نقل عرش ملكة سبأ قبل ارتداد الطرف. هنا كان للمفسرين آراء في معنى (ارتداد الطرف):

– يرى عدد من المفسرين ومنهم الشيخ القطب أن هو كناية عن (استقصار المدة، كما تقول: افعل كذا في لحظة وفي رد طرف، تريد السرعة لا الحقيقة) اطفيش، همیان الزاد، ج ١٢ ص ١٧٠.

– ويرى آخرون أنه على حقيقته من حيث النقل في تلك المدة الضئيلة جداً من الزمن (قبل أن يرتد إليك طرفك).

وعلى كل حال فعلى كلا التفسيرين لمعنى (ارتداد الطرف) فقد تم نقل العرش (بعلم من الكتاب) والعلم معروف معناه والكتاب كذلك، ولم يتم النقل بطلاسم وخرافات وخزعبلات من أوفاق وما شاكلها.

أما من ناحية الترجيح لأحد القولين، فأنا أرى صواب الرأي الذي يذهب إليه الشيخ القطب، بأن ارتداد الطرف كناية عن السرعة، ولا يراد به حقيقته، وذلك لعدة اعتبارات:

١. لأن دلالات اللغة العربية تدل عليه، ولذا جاء في كلام العرب (يقال: أَسْرَعُ من طرْفةِ عين) اهـ، لسان العرب، مادة "طرف"، وهذا بالضبط ما قاله العالم في بلاط سليمان، فهو يكني عن السرعة التي يستطيع بها الإتيان بعرش ملكة سبأ قبل ارتداد الطرف، وهذا سائغ في اللغة.

٢. ما قام به هذا العالم كان اعتماداً على (علم من الكتاب) وبينا قبلُ طبيعة العلم وطبيعة الكتاب، فهي لا تخرج عن النطاق الطبيعي لسنن الحياة، هذا هو الأصل، ولم تشر الآيات القرآنية إلى طبيعة غير معهودة لهذا العلم حتى يمكن أن نقول بها.

أما ما قاله بعض الفقهاء بأن المقصود من (علم من الكتاب) هي **القوى الروحية التي تمتع بها ذلك العالم في بلاط سليمان، فلا دليل عليه**، فما هو الدليل من القرآن أو من الأحاديث النبوية على ذلك؟ ثم نتساءل: ما هي هذه القوى الروحية، ما هو كنهها؟، وما هي طبيعتها؟ حتى يمكن حمل الآية عليها... هذه هي رؤيتي حول هذه المسألة، وهي لا تعدو أن تكون مسألة رأي عادية جداً، والغريب أن يقوم الشيخ الخليلي برفع سقفها إلى أعلى حد ممكن، ويقحم قضية قدرة الله تعالى إقحاماً في الموضوع بلا داع، فقال في ص٦٦ من كتاب "العقل" : (**فإن دلالة النص القرآني عليه واضحة لا غموض فيها، ومحاولة لي ذلك النص ليتفق مع هوى أولئك إنما هي لا تعدو أن تكون تشكيكاً في قدرة الله سبحانه، الذي يختص من يشاء بماء يشاء من هباته**) اهـ.

ما الداعي إلى القول بأن من لا يقبل فكرة أن النقل تم بطلاسم أو بقوى روحية أو غيرها من الأمور بأنه يشكك في قدرة الله تعالى؟! طالما:

- أن النص القرآني ذاته، تحدث عن شخص (عنده علم من الكتاب)، والعلم معروف والكتاب معروف.

- وكذلك نُسب هذا النقل لذلك العالم ولم يُنسب لسليمان عليه السلام أنه قد قام به، فلسنا أمام معجزة نبي.

- وكذلك التعلق بـ(ارتداد الطرف) قالها علماء معتبرون بأن المقصود بذلك الكناية عن السرعة لا حقيقة (طرف العين)، وهذا الأسلوب سائغ في اللغة العربية.

فإذن ما قاله مؤلفا كتاب "الإيمان" لا يخرج عن رأي معتبر له وجاهته واحترامه، ورفع الشيخ الخليلي لسقف القضية لدرجة التشكيك في قدرة الله تعالى هو من الغلو غير المقبول.

أما عن رأي مؤلفي كتاب "الإيمان" حول القضية فأنقله من كتابهما، حيث قالا:

ص ١٢٢-١١٣: (حيث إننا ارتددنا إلى الخلف لما فهمنا علم "الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ" بأنه كتابات طلسمية تنقل الأشياء بها، وكأن علم الكتاب الذي يشير إليه القرآن الكريم هو علم الطلسمات والخزعبلات والخرافات، لا علم البناء الحضاري والوعي المعرفي، لم نأخذ حقيقة الانتقال، وسعينا إلى فك رموز هذه الآية بالبحث العلمي العقلي، بل قرأناها بعقل خرافي وهمي، وقلنا: إن هذا العلم هو علم الأوفاق والطلسمات. وأخذنا نكتبها ليل نهار لقرون متعاقبة، فلم ينتقل شيء، بل لم يتزحزح قيد شعرة.

وكان يجدر بنا أن ندرس تلك الأوضاع دراسة حضارية واعية، تربط أسباب النهوض الحضاري بمسبباته، وبالتالي كان يمكن أن يشكّل لنا نقلة نوعية في التفسير التأريخي لحركة الأمم وخط سيرها الحضاري، وأفضل ما قيل في تفسير ه هذه الآيات والذي يتفق مع منطق العقل ومقتضيات الواقع؛ هو بأن عرش ملكة سبأ –وهو الكرسي الذي تتربع عليه أثناء جلوسها– كان محمولاً لديها، ولما كانت في طريقها إلى سليمان عليه السلام أراد أن يريها قدرته عليها وعلى مملكتها بأخذ عرشها، وأخذ شيء مهم من الممالك كان يعدّ قدياً رمزاً لرغبة السيطرة عليها، ولا ريب أن سليمان لم تكن رغبته في السيطرة لذات الملك، وإنما لدخول الناس في دين الله أفواجاً.

وبينما هذه الملكة تنتظر المثول بين يدي سليمان أعظم ملك آنذاك، كان هو يتناقش مع حاشيته فيمن يستطيع أن يحقق له هذا المطلب، فقال العفريت: أنا أستطيع أن أتحايل عليه حتى آتيك به قبل نهاية هذا المجلس.

لكن هذا لم يكن يحقق رغبة سليمان في إبراز هيبته، إذ إن هذا المجلس قد يستغرق وقتاً طويلا إلى آخر النهار، وربما تبعته جلسات أخرى في أيام متوالية، فهو مجلس يتداول فيه فتح مملكة سبأ العظيمة آنذاك، ولابد أنه يستغرق وقتاً من الزمن ليس هيّناً.

إلا أن سليمان عليه السلام يريد أسرع من ذلك العرض الذي تقدم به العفريت؛ أولاً لأن الوقت بات وشيكاً، وثانياً لأنه يريد إيقاع الهيبة في نفسها وحاشيتها بأشد ما يمكن من الضغط النفسي.

حينها قام رجل عنده علم من الكتاب، أي أنه درس طبائع الأمور، وحصّل أساليب فنية من دراسات علمية سابقة مكتوبة، وحصل له بذلك معرفة بطبيعة مملكة هذه المرأة، وحكمة في استلال هذا العرش من بين حاشيتها دون أن تعلم هي بذلك، ومن يقف على أساليب المخابرات بين الدول يعرف القدرات الفائقة على مثل هذا العمل، والذي ولا ريب له ما بعده في مملكة سليمان، فهو ينبئ عن قدرات ملكه الفائقة، ولذلك توجه إلى ربه عز وجل بالشكر والاعتراف له بالفضل)اهـ.

وتعليقاً عليه أقول:

- أثني على جهدهما وشجاعتهما في طرح المسألة، وتشجيع الآخرين على بحثها، ويحسب لهما أنهما من الرواد الأوائل في طرحها، بدلاً من تفسيرات قائمة على خزعبلات وطلاسم وقوى روحية لا دليل عليها لا من كتاب ولا من سنة ولا من عقل.

- أتفق معهما في كون الذي (عنده علم من الكتاب)، كان علمه قائماً على مفردات الوحي والكون.

- اختلف معهما في تعيين طريقة معينة لنقل عرش ملكة سبأ، وأرى الاكتفاء بالقول إن النقل قد جرى (بعلم من الكتاب) وهذا العلم قائم على علم سنني طبيعي، أما الطريقة فقد أتفهم أنهما قد حاولا تقديم مثال على ذلك بما يشبه العمل المخابراتي وذلك لتقريب الفكرة إلى أذهان الناس، لكن لا نستطيع أن نبتكر طريقة معينة من أذهاننا دون وجود بحث تاريخي معمق في المسألة، هذه رؤيتي المتواضعة في ذلك، ولهما رؤيتهما، والمسألة واسعة.

الفصل الخامس

كرامات وكرامات

ولن تجد لسنة الله تبديلاً

قال الشيخ الخليلي في ص ٩٧ من كتاب "العقل" : (لقد حاول هؤلاء في مجادلاتهم أن يوهموا الناس أنهم يستندون فيما عولوا عليه على ما دل عليه القرآن من أن سنناً لا تتبدل، وعدوا ما هو خارق للعادة خارجاً عن سنن الله تعالى المألوفة، فلذلك أنكروا الخوارق وأنت إذا رجعت إلى القرآن الكريم أدركت ببصيرتك أن تصريف الله تعالى للوجود لا ينضبط بسنن خاصة يحصيها البشر إدراكاً وعلماً، فكم من قضية ذكرها القرآن لم تجر وفق السنن الكونية المألوفة للبشر) اهـ.

ثم أخذ يسرد القصص التي أوردها القرآن الكريم كحمل امرأة إبراهيم وهي عجوز وغيرها.

ثم قال في ص ٩٨ من نفس الكتاب: (وبتأمل الآيات التي دلت على عدم تبدل سننه تعالى من خلال سياقها، يتبين لكل ذي بال أن تلك السنة هي إزهاق الباطل بالحق، وقطع دابر أهله بظهور المحقين منهم، هذا ما نجده في قوله تعالى: "وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً"

وقوله "لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً"

وقوله: "وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً * اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً"

وقوله: "وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً) اهـ

هذه هي رؤية الشيخ الخليلي لموضوع السنن والنواميس الكونية، وهي تتلخص في (أن تصريف الله تعالى للوجود لا ينضبط بسنن خاصة يحصيها البشر إدراكاً وعلماً، فكم من قضية ذكرها القرآن لم تجر وفق السنن الكونية المألوفة للبشر) اهـ، وبناء على هذا الكلام يمكن قبول أي قصة أو رواية يرويها الناس مخالفة لما أدركه الناس من دراسة قوانين الحياة وفقاً لاعتبارين:

١. أن الناس يصعب عليهم إدراك نواميس الوجود

٢. أن القرآن الكريم ذكر قضايا لم تجر وفق السنن المألوفة للبشر.

الآن أقول:

بأن وجود السنن والنواميس الكونية وجريانها في الحياة بأمر الله هو ما نطق به كتاب الله تعالى، فالله تعالى يقول (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُون) يس:٣٧–٤٠، فهذه الحركة الكونية دائبة مستمرة ثابتة ببقاء هذا الكون، ولا ينفرط عقدها إلا مع الانقلاب الكوني الهائل الذي يحصل عند القيامة، ولذلك سماها القرآن (آية).

ولذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما كسفت الشمس في عهده يوم مات ابنه إبراهيم، وظن بعض الناس إن الشمس كسفت لموت إبراهيم نبههم إلى هذه الحقيقة القرآنية الكونية، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عزَّ وجلَّ لا يخسفان لموت بشر ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله) رواه الربيع (١٩٧).

في حين أن ما يرويه الناس من قصص الكرامات كان بعيداً كل البعد عن هذا النسق والطرح القرآني والنبوي، فقد ذكروا من كرامات الإمام ناصر بن مرشد رضي الله عنه: (إن ليلة مولده رؤيت النجوم كأنها تتهاوى بعضها على بعض فارتاع الناس لذلك) تحفة الأعيان للسالمي ج٢.

الاعتراض الأول:

– واعترض الشيخ الخليلي على مبدأ ثبات السنن الإلهية على اعتبار أن السياق في قول الله تعالى: (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) دل: (على عدم تبدل سننه تعالى من خلال سياقها، يتبين لكل ذي بال أن تلك السنة هي إزهاق الباطل بالحق، وقطع دابر أهله بظهور المحقين منهم) اهـ أي أنه مقصور على سنة واحدة وهي إزهاق الباطل وظهور الحق، فهذه كتب لها الثبات فقط دون غيرها!!.

وهذا الاعتراض في غير محله للأسباب التالية:

١. أنه لم يقم على سبر النصوص في الكتاب العزيز في الموضوع، واقتصر على ثلاثة مواضع فقط ورد فيها (فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِّ تَبْدِيلاً) (وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِّ تَحْوِيلاً)، في حين أن الصوب: أن نقول إن ما ورد من سنن في هذه السياقات الثلاثة هو من باب المثال لا الحصر.

٢. وذلك لأن هناك سياقات كثيرة أخرى وردت دالة على ثبات السنن والنواميس، من ذلك:

- **أطوار حياة النبات**: قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) الأنعام:٩٩ .

فهذه السنن في النبات تسير سيرها المعتاد بحفظ الله ورعايته، وسماها القرآن آيات، ودعا المؤمنين للاعتبار منها، لذلك عُدت من القصص الغريبة في هذا الشأن ما روي من كرامات الإمام الوارث بن كعب رضي الله عنه (أنه نبتت شجرة ليمون من عود يابس من مجزه). انظر: تحفة الأعيان للسالمي.

- **نزول المطر من السحاب**: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ) النور:٤٣.

فالمطر ينزل من السحاب، وهذه سنة ثابتة مستمرة أودعها الله في خلقه، فهل يا ترى نقبل من يأتينا ويقول إنه رأى مطراً ينزل بلا سحاب على اعتبار؟!.

- **اختلاف الليل والنهار**: (وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ) المؤمنون:٨٠، (يُقَلِّبُ اللهُّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَار) النور: ٤٤ وهذا الاختلاف يسري في كل الأرض حتى على تلك المناطق التي تعيش لأشهر في نهار دائم وأشهر أخرى في ليل دائم.

- **تحليق الطيور في السماء**: (أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) النحل:٩٧

- **جعل الليل سُكنى والنهار مبصراً** (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) النمل: ٨٦

- **النوم بالليل وابتغاء المعاش بالنهار**: (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) الروم:٢٣

- **جعل الإنسان أزواجاً وسكن كل منهما للآخر**: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) الروم:٢١

- **جعل قدرات للسفن للجريات في البحر**: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِّ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) لقمان:٣١، وذلك بما ركبه الله تعالى من خصائص للمواد يكتشفها الإنسان ببحثه في الكون.

وهذه السنن سماها الله تعالى (**آيات**) ودعا إلى التفكر والنظر فيها لاكتشافها والاعتبار منها، وهذه (الآيات) سائرة في الخلق بحفظ الله وعنايته وهي قائمة بأمر وحفظه وعنايته لم ينلها النسخ والتبديل، مما يدل أن قوله تعالى (لَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِّ تَبْدِيلاً) وقوله: (وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِّ تَحْوِيلاً) أدلة على ثبات السنن والنواميس الكونية، وما جاء في سياقات تلك الآيات من ذكر (لإحقاق الحق وإزهاق الباطل) هي أمثلة فقط على السنن الكونية المستقرة الثابتة، وليس حصراً لها.

٣. أن كلمات الله لا تتبدل: (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِّ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِّ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) يونس: ٦٢-٦٤

ومن ضمن هذه الكلمات خلق الله وسننه: (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِّ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ) النساء: ١٧١ فالمسيح ابن مريم (كلمة الله) وهو من مخلوقات الله، فالخلق بنواميسه وسننه داخل ضمن ((كلمات الله التي لا تتبدل)).

بذلك نخلص بنتائج هامة جداً:

- أن آيات القرآن الكريم ناطقة بثبات السنن الكونية بحفظ الله وعنايته (إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً) فاطر:٤١.

- أن قوله تعالى (وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً، سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً) دليل على ثبات السنن، وما ورد في السياق

من سنة إحقاق الحق وإزهاق الباطل هو مثال على ثبات السنن لا على حصرها في تلك السنة، وذلك لورود عشرات السنن الكونية التي أوردها القرآن واعتبرها من (الآيات) في الكون.

– أن الخلق وسننه داخل ضمن ((كلمات الله التي تتبدل))[٥].

---

٥ نقاش للرقيشي الإزكوي مع (الذات المحصنة):

الرقيشي: شكراً على التواصل، وللإجابة عن تساؤلاتك أقول:

الذات المحصنة:

– (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (٣٨).(الأنفال).

– (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) (الحجر).

– (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) (الإسراء).

– (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) (الكهف).

– (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) (الأحزاب).

هل يصح لنا إدخال كلمة (آية) محل كلمة (سنة) فتحرخ لنا بذات المعنى؟

الرقيشي: هذه السنن المذكورة في هذه الآيات خلقها الله تعالى، وهو الذي يرعاها ويحفظها

وهذه السنن اجتماعية بالدرجة الأولى، وفي ذات الوقت لها أثر طبيعي ملموس ومحسوس.

وهذه (السنن الاجتماعية) لا شك أنها داخلة في الخلق، والخلق كله من آيات الله، النتيجة المنطقية أن السنن معبرة عن معنى الآيات.

أما عن قولك: هل يصح لنا إدخال كلمة (آية) محل كلمة (سنة) فتحرخ لنا بذات المعنى؟

أخي الكريم نظرية الترادف هذه أزحها من ذهنك تماما عند التعامل مع القرآن الكريم، فكل تعبير وإن اتحد مع تعبير في بعض أوصافه لا يغني أبداً عن التعبير الآخر، وهذا من أسرار التعبير والتركيب القرآني، فتعبير (سنة الله) في معناه اللغوي يفيد معنى الطريقة المتبعة، لكنه لا يغني أبداً عن معنى (آية) في مواضع أخرى وإن اتحد معه وتشابك في مناطق معينة.

(فسنة الله) عبر بها في الاصطلاح القرآني عن سنن اجتماعية، وهذه السنن بمجملها في دائرة الخلق، (وآيات الله) عُبر بها عن:

– آيات الله التشريعية

– آيات الله التكوينية (المعتادة منها وغير المعتادة) كما هو مصطلح مؤلفي كتاب "الإيمان"

فالسنن الاجتماعية داخلة ضمن آيات الله التكوينية، لذلك كنت أقول النواميس الكونية: الطبيعية والاجتماعية.

أما عن قولك : ألا نفهم من سياق الآيات أن الله يطمئن الرسول و يعلمه بأن لا تكترث لهم إن كذبوك و إن عارضوك و خالفوك و استهزؤوا بك، فكذلك فعل الذين من قبلهم، حتى أتاهم عذاب الله أو حل عليهم غضبه، أو نصر الله رسله و عباده على أعدائه؟ فهذه هي سنة الله، ينصر عباده بعدما تكذبهم أقوامهم و تؤذيهم و تسخر منهم، و لقد شدد الله على هذا الأمر في سورة الحج حين

قال:" من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا و الآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ). أي أن سنة الله هي نصر عباده فلا تكن في شك من ذلك أبدا.

الرقيشي: لا غبار على هذا الكلام، وهو تفسير رائع لهذه السنة والغرض منها، فلا أرى تعارضاً هنا بين ما تقوله وما أقول.

الذات المحصنة: و جميل أنك أوردت قصة سيدنا عيسى عليه السلام –رغم أن هناك الكثير من الأمثلة الأخرى و سنأتي على ذكرها لاحقا– ، و قلت أن خلق عيسى إنما هو آية و الآية من ضمن السنن الثابتة، فكيف نفسر خلق عيسى؟ لقد ذكره الله بأنه آية، (و جعلناها و ابنها آية و آويناهما إلى ربوة ذات قرار و معين). هل خلق الله لعيسى هو من سنن الله التي لا تتبدل أم أن خلقه مختلف عن خلق البشر و كان خلقه معجزا و خارقا للعادة؟

و أنت ذكرت بأن عيسى هو كلمة الله، و أن الكلمة من مخلوقات الله الخاضعة لنواميسه و قوانينه، فكيف إذن تفهم معنى الكلمة؟ هل جرى خلق عيسى تحت قانون خلق البشر و سنة الله المعهودة في ذلك؟

الرقيشي: نعم خلق عيسى عليه السلام آية، ولكن أنا أوردته في تفسير معنى (كلمات الله التي لا تتبدل) على اعتبار أن عيسى عليه السلام هو (كلمة الله) كما نطق القرآن، وهو مخلوق بلا شك، فعيسى عليه السلام نموذج ومثال على كلمات الله التي لا تتبدل، فالخلق بأسره بما فيها نواميسه الطبيعية والاجتماعية داخل ضمن كلمات الله (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّ لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً) الكهف: ١٠٩

أما عن تفسير خلق عيسى المسيح عليه الصلاة والسلام فلا يملك أحد جواباً على ذلك، فلا القرآن بينه ولا استطاعت المعارف البشرية كشفه، كل ما تملكه البشرية أن تقول إن خلقه آية من آيات الله، وهذه الآية من عند الله كما أن خلق جميع البشر الآخرين أيضاً من عند الله، لا إشكال في ذلك، فخلق جميع البشر آية أيضاً (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ {٢٠} وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) الذاريات: ٢٠-٢١

فخلق جميع الناس آية، وخلق المسيح آية، وكل من عند الله، أحدهما يمثل الآية العامة والآخر آية خاصة. وهذه كلمات الله التي لا تتبدل، فلا المسيح إله ولا جزء من إله ولا هو ابن الله كما افترى المفترون عبر التاريخ.

الذات المحصنة: و قبل أن أختم هذا الجزء، أطالبك بالدليل على قولك:" وهذه السنن سماها الله تعالى (آيات) ودعا إلى التفكر والنظر فيها لاكتشافها والاعتبار منها". ما الدليل أن الله سمى هذه السنن آيات؟ آتيني بتفسير لغوي أو مفهوم سياق من القرآن يوحي بأن سنن الله – كما تزعم أنت – كالشمس و القمر و الليل و النهار سماها الله آيات.

الرقيشي: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) البقرة:١٦٤

قال الراغب الأصفهاني: (...وسنة النبي: طريقته التي كان يتحراها، وسنة الله تعالى: قد تقال لطريقة حكمته، وطريقة طاعته، نحو: {سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا} <الفتح/ ٢٣>، {ولن تجد لسنة الله تحويلا}) اهـ ومما يدخل في طريقة حكمته سبحانه الخلق بنواميسه الطبيعية والاجتماعية

وفي لسات العرب: (وسُنَّةُ الله: أَحكامه وأَمره ونهيه؛ هذه عن اللحياني. وسَنَّها الله للناس: بَيَّنها. وسَنَّ الله سُنَّة أي: بَيَّن طريقاً قوياً.) اهـ

الاعتراض الثاني:

قال الشيخ الخليلي في ص ٩٧ من كتاب "العقل": (**وأنت إذا رجعت إلى القرآن الكريم أدركت ببصيرتك أن تصريف الله تعالى للوجود لا ينضبط بسنن خاصة يحصيها البشر إدراكاً وعلماً، فكم من قضية ذكرها القرآن لم تجر وفق السنن الكونية المألوفة للبشر**) اهـ، ثم أخذ يسرد القصص التي أوردها القرآن الكريم كحمل امرأة إبراهيم عليه السلام وهي عجوز وغيرها.

هذه هي رؤية الشيخ الخليلي لموضوع السنن والنواميس الكونية، وهي تتلخص في (**أن تصريف الله تعالى للوجود لا ينضبط بسنن خاصة يحصيها البشر إدراكاً وعلماً، فكم من قضية ذكرها القرآن لم تجر وفق السنن الكونية المألوفة للبشر**) اهـ، وبناء على هذا الكلام يمكن قبول أي قصة أو رواية يرويها الناس مخالفة لما أدركه الناس من دراسة قوانين الحياة وفقاً لاعتبارين:

١. أن الناس يصعب عليهم إدراك نواميس الوجود

٢. أن القرآن الكريم ذكر قضايا لم تجر وفق السنن المألوفة للبشر.

وكلام اللحياني ينصرف لمعنى سنن الله التشريعية الواردة في القرآن كالأمر بالإحسان والعدل وإيتاء ذي القربى والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي.

وكما قلتُ سابقاً :

هذه السنن المذكورة في هذه الآيات خلقها الله تعالى، وهو الذي الذي يرعاها ويحفظها

وهذه السنن اجتماعية بالدرجة الأولى، وفي ذات الوقت لها أثر طبيعي ملموس ومحسوس.

وهذه (السنن الاجتماعية) لا شك أنها داخلة في الخلق، والخلق كله من آيات الله، النتيجة المنطقية أن السنن معبرة عن معنى الآيات.

الذات المحصنة: إذن آيات الله الكونية المعتادة ثابتة، و آيات الله غير المعتادة يجب أن تدخل أيضا في نطاق الثبوت، فلماذا تبقي على ثبوت الآيات المعتادة و تلغي ثبوت الآيات غير المعتادة؟

أليس خلق سيدنا عيسى آية غير معتادة و خارقة للعادة و معجزة؟ فكيف تلغي عنها صفة الثبوت ما دام عيسى هو كلمة الله و كلمات الله لا تتبدل؟ أي أن ما حصل لسيدنا عيسى – و هو غير المعتاد – سنة ثابتة أيضا (حسب تفسيرك).

ألا يقودنا هذا إلى إمكانية حدوث هذه المعجزة لأي بشر آخر يختاره الله بما أن هذه السنة و هذا النوع من الخلق يعتبر سنة ثابتة لا تتغير؟

الرقيشي: خلق عيسى عليه السلام سنة ثابتة مستقرة في حقه، وهي من آيات الله، ومن كلماته التي لا تتبدل.

بمعنى أن هذه السنة في الخلق التي لم يعهدها الناس ولم يألفوها دليل قاطع بين أنه عليه الصلاة والسلام عبد لله ليس إلها ولا ابناً لإله، هذا الذي تفيده هذه السنة وهذه الآية، وهذا وجه ثباتها.

ومصطلح خارق للعادة هذا ابتكره الفقهاء، وإلا فالآية في القرآن عبر بها عن كل الآيات، من الآيات التي أيد بها الرسل، والآيات الكونية الأخرى، علينا أن نفهم الآيات وفقاً لخطاب القرآن ولغة القرآن لا بالنظر لأي اعتبارات أخرى.

- نناقش الآن النقطة الثانية التي أثارها الشيخ الخليلي في موضوع قصص الكرامات المخالفة للسنن الكونية وهي: أن القرآن الكريم ذكر قضايا لم تجر وفق السنن المألوفة للبشر.
ومن أمثلة ما يذكرونه في ذلك: قصة أصحاب الكهف الذين ذكرهم القرآن الكريم.

ولمناقشة هذه النقطة أقول:

١. قبل كل شيء يجب أن لا نقبل مثل هذه قصص الخوارق عموماً إلا من طرق لا يحوم حولها شك أو ريب في إثباتها، كأن ترد في القرآن الكريم، ودلالتها على المراد واضحة لا تقبل نظراً آخر، وهذا الاشتراط لأجل أننا أمام سنن ونواميس قطعية الثبوت كونياً، فما يخالفها معبراً عن سنن أخرى يجب أن يثبت بنفس الطرق.

٢. لماذا يستدل بمثل هذا القصص القرآني لتثبيت فكرة فوضى الحياة وإمكانية حصول أي شيء بعيداً عن سنن الحياة؟!، فمن حصلت لهم مثل هذه الأشياء في الأزمنة الغابرة سرت عليهم كل سنن الحياة الأخرى، فمنهم من أوذي ومنهم من قُتل، ولنعتمد القرآن الكريم معياراً في إثبات مثل هذه القصص التي حصلت في الأزمنة الغابرة، ولنتساءل كم نسبتها بالنسبة إلى سنن الحياة الأخرى؟، الجواب: أنها لا تمثل حتى (٠.٠٠١ ٪)، فهي ضئيلة جداً بالنسبة لحركة سنن الحياة، **فلماذا تجعل هي الأصل وسنن الحياة الأخرى (التي تمثل الأغلبية الساحقة) هي الاستثناء؟**، أليس ذلك قلباً للحقائق؟!، مع العلم أن هذه القصص لا نرى فيها سوى سنن أخرى من عند الله، فكلها من عند الله، سواء فهمناها أو لم نفهمها.

٣. وأخيراً هناك ملحظ قد لا ينتبه إليه الكثيرون، وقد قاله الشيخ الخليلي يوماً ما (**مع أن الله سبحانه خلق الخلق، وجعل لخلقه سننا لا تتبدل حتى يرث الله الأرض وما عليها، وما يقع من الخوارق التي قد تكون رأي العين خارجة عن هذه السنن، فإنما ذلك يرجع إلى أمر الله سبحانه عندما يريد أن يتعطل شيء من السنن في قضية معينة، مع أن هذه الحالة لا يمكن أن يقاس عليها، وهي حالات في عهد النبوات لا يمكن أن تتكرر مرة أخرى**) اهـ "إعادة صياغة الأمة" ص٩٤، للشيخ الخليلي

أي أن **عهد الخوارق الذي وجد في الأمم السابقة قد انتهى بنزول القرآن الكريم، وأن القرآن بداية عهد للبشرية تعمل فيها سنن الخلق وأن الخوارق قد ولى عهدها**، لذلك ففي العهد القرآني عندما كان المشركون والمعاندون يطالبون بالخوارق كان القرآن يحيلهم إلى آيات الله التشريعية في كتابه والتكوينية في الخلق، قال الله تعالى:

- (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفاً) الإسراء:٥٩، هذه الآيات تدل بشكل واضح على عهد جديد تربى فيه الإنسانية على الاهتداء بآيات الله التشريعية والتكوينية بعيداً على خوارق لم تمنع من عاينوها أن يكفروا.

- (وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ) يونس:٢٠

- (وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ الله وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) العنكبوت:٥٠-٥١.

هنا يأتي الجواب على طالبي الآيات غير المعتادة بالاكتفاء بآيات القرآن التي تتلى عليهم

- (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورا، وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِالله وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً) الإسراء:٨٩-٩٣.

فكان جواب الرسول الكريم للمعاندين من طالبي الخوارق هو (سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً)، أي أن الرسول عليه السلام بشر اختص بالرسالة لا تخرق له سنن الكون، فهو صلى الله عليه وسلم جاهد الكفار والمنافقين وأوذي في الله، وآيات الله المنزلة عليه كافية وشافية، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

- (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) هود: ١٢

- (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) الرعد: ٧

- (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ، الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) الرعد: ٢٧-٢٨

- (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً، أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً، انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً، تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً، بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً) الفرقان: ٧-١١

نخلص من هذه المناقشة:

- أن ما ورد في قصص وقعت لبعض الصالحين في الأزمنة الغابرة والتي قصها علينا القرآن الكريم لا تمثل سوى جزء يسير جداً من تاريخ الإنسانية، بحيث تمثل الاستثناء الذي لا يقاس عليه، وتبقى لسنن الحياة التي تسير برعاية الخالق وحفظه الحركة المستمرة الدائبة.

- آيات القرآن ناطقة بأن عهد الخوارق التي وقعت في الأمم السابقة قد انتهى بنزول القرآن الكريم، وبدأ عهد للإنسانية في التعامل مع آيات الله التشريعية والتكوينية.

أما ما ذكره الشيخ الخليلي في ص ١٤٤ من كتاب "العقل": **(ليس في الكتاب العزيز ما يدل على طي صفحة الآيات في عهد هذه الأمة أو اختصاص ذلك بالأمم السابقة، إذ ليست الآيات الكونية مرهونة بالتحدي وتأييد الرسالات، وإنما هي إكرام من الله سبحانه يكرم به من يشاء من عباده، ولله تعالى الخلق والأمر، وإنما المنفي في القرآن الكريم هو الإرسال بالآيات-أي قرن الرسالة بالمعجزات الكونية- وفي ذلك رحمة بهذه الأمة، لأن اقتران الرسالات بالآيات الكونية سبب لاستئصال الأمم عندما تكفر بها، كما كان ذلك في قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وآله)** اهـ

هذه رؤية الشيخ الخليلي، والذي أراه أنها رؤية بعيدة عن الصواب للاعتبارات التالية:

١. أن عدم تأييد الرسالة الخاتمة بالمعجزات الحسية، وحسم القرآن لهذه المسألة بالإحالة إلى آيات الله التشريعية والتكوينية، دال على طي صفحة الخوارق في الإنسانية بنزول القرآن، بينما كانت الرسالات في السابق تؤيد بالآيات والمعجزات، ولعلم الكفار بهذه الحقيقة وخاصة مما علموه من أهل الكتاب ومن التاريخ سألوا النبي عليه السلام الخوارق فلم يجبهم سوى بـ (سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً

رَّسُولاً)، وكان جواباً حاضراً يتلخص في (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ)، فإذا كان الرسول الخاتم ومن بعث للعالمين بشيراً ونذيراً لا يجيب الكفار الذين يسألونه أن يأتيهم بالخوارق سوى بـ((سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً))، نعم (بشراً رسولاً)... في حين أن قصص الكرامات من بعد صورت لنا شخصيات لا تقل في خارقيتها عن الشخصيات الكرتونية!!، فمنهم من ينسب إليه التحليق في السماء ومنهم من ينسب إليه معرفة الغيب ومنهم من تنسب إليه قوى خارقة تمكنه من خرق الأرض وبلوغ الجبال طولاً...الخ؟!.

٢. قول الشيخ الخليلي (إذ ليست الآيات الكونية مرهونة بالتحدي وتأييد الرسالات، وإنما هي إكرام من الله سبحانه يكرم به من يشاء من عباده، ولله تعالى الخلق) اهـ لا يسلم به، فغرض التحدي في المعجزات ليس هو الهدف والمقصد الأوحد للآيات، هو مجرد تفسير معين للمعجزات رآه البعض، وهناك تفسيرات متعددة للآيات (المعجزات) التي يؤيد بها الرسل، فمثلاً يقول تعالى: (وَمَا نُرْسِلُ بِالآياتِ إِلا تَخْوِيفاً) الإسراء:٥٩ فأحد أغراض الآيات تخويف من لا يجدي معهم سوى هذا الأسلوب، ويقول تعالى: (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهَّ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً) الكهف: ٢١، فآية أهل الكهف كانت لأجل أن يرسخ في أذهان الناس أن الساعة لا ريب فيها، وعليه فلا أرى تفسير ظاهرة الآيات بالتحدي هو المسلك الوحيد لفهمها.

ولما فرغ الشيخ الخليلي من تقرير أن غرض المعجزات هو التحدي، رأى أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يؤيد بغير القرآن من المعجزات الحسية في مقام التحدي، لكن يمكن أن يكرم الله من شاء من عباده بما شاء (إذ ليست الآيات الكونية مرهونة بالتحدي وتأييد الرسالات، وإنما هي إكرام من الله سبحانه يكرم به من يشاء من عباده) اهـ، فالشيخ الخليلي يفرق بين أمرين:

- أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤيد بالخوارق في مقام التحدي
- ولكن يمكن أن يؤيد بها في غير مقام التحدي، فالله يكرم من يشاء بما يشاء.

وهذا التفسير لعدم تأييد النبي عليه السلام بالآيات الحسية لم يقم عليه دليل، لأن القرآن يذكر في صراحة أن منع التأييد بالآيات مرده أن الناس في الأزمنة الغابرة لم تؤد بهم المعجزات الحسية بهم إلى

الإيمان برسالات الرسل (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفاً) الإسراء:٥٩

وفي رأيي أن التفسير السابق في تأييد النبي عليه السلام بالمعجزات الحسية محاولة للتلفيق بين الصراحة القرآنية في عدم تأييد النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات الحسية، وروايات -تدور حولها عشرات التساؤلات- رويت في إثبات تلك المعجزات!!، فالقرآن كان حاسماً في هذه القضية، وتلك الروايات حاولت أن تخترق ذلك الحسم.

لنأخذ مثالاً على ذلك قوله تعالى:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُوراً، وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً) الإسراء:٨٩-٩٣

فهذه الآيات تحكي مطالب الكفار للنبي عليه السلام بأن يأتيهم بمعجزات حسية مثل ((أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ))، فأُمر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام أن يجيبهم بـ (سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً)، أي أنا بشر لا أملك هذه القدرات، وإنما أنا رسول من عند الله أبلغكم رسالاته،

ولم يقل لهم: نحن الآن في مقام التحدي لا أملك الإتيان بالآيات الحسية، وفي مقام الإكرام سوف تتحقق كل هذه الطلبات.

وأحد هذه الطلبات التي أمر النبي عليه السلام بأن يجيب عنها بـ ((سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً)) هي العروج إلى السماء؛ جاءت من بعد روايات ما يسمى بالمعراج التفت على هذا الحسم القرآني، وأثبتت ما طُلب النبي أن يجيب بعدم تحققه، ولم يذكر القرآن الكريم أنه تحقق في يوم من الأيام، يقول في ذلك العلامة ناصر بن جاعد الخروصي (ت:١٢٦٠هـ): (فكيف لا يذكر الباري تعريجه من الأرض إلى السماوات أو إلى أعلى من السماوات في تنزيله؟ ولو كان صحيحاً لأنزل ذكر

ذلك الباري في تنزيله، وجهل علم وقوع المعراج مما يسع فليس هو من العقائد الدينية) قاموس الشريعة، ج٦ ص٣٥٩.

ومن أمثلة روايات المعراج إلى السماء: ما روي صحيح البخاري مما ينسبونه إلى النبي الكريم: (... فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال: هذا أبوك فسلم عليه. فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح، والنبي الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة...) الخ الرواية.

وفكرة عروج النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المفهوم الروائي –التي رفضها العديد من العلماء– قدمت نفسها على أنها معجزة حسية للنبي صلى الله عليه وسلم، في حين كان القرآن صريحاً جداً جداً بأن فكرة عروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء طلب مرفوض، وهو صلى الله عليه وسلم بشر رسول، وإلى هنا تنتهي القصة.

لكن جاءت هذه الروايات لتقلب الطاولة على القرآن الكريم لتقول: إن العروج إلى السماء قد حصل رغم ذلك، وابتكروا لتمريرها فكرة ((الإكرام من الله)) الذي يختلف عن المعجزة في مقام التحدي.

والتفريق بأن ذلك نوع من الإكرام وليس في مقام التحدي محاولة للهرب من إلزام النص القرآني، وإلا فلا دليل على هذا التفريق.

٣. قول الشيخ الخليلي: (وإنما المنفي في القرآن الكريم هو الإرسال بالآيات–أي قرن الرسالة بالمعجزات الكونية– وفي ذلك رحمة بهذه الأمة، لأن اقتران الرسالات بالآيات الكونية سبب لاستئصال الأمم عندما تكفر بها، كما كان ذلك في قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وآله) اهـ

قد أجبنا عن شقه الأول فيما سبق، لأن القرآن يذكر في صراحة أن منع التأييد بالآيات مرده أن الناس في الأزمنة الغابرة لم تؤد بهم المعجزات الحسية بهم إلى الإيمان برسالات الرسل (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفاً) الإسراء:٥٩، فهذا التعليل لمنع تأييد النبي صلى الله عليه وسلم بالآيات الحسية جاء بعيداً عما ورد في

هذه الآية، فالقرآن منع ذلك لأن الأمم السابقة لم تستفد من تلك الآيات الحسية وكذبت بها، وهذا التعليل الذي يذكره الشيخ الخليلي ومفاده أن المنع جاء لئلا يؤدي إلى هلاكهم إن هم كفروا بالآيات الحسية؛ لم يقم عليه دليل، وهو لا يعدو أن يكون تحكيماً للذوق في فهم النصوص لا أكثر.

وكذلك فإن قول الشيخ الخليلي: (لأن اقتران الرسالات بالآيات الكونية سبب لاستئصال الأمم عندما تكفر بها، كما كان ذلك في قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وآله) اهـ فلا يسلم به، فالإهلاك لا يكون فقط بكفران الآيات الحسية، بل يكون بإنكار الآيات غير الحسية وهو التشريع ، فهذه القاعدة التي يقول بها الشيخ الخليلي غير مطردة، نخلص بالقول: إن الإهلاك يكون بإنكار الآيات الكونية والتشريعية معاً، أو بإنكار الآيات التشريعية وحدها، أو إنكار الآيات الحسية وحدها:

- فقوم نوح قال الله عنهم: (فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ) الأعراف: ٦٤، والمكذب به من الآيات يشمل الآيات التشريعية بدليل قوله تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) الأعراف:٥٩-٦٠

- وعاد: قال تعالى: (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ، أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ، فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ) الأعراف: ٦٨-٧٢ فالآيات المكذب بها هنا هي الآيات التشريعية من التوحيد والأخلاق ومختلف التشريعات.

- ثمود: (هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ، قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ، فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا

إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) الأعراف:٧٣-٧٨ ، فالمكذب به عند ثمود هي الآيات التشريعية وكذلك الآية الحسية (الناقة).

- فرعون وآله: (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) آل عمران: ١١ (ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) الأعراف:١٠٣ (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ) الأنفال:٥٢

والمكذَب به عند فرعون وآله هي الآيات التشريعية والحسية معا، فموسى عليه عليه السلام لم يأت فقط بالعصا بل قبل ذلك جاء برسالة التوحيد يدعو إليها وبمكارم وفضائل الأخلاق، وهذا أعلى درجات الآيات التي يبعث بها الرسل.

الاعتراض الثالث:

أن الناس يصعب عليهم إدراك وفهم نواميس الوجود.

قال الشيخ الخليلي في ص ٩٧ من كتاب "العقل": (**وأنت إذا رجعت إلى القرآن الكريم أدركت ببصيرتك أن تصريف الله تعالى للوجود لا ينضبط بسنن خاصة يحصيها البشر إدراكاً وعلماً، فكم من قضية ذكرها القرآن لم تجر وفق السنن الكونية المألوفة للبشر**) اهـ

ولا أجد سبباً وجيهاً لهذا الاعتراض، لأن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالسير في الأرض واكتشاف هذه السنن وبناء الحياة عليها:

(قلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ) العنكبوت:٢٠

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) آل عمران:١٣٧،

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) الأنعام:١١

(أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ) الغاشية:١٧-١٩.

(وفي الأرض آيات للموقنين، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ) الذاريات:٢٠-٢١.

ويبدو أن السبب الذي يدفع البعض لمثل هذا التصور هو عدم التفريق بين الحقائق المعرفية والنظريات في داخل منطقة البحث، ففي العلوم التطبيقية والنظرية كالفيزياء والرياضيات والأحياء

والكيمياء والهندسة والطب والحاسب الآلي وغيرها، تجد الموضوع الواحد يحوي في ثناياه حقائق معرفية لا شك فيها، وهناك مناطق بحث يواصل العلماء والباحثون العمل لتطويرها وإنضاجها باستمرار.

مثال ذلك: الأدوية التي تصنع من شتى المواد لعلاج أمراض معينة، كأدوية أمراض الجدري أو الملاريا، هذه الأمراض كانت في السابق تفتك بالناس فتكاً، ومن يقرأ كتاب (رحلة طبيب في الجزيرة العربية) أو أي من وثائق المؤسسات التبشيرية البروتستناتية سيعلم ما كانت تفعل هذه الأمراض بالناس في عُمان والجزيرة العربية، في هذه الحالة نقول إن الناس كانوا عاجزين أو شبه عاجزين عن التعامل مع هذه الأوبئة، ثم بعد ذلك اكتشف الناس من خلال (السير في الأرض والنظر) علاجات وأدوية لمقاومة هذه الأمراض وخاصة في مراحلها المتقدمة، صحيح أنها لم تقض عليها نهائياً، لكنها أحرزت تقدماً كبيراً جداً في علاجها، وما يزال البحث العلمي مستمراً في تطوير اللقاحات والمضادات لهذه الأمراض.

هذا نموذج من التعامل مع (سنن الحياة)، في حين أن عدداً لا يستهان به من الفقهاء في ذلك الوقت حينما ابتعدت رؤيتهم كثيراً عن القرآن وهدايته في تعاطي هذه القضايا لم يكونوا يملكون سوى دعوة الناس إلى الصبر والدعاء والرضى بقضاء الله وقدره!، صحيح هذه الأمور مطلوبة وهي من لوازم الإيمان، لكن الفقهاء لم يحققوا التكامل المطلوب في دعوتهم بالسير في الأرض والنظر، بل لا زلنا نردد إلى اليوم عبارات مثل (أن تصريف الله تعالى للوجود لا ينضبط بسنن خاصة يحصيها البشر إدراكاً وعلماً) اهـ لتبرير حالة الوهن والضعف والتخلف الحضاري الذي نعانيه.

مثال آخر: عندما يروى في قصص الكرامات-وهي روايات العامة غالباً- أن (كيس الرمل الذي أعطاه الشيخ درويش بن جمعة المحروقي-رحمه الله- لأولاده قد تحول إلى أرز) هذه القصة باختصار تعطينا معادلة كيميائية تقول إن الرمل تحول إلى أرز!، وقبل الشروع في فهم المسألة:

- أولاً: لا مجال لإقحام مسألة قدرة الله في الموضوع، فالله تعالى على كل شيء قدير، ولو شاء سبحانه لأهلك من في الأرض جميعاً، لكن نقاش هذه القضايا يدور مع حكمة الله ومشيئته في خلقه، المعبر عنها بسنن الخلق.

- ثانياً: المعرفة الإنسانية المتوفرة من خلال السير في الأرض والنظر، تقول: إن الرمل لا يتحول إلى أرز، فهذا نظر ثابت مستقر بنت عليه الإنسانية معارفها، والله تعالى أمرنا بالسير في الأرض والنظر، أما ما يرويه العامة فليس من مصادر المعرفة. المسألة هكذا بكل بساطة.

ولو كنا قد تبنينا منهج البحث العلمي القائم على التجربة والملاحظة والنظر –حسب ما جاء في القرآن– لما آل حالنا إلى ما نحن عليه اليوم من تخلف وفقر ومرض وجهل.

المشكلة أن بعض الفقهاء بفعل روايات عوام الناس يريدون أن يزاحموا النظر الكوني والمعرفة المتولدة عن البحث، ليصلوا إلى نتيجة مفادها (إمكانية كل شيء دون فهم لطبيعة الخلق ونظامه).

- ثالثاً: ومع ذلك لا استنكف أن أدعو كل من يتشبث بهذه الحكايات ويصر على حشرها ضمن دائرة الدين؛ أن يُعمل المنهج القرآني القائم على السير الأرض والنظر، ويقوم بعشرات ومئات التجارب في المعامل والمختبرات ليختبر صدقية المعادلة الكيميائية التي تقول إن: الرمل يتحول إلى أرز، وأنا وآلاف غيري سنكون من أوائل المتابعين والمشجعين لهذه التجارب، التي ستكون تحولاً منهجياً في النظر والبحث لدينا.

أما بافتراض إقحام موضوع "قدرة الله" في كل صغيرة وكبيرة في مسائل الخلق، فنقول إن الله تعالى قادر أن يجعل الإنسان بقدراته الذاتية يخرق الأرض ويبلغ الجبال طولاً، لكنه سبحانه بمشيئته وحكمته البالغة قال: (وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً) الإسراء:٣٧

نخلص مما سبق: أن العلوم الطبيعية قوامها وأساسها هو مبدأ ثبات حركة النواميس والسنن، وإلا لما استطاع الإنسان أن يضبط قانوناً رياضياً أو فيزيائياً واحداً يمكنه من بناء طائرة نفاثة أو محركاً لصاروخ أو سيارة فارهة أو مكيفاً أو مدفأة، طالما أن (أن تصريف الله تعالى للوجود لا ينضبط بسنن خاصة يحصيها البشر إدراكاً وعلماً) اهـ.

يضل من يشاء ويهدي من يشاء

يقول الشيخ الخليلي في ص ٥٣-٥٤ من كتاب "العقل" : (أو ليس في هذا كله ما يكفي شاهداً ودليلاً على أن سبحانه مبدع هذا الوجود يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا تنتهي قدرته إلى حد ولا تغيى مشيئته بنهاية، فأنى للإنسان أن يتطاول بغروره القاتل وجهله المخزي إلى أن يدعي على الله أن مشيئتة مضبوطة بضوابط ومقيدة بسنن يدركها الإنسان فيتسنى له بسبب ذلك حصر المشيئة الربانية في دائرتها المحدودة، ومحاكمة ما أخبر الله به في وحيه الأمين إليها، كلا، وإنما هو نزق الطيش المردي وظلمة الجهل المضلة) اهـ.

وقد قال قبل ذلك في ص٥١ من نفس الكتاب: (فأنى له أن يتطاول بفهمه الكليل وعقله القاصر وبصيرته الضيقة ليفسر كل شيء تفسيراً علمياً كما يشاء، وإنما حسبه أن يدرك أن للكون مكوناً وللتصاريف مصرفاً أحاطت قدرته بكل شيء ووسع علمه ما كان وما هو كائن ولا يكون، تنفذ مشيئته في كل شيء، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، تقاصرت العقول عن الإحاطة بحكمه في أحكامه وأفعاله، له وحده الخلق والأمر وهو على كل شيء قدير) اهـ.

الذي يفهمه أي قارئ لهذا الكلام أن الشيخ الخليلي:

- يرفض أن يقال إن مشيئة الله مضبوطة بضوابط ومقيدة بسنن يدركها الإنسان
- يرفض أن يحاكم إلى هذه السنن ما أخبر ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم.
- وهذا لأجل أننا معاشر البشر قدراتنا محدودة، لا نحيط بعلمه سبحانه، وهو سبحانه على كل شيء قدير.

هذه هي رؤية الشيخ الخليلي لموضوع "مشيئة الله"، وأنا لن أناقشها الآن، إنما سأعرض رؤيتين حول موضوع "مشيئة الله"، سوف أترك للقارئ الكريم حرية النظر فيهما:

١ . الرؤية الأولى:

وهي للمدارس السلفية الأخبارية القديمة والحديثة، وهي رؤية تبدأ منذ بدء حياة الإنسان، إذ تصور الأمور والأشياء كلها بطريقة الجبر والتسيير، الذي يلغي إرادة الإنسان واخياره:

- روى الترمذي (٥٠٧١) : أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا

عن هذا غافلين) فقال عمر بن الخطاب؛ سمعت رسول اللهّ صلى اللهّ عليه وسلم سئل عنها، فقال رسول اللهّ صلى اللهّ عليه وسلم: "إن اللهّ خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة بعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون".

-روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله عز وجل وكل بالرحم ملكا يقول: يا رب نطفة، يا رب علقة، يا رب مضغة، فإذا أراد أن يقضي خلقه قال: أذكر أم أنثى، شقي أم سعيد، فما الرزق والأجل، فيكتب في بطن أمه).

- روى مسلم: عن عائشة أم المؤمنين قالت: دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار. فقلت: يا رسول الله! طوبى لهذا. عصفور من عصافير الجنة! لم يعمل السوء ولم يدركه. قال "أو غير ذلك، يا عائشة! إن الله خلق للجنة أهلا. خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم. وخلق للنار أهلا. خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم".

ولأن الإنسان وفق هذه الرؤية لا خيار له في ذلك منذ أول الأمر، استمر الحال على ما هو عليه في بقية حياته.

فالضلال والهدى هما أيضاً تحكمهما ذات الرؤية لمشيئة الله، فالضلال والهدى لا دخل للإنسان فيهما، روى الترمذي (٢٧٨٠) عن يحيى بن أبي عمرو يقول سمعت رسول اللهّ صلى اللهّ عليه وسلم يقول: "إن اللهّ تبارك وتعالى خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول جف القلم على علم اللهّ". والحديث حسن كما يقول الترمذي! ... فالهداية والضلال لا تعدو أن تكون ضرباً من العشوائية والانتقائية وفق هذه الرؤية....وتستمر الحياة.

أيضاً الحياة لا تنضبط وفق سنن ونواميس طبقاً لهذه النظرية، لأن القول بغير هذا افتئات على قدرة الله التي لا يحدها حد، (إِنَّ اللهّ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ) المائدة: ١ (يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) آل عمران:٤٠ ، (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) آل عمران: ٤٨، وكذلك لما ورد في القرآن من ذكر الخوارق في الأمم السابقة...تنتهي الحياة إلى هذا الحد، جبر في الأفعال وعشوائية في الهداية والضلال وفوضى لحركة الكون والحياة!.

أما في الحياة الآخرة فـ(أهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في النار لا يخلدون، إذا ماتوا وهم موحدون، وإن لم يكونوا تائبين، بعد أن لقوا الله عارفين مؤمنين. وهم في مشيئته وحكمه: إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله، كما ذكر عز وجل في كتابه: "ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء".

وإن شاء عذبهم في النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته، وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يبعثهم إلى جنته) اهـ العقيدة الطحاوية، لأبي جعفر الطحاوي (موقع المحدث)

هذه النظرية مترابطة بشكل كبير:

فالناس عندما مسح "الرب بيده" على ظهر آدم خلق أناساً للجنة وأناساً للنار، وعندما يكون الإنسان في بطن أمه يكتب عليه أشقي أم سعيد، وعندما يخرج إلى الحياة لا تكون هناك سنن مضبوطة للحياة يفهمها الإنسان، فالله يحكم ما يريد، وقدرة الله لا يحدها حد، والهداية والضلال كمثل النور من أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل.

إذن النتيجة المنطقية لكل هذه المقدمات التي سحبت من الإنسان إرادته الحرة؛ أن مشيئة الله تعبر عن ذات ((الفوضى والعبثية))، فالناس داخلون في المشيئة (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء)، والرب أرحم بعباده أن يعذبهم بعد أن خلق أناساً للجنة وأناساً للنار، وتلك مشيئته سبحانه، قال الشهرستاني في الملل والنحل (١/ ١٠٠): (وصاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة يكون حكمه إلى الله تعالى: إما أن يغفر له برحمته وإما أن يشفع فيه النبي صلى الله عليه و سلم إذ قال: "شفاعتي لأهل لكبائر من أمتي"، وإما أن يعذبه بمقدار جرمه ثم يدخله الجنة برحمته، ولا يجوز أن يخلد في النار مع الكفار لما ورد به السمع بالإخراج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، قال: ولو تاب فلا أقول بأنه يجب على الله تعالى قبول توبته بحكم العقل إذ هو الموجب فلا يجب عليه شيء بل ورد السمع بقبول توبة التائبين وإجابة دعوة المضطرين وهو المالك في خلقه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد) اهـ .

هذا هو ملخص هذه النظرية .

٢ . الرؤية الثانية:

وهي رؤية الإباضية والزيدية والمعتزلة وعدد من العلماء المتأخرين من مختلف المذاهب الإسلامية، على اختلاف بينهم في بعض تفاصيل هذه الرؤية، ولنأخذ الرؤية الإباضية نموذجاً على ذلك، فرؤيتهم تقوم على:

- أن أساس النجاة الدنيوية والأخروية قائم على تلازم القول والعمل الصالح، فمن مات متلبساً بالمعاصي غير تائب منها فإنه يخلد في نار جهنم، ولا شفاعة لأهل الكبائر غير المتخلصين منها بالتوبة، ولا يقولون إنهم داخلون في المشيئة يوم القيامة.

- لذا فهم يرفضون فكرة الجبر أو ما يتفرع عنها من مقولات، ويدعون الناس دائماً إلى ملازمة العمل الصالح وملازمة التوبة، وكل هذه المقولات تستلزم حرية الإنسان في ممارسته للعمل وعدم وقوعه تحت طائلة جبر إلهي مزعوم.

- وعليه فسروا المشيئة الإلهية في الوعيد والوعيد (يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاء) المائدة: ١٨، (فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) البقرة: ٢٨٤، وفي الهداية والضلال (قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ) الرعد:٢٧ وفقاً للآيات التي تدعو إلى العمل الصالح وتحذر من العمل السيء، واعتبروها تفسيراً وتعبيراً عن مشيئة الله، أي هي آيات الله التشريعية التي طالبتهم بالعمل الصالح وحذرتهم من العمل السيء.

وفي بيان الشرع ج٢ ص٢٦٠: (وسألت أيضاً عن الضلال ممن هو: من الله أو من الشيطان أو من العبد؟، فاعلم أن الضلال هو فعل العبد الذي ضل به، وفي كتاب الله دلائل على ذلك: قال الله تعالى "فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم" وقال تعالى: "فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً") اهـ

إذن تفسير مشيئة الله في غيرها من المواضع كقوله تعالى: (إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ) المائدة: ١ وقوله: (يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) آل عمران:٤٠، وقوله: (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) آل عمران: ٤٨، كان يجب أن ينسجم ويتسق مع ذات الرؤية الإباضية في القضايا الكبرى كالوعيد والوعيد والهداية والضلال.

أما أن هذا التفسير معناه (أن يتطاول بغروره القاتل وجهله المخزي إلى أن يدعي على الله أن مشيئتة مضبوطة بضوابط ومقيدة بسنن يدركها الإنسان حصر المشيئة الربانية في دائرتها المحدودة) اهـ....

فمثل هذا الكلام يوجه للإباضية جميعاً؛ لأنهم عندما فسروا المشيئة في الوعد والوعيد والمغفرة والضلال بالمعنى الذي ذكرناه عنهم كانوا يطبقون مبدأ (رجع المتشابه إلى المحكم)، ولم يكونوا يتطاولون على مقام الألوهية عندما فسروا المشيئة بذلك التفسير، بل تفسيرهم للمشيئة عبروا به عن آيات الله التشريعية التي أنزلها في كتابه.

ذكرنا في الحلقة السابقة رؤيتين قدمتا في موضوع "المشيئة الإلهية"، وقلنا بأن الرؤية التي قدمها الشيخ الخليلي في كتاب "العقل" كانت تقترب كثيراً من الرؤية السلفية.

وما زلنا نناقش النص السابق من كتاب "العقل" للشيخ الخليلي ص ٥٣-٥٤: (أو ليس في هذا كله ما يكفي شاهداً ودليلاً على أن سبحانه مبدع هذا الوجود يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا تنتهي قدرته إلى حد ولا تغيى مشيئته بنهاية، فأنى للإنسان أن يتطاول بغروره القاتل وجهله المخزي إلى أن يدعي على الله أن مشيئتة مضبوطة بضوابط ومقيدة بسنن يدركها الإنسان فيتسنى له بسبب ذلك حصر المشيئة الربانية في دائرتها المحدودة، ومحاكمة ما أخبر الله به في وحيه الأمين إليها، كلا، وإنما هو نزق الطيش المردي وظلمة الجهل المضلة) اهـ.

وسنتناول موضوع: (محاكمة ما أخبر الله به في وحيه الأمين إليها، وكلا وإنما هو نزق الطيش المردي وظلمة الجهل المضلة) اهـ، وفي الغالب يقصدون من مثل هذه العبارات مسألة: (عرض الروايات الحديثية على ما يقتضيه النظر الكوني القائم على السير في الأرض والنظر)، فالشيخ الخليلي يعتبر الحديث النبوي وحياً مستقلاً عن القرآن، فيقول في ص ١٨٨ من كتاب "العقل" : (إذ الوحي وحيان، وحي ظاهر وهو ما أوحي إليه صلى الله عليه وسلم بلفظه ومعناه، ووحي باطن وهو ما أوحي إليه معناه، وكان التعبير عنه من قبله صلى الله عليه وسلم، والأول القرآن والثاني الحديث الشريف) اهـ

وهذا الموضوع لم يضرب الشيخ الخليلي عليه أمثلة عليه من كلام من يرد عليهم، وسأغطي في هذه العجالة هذا النقص بضرب الأمثلة من كلام الشيخ الخليلي.

١. قال الشيخ الخليلي في جواهر التفسير "الجزء الخاص" ص ٨٥ : (ومن أعجب ما تشبثت به هؤلاء المشبهة حديث " يَنزل ربُنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر" حيث زعموا أن الله تعالى نزولاً حقيقياً في ثلث الليل الأخير من عرشه إلى السماء الدنيا، وحكوا الخلاف في خلو العرش منه في ذلك الوقت، مع أنه من المعلوم أن الأرض لا تخلو من الثلث الآخر من الليل، لأن الليل والنهار يدوران على الأرض دوراناً مستمراً، فلا تخلو الأرض من أي جزء من الليل أو النهار، وهذا الذي يؤذن به قوله تعالى "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ"وقوله تعالى "يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً" ، وفي كل لحظة من اللحظات تكون بداية الثلث الآخر من الليل بالنسبة إلى أهل جزء من الأرض، ونهاية الثلث الآخر بالنسبة إلى قوم آخرين، وهكذا جميع أجزاء الليل والنهار، فإنها لا تخلو الأرض منها جميعاً في أي لحظة من اللحظات) اهـ

الشيخ الخليلي هنا لا يقبل رواية " يَنزل ربُنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر" لاعتبارات النظر الكوني القائم على السير في الأرض من أن (الأرض لا تخلو من الثلث الآخر من الليل، لأن الليل والنهار يدوران على الأرض دوراناً مستمراً، فلا تخلو الأرض من أي جزء من الليل أو النهار) اهـ مع العلم أن الفقهاء في القديم كانوا شبه مجمعين على أن الأرض مسطحة، ويتصورون أن الليل في بقعة ما هو ذاته في بقية الأرض، لكن بتجلية المعارف الكونية القائمة على السير في الأرض والنظر تبينت للناس الحقائق، فإذن هل يحق لمن يؤمن بهذا الحديث أن يردد عبارة الشيخ الخليلي (أنى للإنسان أن يتطاول بغروره القاتل وجهله المخزي إلى أن يدعي على الله أن مشيئتة مضبوطة بضوابط ومقيدة بسنن يدركها الإنسان فيتسنى له بسبب ذلك حصر المشيئة الربانية في دائرتها المحدودة، ومحاكمة ما أخبر الله به في وحيه الأمين إليها، وكلا وإنما هو نزق الطيش المردي وظلمة الجهل المضلة) اهـ، ويقول في حق الشيخ الخليلي إنه:

- يحصر ويقيد المشيئة الإلهية المطلقة بعقله القاصر المحدود، وهذه المشيئة قضت بنزوله تعالى إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل.

- وأنه يشكك في القدرة الإلهية التي لا يحدها حد في نزوله تعالى إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل.

- وأنه يحاكم ما أخبر الله به في وحيه الأمين إلى سنن الكون ونواميسه.

وهؤلاء الذين يؤمنون بمثل هذه النوعية من الأحاديث يقولون إن هذا الحديث من الغيب الذي أمرنا بالإيمان به وعدم التعمق فيه، وكما نصت مقولاتهم القديمة والحديثة: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

٢. حديث الجساسة الذي رواه مسلم في صحيحه أن تميماً الداري ألقت به الأمواج إلى جزيرة فيها دابة عظيمة اسمها الجساسة (لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر)

الشيخ الخليلي في محاضرة "من أشراط الساعة" نشر تسجيلات الهلال الإسلامية؛ يرى في هذا الحديث (الكثير من الإشكال، فأين هي هذه الجزيرة؟، نعم رواه مسلم، لكن الواقع لا يدل على صحة الحديث، وقد ذكر العلامة محمد رشيد رضا في تفسير المنار تسع ملاحظات على هذا الحديث، فنحن لا نستطيع أن نأخذ بهذه الرواية، فأين هذه الجزيرة والناس الآن كشفوا البحر الأحمر وكشفوا البحر المتوسط، ولم يجدوا هذه الجزيرة ولم يجدوا جساسة ولم يجدوا دجالاً؟، فلو كان الأمر كما قيل لكان بالإمكان بالوسائل الحديثة أن يكتشف هذا الأمر، هناك ما يدعو إلى الريبة في صحة هذا الحديث) اهـ

الشيخ الخليلي يرفض هذه الحديث استناداً إلى مقتضيات السير في الأرض والنظر (فأين هذه الجزيرة والناس الآن كشفوا البحر الأحمر وكشفوا البحر المتوسط، ولم يجدوا هذه الجزيرة ولم يجدوا جساسة ولم يجدوا دجالاً؟) اهـ

فإذن: هل يحق لمن يؤمن بهذا الحديث أن يردد عبارة الشيخ الخليلي (أنى للإنسان أن يتطاول بغروره القاتل وجهله المخزي إلى أن يدعي على الله أن مشيئتة مضبوطة بضوابط ومقيدة بسنن يدركها الإنسان فيتسنى له بسبب ذلك حصر المشيئة الربانية في دائرتها المحدودة، ومحاكمة ما أخبر الله به في وحيه الأمين إليها، وكلا وإنما هو نزق الطيش المردي وظلمة الجهل المضلة) اهـ، ويقول في حق الشيخ الخليلي إنه:

- يحصر ويقيد المشيئة الإلهية المطلقة بعقله القاصر المحدود، وهذه المشيئة قضت بوجود دابة اسمها الجساسة كثيفة الشعر لا يعرف قبلها من دبرها، كلمت معها تميم الداري وتحاورت معه.
- يشكك في قدرة الله التي التي لا يحدها حد.
- وأنه يحاكم ما أخبر الله به في وحيه الأمين إلى سنن الكون ونواميسه.

وهؤلاء يقولون إن هذا الحديث من الغيب الذي أمرنا بالإيمان به وعدم التعمق فيه، يقول عبد الله بن سليمان الغفيلي في كتابه "أشراط الساعة" ط وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢هـ: (وجود بعض الكتاب في هذا العصر، الذين أخذوا يشككون في بعض الأمور الغيبية، التي أخبر بها الرسول صلى الله عليه وسلم ومنها أشراط الساعة، زاعمين أن هذا ينافي العقل ويصادمه، وهذه حجة واهية تدل على عدم الإيمان بالغيب، وعلى عدم تعظيم أمر الله وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم) اهـ (نسخة الكترونية) .

وانظر هذا النقاش في منتدى أهل الحديث:

حديث الجساسة؟؟!!! - ملتقى أهل الحديث

بل كان الشيخ الخليلي أكثر صراحة من ذلك في بعض المواضع، فقال في برنامج "سؤال أهل الذكر" نشر في جريدة الوطن، سلطنة عمان، الخميس ١٩ صفر ١٤٢٨هـ، الموافق ٨ من مارس ٢٠٠٧م، العدد (٨٦٢٧):

(وعلماء الأحاديث وإن كان كثير منهم لا يتقيدون بما وضعوه من القواعد نجد أنهم وضعوا قواعد لضبط الروايات والتمييز فيما بينها، فقالوا بأن الحديث ولو ثبت إسناده يُرَدُ لعدة أمور:

يُرَدّ إذا خالف العقل لأن النبي صلى الله عليه وسلّم لا يتحدث إلا بالمعقول.

ويُرَدّ إذا خالف القرآن لأن النبي صلى الله عليه وسلّم لا يمكن أن يخالف القرآن.

ويُرَدّ إذا خالف الحديث المتواتر لأن النبي صلى الله عليه وسلّم لا يمكن أن يتحدث بما يعاكس المتواتر.

ويُرَدّ إذا كان بخلافه إجماع الأمة. إذ الأمة لا يمكن أن تُجمع مع صحة الحديث على خلاف الحديث.

ويُرَدّ كذلك إذا كان الأمر من شأنه أن ترويه جماعة كثيرة وقد جاء من طريق الآحاد .هذا مما نص عليه البغدادي في كتاب "الفقيه والمتفقه".

ومع تطور العصر ينبغي أن يقال بأنه أيضاً تُرَدّ الرواية ولو ثبت إسنادها عندما تكون متصادمة مع دلائل العلم القاطعة، إذا كانت دلائل العلم القاطعة تدل على أن هذه الرواية غير صحيحة فإن ذلك مما يدل على عدم ثبوتها) اهـ .

قل سيروا في الأرض

قلت في حلقات ماضية أنني سوف أتناول بالتفصيل ما قاله الشيخ الخليلي في ص ٩٣ من كتاب "العقل": (فليس لإنسان أن ينكر ما لم يكن ثابتاً بالقطع، ولئن كان الإثبات يتوقف على دليل قطعي، فإن النفي أولى بأن يتوقف عليه)، وهذا الكلام يمكن صياغته كالتالي: ((أن غير المنفي لا يجوز نفيه إلا بدليل قطعي)) وهذا الكلام عند الحديث في باب الغيبيات.

للحديث حول هذا الموضوع أقول:

هناك منطقتان ذكرهما القرآن: عالم الغيب وعالم الشهادة

(١) عالم الغيب:

وتحدثنا كثيراً في الحلقات الماضية عن طبيعة هذا العالم، وضرورة الاقتصار في تعيينه على الأدلة القطعية من جهة ثبوتها ومن جهة دلالتها، وما ذلك إلا لخطورة هذه المنطقة وعدم دخولها ضمن نطاق الإدراك البشري، كالإيمان بالملائكة واليوم الآخر، وهذه المنطقة محددة حصراً لا يضاف إليها شيئ ليس منها بدعوى وروده هنا وهناك مما يرويه الناس، فهذه منطقة إيمان بامتياز لا يجادل فيها.

وهذه المنطقة لا يقال عنها إن (غير المنفي فيها لا يجوز نفيه إلا بدليل قطعي)، فهي ليست منطقة مفتوحة، يضاف إليها باستمرار كل جديد يكتشف. وقد ضربت عدة أمثلة على ذلك في حلقة سابقة، وأضيف إليها هذا المثال، فالله تعالى يقول: (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) النساء: ١٦٤، فهناك رسل قد قص الله تعالى علينا أنباءهم، ورسل آخرون لم يقصصهم علينا، والسؤال الآن: لو جاء بعض الناس وادعى أن (زرداشت) أو (دانيال) أو (كونفوشيوس) أو أي من الحكماء الذين كانوا في الأمم السابقة هم من جملة الأنبياء؟، هل نقبل مثل هذا الكلام ونقول إن (غير المنفي في الغيبيات لا يجوز نفيه إلا بدليل قطعي)؟.

الصواب: أن منطقة الغيب منطقة محددة حصراً، لا يمكن إثبات مفرداتها دون نصوص قطعية، لأنها منطقة إيمان، وعليه لا يمكن إثبات نبوة أحد بعينه دون دليل قطعي من جهة ثبوته ودلالته، أما مجرد الاحتجاج بأنه من الممكن أن يكون نبياً ولم يقص الله تعالى علينا نبأه؛ فغير مقبول، لأننا نؤمن في الجملة بأن هناك أنبياء لم يقص الله علينا أنباءهم، لكن إثبات نبوة أحد بعينه محتاج للدليل القطعي، وهذا ما يعرفه الإباضية في مؤلفاتهم العقدية بولاية الحقيقة، حيث إنهم يتولون الأنبياء والرسل

لكونهم من أهل الجنة، ولإثبات نبوتهم يرجعون في ذلك للدليل القاطع من حيث الثبوت والدلالة (راجع في ذلك: الاستقامة لأبي سعيد الكدمي، مشارق أنوار العقول للسالمي).

(٢) عالم الشهادة:

وهي منطقة البحث الكوني، حيث السير في الأرض والنظر، وهذه المنطقة فيها الحقائق المعرفية وفيها ما هو قيد النظر والبحث المستمر، ولو طبقنا المثال السابق وهو (أن غير المنفي لا يمكن نفيه) على منطقة البحث؛ فسنجد أن فهمه يكون كالتالي في موضوع قصص الكرامات:

- علينا أن نفهم أن غير المنفي أو المسكوت عنه لا يؤخذ بطريقة ظاهرية حرفية، فعلينا أن نفهم مثلاً أن قانون السببية هو قانون كوني خلقه الله تعالى وسيره ورعاه (وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ، وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ، وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ، كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) الأنبياء: ٣٢-٣٥، فلا يمكن القول إن طيران إنسان هكذا دون قانون معين أمر ممكن، وأن هذا الأمر لا يمكن نفيه لأنه غير منفٍ، الحقيقة أنه أمر منف وفقاً لقانون السببية، فنحن البشر الذين نعيش على وجه الأرض تحكمنا الجاذبية فلا نستطيع الإفلات من سطوتها إلا بفهم قوانين أخرى تمكننا من الطيران والتحليق في الجو، وكذلك لا يمكن القول إن الشمس قد توقفت لأجل فلان من الناس كرامة له، واعتبار ذلك من الأمور غير المنفية، فالنظر السليم يقول إنها منفية بنظر في الكتاب العزيز ونظر في الكون.

- في منطقة البحث الكوني يمكن أن تتجاذب بعض القضايا بين النفي والإثبات من باب الرأي، وهذا معلوم في العديد من مسائل الطب والهندسة والكيمياء والأحياء والفيزياء وغيرها من المعارف، مع فتح الباب مشرعاً أمام البحوث المعمقة والدراسات المكثفة، وهؤلاء كان همهم العلم والمعرفة فأبدعوا في السير في الأرض والنظر، ولم يحولوا هذه القضايا العلمية إلى مسائل تكفير وتفسيق وتضليل وتشكيك في قدرة الله.

في حين أن بعض الفقهاء يصور قصص الكرامات التي يرويها عامة الناس ديناً غير قابل للنقاش ومناقشتها تعد من التشكيك في قدرة الله، يقول الشيخ الخليلي في ص ١٠٦ من كتاب "العقل" : (وإنما نستنكر إنكار أصل الكرامة مع وجود أصلها في كتاب الله كما سبق ذكره، فإنكار أصلها إنما هو رد لما ثبت بالنص القطعي الذي لا يقبل التأويل) اهـ ثم قال في نفس الصفحة : (وما الشك في ثبوتها إلا تشكيك في قدرة الله المطلقة ؛ التي لا تحصرها حدود ولا تقيد آثارها سنن، فإن الله يفعل ما يشاء ويفعل ما يريد) اهـ.

مع العلم أنها مجرد قصص وحكايات يتداولها العامة وقد يدونها الخاصة في كتبهم، لكنها تبقى مجرد حكايات لا تقدم ولا تؤخر، ولو كنا فعلاً أمة قرآنية لفعلنا المناهج العلمية القرآنية وعرضنا هذه الحكايات لمبدأ (السير في الأرض والنظر) لما تحولت حكايات عوام الناس إلى معيار يقاس به دين الإنسان: أيؤمن بقدرة الله أو لا؟! وكأن قدرة الله منحصرة في هذه الحكايات، وليست مبثوثة في الكون بأسره من ذراته إلى مجراته؟! (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) الذاريات: ٢٠-٢١ .

وكذلك الأمر بالنسبة للعديد من الظواهر الطبيعية التي تحدث في الكون، وتحمل في طياتها بعض الغرابة، لكن هذه الغرابة تزول وتفهم هذه الظواهر لو طبقنا مبدأ (السير في الأرض والنظر)، وقد أكثرَ الشيخ الخليلي من رواية هذه الحكايات مستدلاً بها على عدم انضباط الحركة الكونية، من ذلك:

- كتاب "العقل" ص١١١-١١٢
- كتاب "العقل" ١١٤-١١٥
- كتاب "العقل" ١١٦-١١٩

وقد قال الشيخ الخليلي إثرها ص ١١٤ : (وكم شاهدنا وسمعنا أحداثاً وقعت لبعض الناس تذهب بعقل اللبيب، ولا يملك أمامها إلا أن يخضع ويسلم تسليماً لأمر الله تعالى، موقناً أن ألطافه تعالى لا تقف عند حد وأن أمره لا يتوقف على أسباب يفسر بها نفوذ مشيئته في خلقه، فقد ينجو الإنسان وقد أحاطت به أسباب الهلكة، ويهلك وقد اكتنفته أسباب النجاة) اهـ

وهذا كلام غريب، فالتسليم لأمر الله تعالى ومشيئته هو شأن كل مؤمن بالله تعالى، لكن لا شأن لذلك بفهم الإنسان سنن الله تعالى في خلقه وأسباب ما جرى وما حصل؛ لأنها ببساطة من عند الله.

فإذا نجا إنسان من الموت لسقوطه من عمارة، فهذا ما جرى ونحمد الله تعالى على لطفه بعباده، ثم ننتقل إلى السؤال التالي: ما هي الأسباب التي أدت إلى عدم موته بسبب السقوط؟ هل أمسك بشيء في سقوطه إلى أدى تخفيف الصدمة؟، أو هل سقط على جسم لين كالإسفنج امتص جزءاً كبيراً من الصدمة....الخ، وهذه أسئلة مشروعة فالله تعالى أمرنا أن نسير في الأرض وننظر (أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الأِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ،وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ) الغاشية:١٧-١٩. (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) آل عمران:١٣٧.

ومن المفترض أن هذه الأسئلة لا تكون مجرد أسئلة نظرية، بل تأتي في سياق دراسات لمختلف الظواهر الكونية، بحيث تدرس وتختبر وتعالج بطرق علمية منهجية، عندئذ نخرج من سياقات الفعل ورد الفعل، والاتهامات بالتخلف والعقلانية؛ وتتوجه بوصلتنا نحو (السير في الأرض والنظر).

الفصل السادس

إعصار جونو وفيضانات ميزاب

كلنا عاش أحداث إعصار (جونو) بأحداثه التي اختلطت فيها الآمال بالآلام، ومشاعر الخوف بمشاعر الرجاء، وعاش فيها المجتمع العماني ملحمة من التكافل والتعاون بين أبنائه أثبتت مدى تلاحمهم وتضامنهم، وكل هذا ناتج عن ثقافة راسخة بين أبناء هذا البلد، فليسوا ممن يتشدق بالكلمات التي لا تسندها أفعال على أرض الواقع.

وقبل الشروع في مناقشة هذه المسألة أود أن ألفت الأنظار إلى أن استعمال مصطلح (إعصار جونو) صحيح وسليم، كما أن استعمال مصطلح (الأنواء المناخية) صحيح وسليم، وكلاهما صادر عن جهات معتبرة في تسمية ما حصل في سلطنة عمان في يوم: الأربعاء ٦ يونيو ٢٠٠٧م من فيضانات مدمرة راح ضحيتها العشرات، وخسائر في الممتلكات قدرت بمئات الملايين من الريالات، طبعاً كان الوضع عصيباً، إذ لم تمر البلاد بمثل هذه المحنة منذ فترات طويلة، ولا تزال ذاكرة من عاشوا تلك الأيام تختزن الكثير من الألم والمعاناة، لا أطيل على القارئ بتفاصيل يعلمها وعاشها، لكن أحببت أن أنقل تجربة شخص عاش الأزمة من خلال رسائل (SMS) التي أرسلها واستقبلها في يوم الأربعاء ٦/ ٦/ ٢٠٠٧م، وقد أطلعني عليها وسمح بنقلها للقارئ (مع التصرف قليلاً في الألفاظ لتكون باللغة العربية الفصيحة بدلاً ألفاظ من اللهجة المحلية):

- الساعة: (٣ صباحاً): وارد من شركة (.....): لمزيد من المعلومات عن المراكز الصحية المناوبة في محافظة مسقط لهذه الليلة، الرجاء الاتصال على هاتف (.....) اللجنة الوطنية للدفاع المدني.
- الساعة: (٨ صباحاً) صادر: الأمطار هنا خفيفة إلى متوسطة منذ الليل.
- الساعة: (٨ صباحاً) وارد: الجو ركامي والأمطار عندنا خفيفة بدون صواعق والرياح متوسطة...
-الساعة: (١٢ ظهراً) صادر: الابتلاء بالخير أو الشر من الله، وعلى الناس أخذ العبرة، فالمؤمن شاكر عند النعماء صابر على البلاء.

- الساعة (١ ظهراً) وارد من شركة (.....): تهيب شرطة عمان السلطانية بجميع القاطنين في المناطق الساحلية والمنخفضة ومجاري الأودية التحرك لأماكن الإيواء والأماكن الأكثر أماناً.
- الساعة (٣ بعد الظهر) صادر : سرعة الرياح تزداد كل ساعة.

- الساعة (٤ مساء) صادر: في هذه اللحظات انهار جزء من جدار المبنى المجاور لنا وسقطت عدد من الأشجار الكبيرة.

- الساعة (٥ مساء) صادر: فيضانات هائلة بـ (.....).

- الساعة (٨ مساء) صادر: الكهرباء مقطوعة ونحن شبه معزولين عن العالم الخارجي.

هذه الرسائل الصادرة والواردة تعكس شعور ونفسية المجتمع الذي يعتبر ما يحصل في الكون أنه من عند الله، وأن عليه العمل سواء كان الأمر خيراً أو شراً.

وهذه الكوارث الطبيعية تحدث باستمرار، وهي تعبر عن الحركة الكونية التي يرعاها ويحفظها ويسيرها الخالق تبارك وتعالى.

فمثلاً في يوم عيد الأضحى من هذا العام الهجري اجتاحات فيضانات مدمرة محافظة "غرداية" المعروفة بوادي ميزاب بالجنوب الجزائري، تسببت في مقتل المئات وإحداث أضرار مادية جسيمة بالممتلكات، وفي هذه الأيام اجتاحت السيول والفيضانات أيضاً محافظة حضرموت بجنوب اليمن السعيد وأحدثت أضراراً بالغة من قتل وتشريد وتدمير، وكذلك في : ضرب زلزال مدمر إقليم "بلوشستان" بباكستان وتسبب في مقتل المئات وإحداث خراب كبير بالبنية التحتية.

وانظر هذه الروابط:

- صور : ماذا ترك اعصار جونو - شبكة أبو نواف

- الفيضانات العارمة التي إجتاحت غرداية *- صور عدستي -* - منتديات الجلفة لكل الجزائريين و العرب

::.www.irwane.org.:: الصفحة الرئيسية <
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/٦٢٣C٦BCF-٩٨٨B-٤٩C٩-٢C٤E-٧E٨BDABEF٢٤٥.htm
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/B٧٢F٦٧٠A-٤-٣٩٠٨B٨٥-AB٨٦-D١A٦٥٥٨٩B٨٤B.htm

الكوارث الطبيعية ابتلاء من الله[٦]

موضوع الكوارث الطبيعية موضوع شائك، وقد ناقشه الشيخ الخليلي في عدة مناسبات في الآونة الأخيرة منها:

- في برنامج سؤال أهل الذكر: يوم الأحد ١٠/ ٦/ ٢٠٠٧م
- في كتاب "العقل" الصادر منذ من أكثر شهر من الآن.

وسنلخص نظريته حول الكوارث الطبيعة وارتباطها بالعقاب والعذاب الإلهي:

(١) تكلم الشيخ الخليلي في برنامج سؤال أهل الذكر: يوم الأحد: ١٧/ ٦/ ٢٠٠٧م، أي بعد حوالي ١١ يوماً من (إعصار جونو) بمنطق أن ما حدث هو عقاب وعذاب من عند الله تعالى، فبعد أن سأله المذيع سيف بن سالم الهادي عن سلوك المسلم مع هذه الأقدار والتعامل معها كان مما قاله: (ونحن نرى في كتاب الله سبحانه وتعالى ما يدل على أسباب البلاء، وما يدل على ما يرفع البلاء.

الله سبحانه وتعالى يقول: " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ"

"أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ، أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ،أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ".

علينا أن ندرك أن الله غيور على حرماته، فنحن إن لم نغر على حرمات الله فجبار السماوات والأرض لابد من أن يغار عليها، لذلك كان علينا أن نقف موقف المحاسب الدقيقة لأنفسنا أمام هذه التصرفات.

وأعظم شيء أن تستشري المعصية وتنتشر من غير أن تغير، الأمر المعروف والنهي عن المنكر هما صمام الأمان لحياة الإنسان الدنيوية والأخروية...) اهـ

ثم قال: (ونحن نرى أن الله تعالى يقص علينا في كتابه أنباء الأمم من قبل من تغيير الله وبطشه بهم " وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ" ...

٦ هذا العنوان من وضع المرتب.

كان الواجب على الناس أن يقبضوا على أيدي الذين يفسدون في الأرض حتى لا يعود إليهم عقاب عملهم، يقول الله سبحانه "وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا، وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا") اهـ

(وكم يلفت القرآن الكريم انتباه الناس إلى الأمم التي بادت والأمم التي أصابها ما أصابها من عقاب الله بسبب اجترائها على الله سبحانه وتعالى "أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ" ...) اهـ

ثم قال في صراحة: (فإذن هذه ذنوبنا التي جرت علينا، وتركنا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح) اهـ

(٢) وفي كتاب "العقل" من ص١٤٧ إلى ص١٧٧

وقال في ص١٥٥: (وقد كابر هؤلاء المعاندون دلائل الشرع والعقل والواقع، بإنكارهم أن يكون ما يحدث في الكون من كوارث مدمرة وزعازع مزعجة عقوبة على فجور الفجرة، وانتهاك الناس لحرم الله سبحانه وتعالى، والعجب منهم كيف يتعامون ويتصاممون عن آيات الله الصريحة–وهم يدعون أنهم بالكتاب مؤمنون وبه يستمسكون– أولم تكفهم الآيات التي أوردناها وغيرها مما لم نورده اكتفاء بما أوردنا؟ أوليست نذرها تصخ الكون، ودلائلها تبهر العقول؟ "وما تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون") اهـ

وهذا النص الذي يتميز بحديته وعنفه، يلخص مجمل رؤية الشيخ الخليلي حول الكوارث الطبيعية وارتباطها بالعذاب والعقاب من الله تعالى، وهي تتلخص في:

– ما ورد في كتاب الله من الأنباء في إهلاك أمم ممن كانوا قبلنا

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا، وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) الإسراء: ١٦–١٧

(أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) الأنعام:٦

- ويرى الشيخ الخليلي أيضاً أن (نفي أن تكون الكوارث الطبيعية وغيرها مما يلم بالناس عقوبة على جرائم ارتكبوها يهون تلك الجرائم في نفوس الناس، وقد يدعوهم الأمن من العقوبات إلى المضي قُدماً في ممارستها، مع أن الله عجّب عباده من أولئك الذين يتجرأون على ارتكاب الموبقات) اهـ كتاب (العقل) ص١٧٦.

وقبل مناقشة استدلالات الشيخ الخليلي أعرض بعض النقاط التي تشكل أرضية مشتركة لفهم هذه القضية:

١. على الناس أن يظلوا شاكرين حامدين لله تعالى في السراء والضراء:قال تعالى (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) الحج:٣٥ ونعى القرآن الكريم على أقوام لا يعرفون ربهم إلا في الضراء وينسونه في السراء فقال: (وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) يونس:١٢

٢. الظواهر الكونية من خلق الله تعالى

فالله تعالى هو خالق كل شيء ومسيره ومدبره وفق تقديره تعالى وحكمته (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) البقرة:١٦٤ .

وهذه الظواهر كالرياح أو المطر أو الأعاصير أو الأمراض توجب علينا أن نعبد ونوحد خالقها تبارك وتعالى، وفي القرآن الكريم لا تجد إلا الارتباط بين الظواهر الكونية وخالقها تبارك وتعالى، وهذا يوجد بدوره انسجاماً بين هذه الظواهر وبين الإنسان الذي يعيش بينها ويتفاعل معها.

أما العديد من الأمم الوثنية في القديم والحديث فقد ألهت هذه الظواهر وعبدتها من دون الخالق الواحد، (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) الأعراف:١٩١

وكذلك فإن من المرفوض تماماً ما ردده البعض من عبارات (هزمنا الإعصار) (انتصرنا على الأعصار) (وقهرنا الإعصار)، فهذه العبارات وأمثالها لا تعبر عن أي مضمون إيماني متصل بالخالق

تبارك وتعالى، بل هي تعبير عن حالة من الصراع مع الكون وظواهره بدلاً من الانسجام والتآلف معه من خلال تقوية الصلة بالله تبارك وتعالى والعمل بالأسباب.

٣. هذه الظواهر لها آثار ايجابية وسلبية على الإنسان والحياة

الظواهر الكونية بحسب تكوينها ونشأتها والمناخ الجغرافي الذي توجد فيه تخلف وراءها آثاراً ايجابية أو سلبية، فالرياح والمطر يمكن أن تكون ذات أثر طيب على الإنسان والحياة (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) الحجر:٢٢ وقال تعالى (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ) (النحل:١٠) ويمكن أن يكون لها أثر مدمر على الإنسان والحياة (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) يونس:٢٢ (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) البقرة:٢٦٦ وما يصيب الناس من جرائها هو بلا شك من الضر (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) الروم:٣٣

السؤال الآن: هل نستطيع القول بأن ما يصيب أصاب **من مصائب وكوارث بعينها** من زلازل أو براكين أو أعاصير أو أمراض بأنه عقاب أو عذاب من الله؟.

الذي أراه: **أنه لا يجوز لنا قول ذلك، لأننا لا نمتلك وحياً من الله تعالى ينبئنا بذلك، لذلك كان من المجازفة الكبيرة ادعاء أن كارثة بعينها هي عقاب من الله تعالى على الناس، دون وحي من الله تعالى.**

ويتعلق القائلون بنسبة أي كارثة طبيعية إلى فكرة العقاب ببعض الآيات القرآنية كمثل قوله تعالى (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً) الإسراء:١٦ وقوله (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ) الأنفال:٥٢ وهذه الفكرة المستخلصة من هذه الآيات عليها بعض الملاحظات:

- أنها واردة في سياق الحديث عن أقوام أخبرنا الله تعالى بهلاكهم، وأن الذنوب كانت سبب هلاكهم.

– أما في غير ما أخبرنا الله تعالى عنه فنحن لا نمتلك أي وحي يخبرنا أن ذلك عذاب أو إهلاك من الله تعالى، وهذا هو الفارق الجوهري بين الأمرين.

وذلك لأن هذه الظواهر تعمل في هذا الكون وفق خلق الله وأمره، وفق نواميس وسنن، ومعرفة إذا ما كانت متعلقة بعذاب أو عقاب من الله أمر لا يدرك إلا بوحي منه سبحانه: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) البقرة:١٦٤

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) الأعراف:٥٧.

فالاقتصار على مجرد النظر فيما حصل من إهلاك للأمم السابقة بسبب ذنوبهم وتجاهل حركة الظواهر الطبيعية التي خلقها الله سبحانه، هو نظر جزئي في المسألة، وعليه فإن القول بأن كارثة تصيب فرداً بعينه أو جماعة بعينها عقوبة وعذاب من الله هو رأي واهن ضعيف، وفيه ما فيه من الجزم بالغيب دون دليل.

ولفهم هذه المسألة لابد من ضرب بعض الأمثلة:

(١) عندما تجرف السيول منطقة ما وتُحدث أضراراً بالغة بالبشر والممتلكات، يسارع البعض بادعاء أن ذلك عقاب من الله ويستدل بالآيات السابقة، لكنه نسي جانباً آخر من الموضوع وهو أن مناخ تلك البلاد مناخ ماطر، وهذا هو خلق الله (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ) النحل:١٠، وبالتالي تعرض تلك البلاد باستمرار للأمطار الغزيرة لا شأن له بصلاحهم أو فسادهم. فهل إذا صلح أهل تلك البلاد ستتغير طبيعة المناخ؟.

هل ستتغير مناخات فيضان الأنهار في البلدان التي تعاني من الفيضانات؟ بنجلاديش مثلاً تعاني باستمرار من فيضانات الأنهار التي تقتل وتشرد بسبب الطبيعة المنخفضة لأراضيها، وذات المشكلة موجودة في هولندا، لكنهم في هولندا استطاعوا تجنبها بعمل سدود على البحر جنبتهم مخاطر فيضانات البحر وفي نفس الوقت ولدوا بها الطاقة الكهربائية.

http://www.rnw.nl/hunaamsterdam/dutchaffairs/٠٤٠٩٠٨٠١

وهل ستتغير طبيعة المناخ في المحيط الهادئ حيث الأعاصير التي تهب كل عام بما تسببه من فيضانات ورياح مدمرة؛ لأن الناس آمنوا واتقوا؟ لا نملك دليلاً على ذلك، وبالتالي على الناس في هذه الحالة، أن يؤمنوا بربهم ويعملوا الصالحات ومن بينها الاستعداد لهذه الظواهر بشتى السبل، من خلال تصميم المدن تأمين شبكات تصريف المياه وأنظمة الإنذار المبكر ونظم الإخلاء والإيواء وغيرها.

وإذا استدل أحدهم بقول الله تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) الأعراف: ٩٦، قلنا له: إن الآية تدل على ظهور الخير والبركة لإيمان الناس وعملهم الصالحات، لكن لا تتحدث عن تغيير وتبدل في طبيعة المناخ إن آمن الناس واتقوا.

(٢) وكذلك بالنسبة لمناطق أحزمة الزلازل، فالمناطق التي تعاني من ضعف في القشرة الأرضية تكون عرضة للزلازل بين حين وآخر، وهذه الطبيعة لا تتغير لصلاح الناس أو فسادهم، وهذا خلق الله.

انظر في هذه الروابط:

http://www.iu.edu.sa/edu/mutawasit/geo١_٧.htm
http://japan-saito.blogspot.com/١٠/٢٠٠٦/blog-post_٢٥.html

اليابانيون من أفضل من فهم هذه الطبيعة الزلزالية لبلادهم، لذلك فقد اهتموا كثيراً بالبحوث والدراسات التي تعنى بتصميم المنازل والبنايات والجسور التي تصمد أمام الزلازل، لذلك عندما يحدث الزلزال في اليابان تنخفض الخسائر البشرية والعمرانية إلى أقصى حد ممكن مما يحدث عند غيرهم.

انظر هذا الرابط:

http://www.daleel-malaysia.com/vb/showthread.php?p=١٢٤٢٩٧

بينما بلاد المسلمين التي تقع ضمن حزام الزلازل تكون الخسائر فيها مروعة، والأمثلة على ذلك كثيرة، وآخرها زلزال "بلوشستان"، والفقيه لديهم يقرعهم بآيات العذاب، لكنه لم ينبههم يوماً في فتاواه ومواعظه بأن يستعدوا لذلك بمراعاة البناء الذي يصمد في وجه الزلازل، ولا أدري ما السبب الذي يجعله يحجم عن ذلك؟.

(٣) الأمراض التي تصيب الأفراد، هل نستطيع القول إن فلاناً بعينه مصاب بمرض كذا عقوبة من الله؟، كأن يصاب شخص بالسرطان أو الملاريا أو الكبد الوبائي أو الفشل الكلوي، قال الله تعالى (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) البقرة: ١٥٥ ، فالبلاء يحل بكل أحد مؤمناً كان أو غير مؤمن، تقياً كان أو غير تقي، وادعاء أن ذلك البلاء بعينه عقوبة من الله يحتاج إلى وحي من الله، وأنى نصل إلى ذلك.

– أما كون (**نفي أن تكون الكوارث الطبيعية وغيرها مما يلم بالناس عقوبة على جرائم ارتكبوها يهون تلك الجرائم في نفوس الناس، وقد يدعوهم الأمن من العقوبات إلى المضي قُدماً في ممارستها، مع أن الله عجّب عباده من أولئك الذين يتجرأون على ارتكاب الموبقات**) اهـ كتاب العقل ص١٧٦.

فالجواب عليه: أنه لا ارتباط بين الأمرين

فالله تعالى حذرنا من المعاصي وألزمنا التوبة منها والتخلص من تبعاتها، وجعل الآخرة هي دار الجزاء على ما نفعله من خير أو شر، وهذا كاف لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

نعم نستطيع أن ندعو الناس في المحن ونزول البلاء إلى مراجعة النفس والاستفادة من وقت البلاء للرجوع إلى الله والإنابة إليه دون اقتحام منطقة الغيب بادعاء أن ذلك عقاب وعذاب من الله، وهذه الدعوة للرجوع إلى الله والإنابة إليه ومحاسبة النفس تكون في الخير والشر (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) الأنبياء ٣٥، فنحاسب النفس وندعوها لملازمة التوبة والإنابة عندما تفتح لنا الدنيا ذراعيها وتغدق علينا الأموال ونسكن القصور العامرة ونركب السيارات الفارهة، الأمر كذلك عند الجوع والخوف ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين.

إعصار جونو وفيضانات ميزاب

وفي هذه الحلقة سوف نتحدث عن كيفية معالجة الشيخ الخليلي لكارثة إعصار جونو التي مرت بعمان في يوم الأربعاء ٦ يونيو ٢٠٠٧م.

(١) خطاب الشيخ الخليلي في برنامج "سؤال أهل الذكر" في ١٧/ ٦/ ٢٠٠٧م، أي بعد حوالي ١١ يوماً من (إعصار جونو) جاء وفق منطق أن ما حدث هو عقاب وعذاب من عند الله تعالى، فبعد أن سأله المذيع سيف بن سالم الهادي عن سلوك المسلم مع هذه الأقدار والتعامل معها كان مما قاله: (ونحن نرى في كتاب الله سبحانه وتعالى ما يدل على أسباب البلاء، وما يدل على ما يرفع البلاء.

الله سبحانه وتعالى يقول: " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ"

"أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ، أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ،أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ".

علينا أن ندرك أن الله غيور على حرماته، فنحن إن لم نغر على حرمات الله فجبار السماوات والأرض لابد من أن يغار عليها، لذلك كان علينا أن نقف موقف المحاسب الدقيقة لأنفسنا أمام هذه التصرفات.

وأعظم شيء أن تستشري المعصية وتنتشر من غير أن تغير، الأمر المعروف والنهي عن المنكر هما صمام الأمان لحياة الإنسان الدنيوية والأخروية...) اهـ

ثم قال: (ونحن نرى أن الله تعالى يقص علينا في كتابه أنباء الأمم من قبل من تغيير الله وبطشه بهم " وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ" ...

كان الواجب على الناس أن يقبضوا على أيدي الذين يفسدون في الأرض حتى لا يعود إليهم عقاب عملهم، يقول الله سبحانه "وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا، وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا") اهـ

(وكم يلفت القرآن الكريم انتباه الناس إلى الأمم التي بادت والأمم التي أصابها ما أصابها من عقاب الله بسبب اجترائها على الله سبحانه وتعالى "أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ" ...) اهـ

ثم قال في صراحة: (فإذن هذه ذنوبنا التي جرت علينا، وتركنا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح) اهـ

تخيلوا هذا النوع من الخطاب الذي يلقى إلى الناس، وهم لا يزالون يعانون من جروح غائرة، منهم من فقد الأهل والإخوان، ومنهم من فقد بيته الذي يأويه وأهله، ومنهم من دمر منزله وصار يحتاج لإعادة ترميمه وإصلاحه، ومنهم من لا يزال في الأماكن المخصصة للإيواء في أوضاع إنسانية لا يرضاها أحد، وفي خضم ذلك يأتيهم من يزيد الطين بلة ويحملهم مسؤولية ما حدث!!، هذا الخطاب –مع إفتراض حسن النية ونبل المقصد– كان أقرب إلى الشماتة في الناس، ومثله تماماً إذا ما أصيب إنسان بمرض –ونفترض أننا نكره هذا الإنسان– فنسارع إلى القول بأن ذلك عقاب من الله على كذا وكذا، هذا الأمر في نظري ينطوي على شماتة في هذا الإنسان، وكان الواجب التخفيف عنه ومواساته ودعوته إلى التحلي بالصبر واللجوء إلى الله تعالى والفزع إليه، مع التداوي وطلب العلاج.

وهذا للأسف ما حصل من عدد من خطباء الجمعة في يوم الجمعة: ٨/ ٦/ ٢٠٠٧م، أي بعد يومين من الآثار المدمرة للإعصار، فقد صبوا جام غضبهم على الناس البسطاء المساكين–الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً– وحملوهم وزر ما حصل.

وأنا لا زلت أتساءل منذ تلك الأيام: لو كانت تلك المآسي قد أصابت هؤلاء الذين تحدثوا بمثل هذا المنطق وقتها –ونسأل الله تعالى لهم ولكافة المسلمين السلامة من كل سوء– هل كانوا سيتحدثون بمثل هذا المنطق؟! مجرد سؤال.

(٢) تفسير الظاهرة تفسيراً عجيباً! ، ففي برنامج "سؤال أهل الذكر" في ١٧/ ٦/ ٢٠٠٧م، أي بعد حوالي ١١ يوماً من (إعصار جونو) سأل أحد المتصلين: (هل رؤيا الطبق الأخضر للشاب الصالح التي ذكرها سماحة الشيخ حفظه الله في احدى محاضراته قد تحققت؟.

الجواب: كانت رؤيا في الأيام السابقة ونبهنا عليها في محاضرة، ولا ريب أن الغيب لله تعالى، ولا ندري ما في ضمير الغيب، إنما رؤيا المؤمن كثيراً ما تجسد الواقع المنتظر، وكثيراً ما تكون إما تبشيراً أو إنذاراً) اهـ

هنا يقدم الشيخ الخليلي تفسيره للظواهر الطبيعة وكيفية التعامل معها!، من خلال المنامات والأحلام، وبعد أن أنهى الشيخ الخليلي إجابته حول (رؤيا الطبق الأخضر)، استدرك المذيع سيف الهادي بسؤال الشيخ الخليلي عن الأجهزة الرسمية التي (حذرت ونبهت قبل مجيء الإعصار، بعض الناس تهاونوا بتلك الإنذارات ولم يأخذوا الموضوع بمأخذ الجد على اعتبار أن الأمر غيب ربما يأتي وربما لا يأتي ومن هذا القبيل ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه عندما يرى سحابة يتغير وجهه، ما الذي يجب على المسلم في مثل هذه الأحوال عندما يسمع تحذيراً أو إنذاراً ؟) اهـ (من برنامج سؤال أهل الذكر) فكأن سيف الهادي خاف أن تخرج رسالة من البرنامج مفادها أن التحذير من الإعصار جاء بالمنامات والأحلام، لذا سارع بطرح سؤال حول التحذيرات الرسمية من الإعصار قبل أيام من قدومه.

أما عن رؤيا (الطبق الطائر الأخضر)؛ فهي عبارة عن رؤيا ذكرها الشيخ الخليلي في محاضرة ألقيت بمسجد (التوبة) بالغبرة في ١٧/ ٩/ ٢٠٠٠م وقال فيها: (**قبل فترة من الزمن اتصل بي شاب ثم جاءني بنفسه بعد أيام من هذا الاتصال، فسمعته ونبرة الصدق تبدو في حديثه، ورأيته وغرة الإيمان ترتسم على محياه، ذكر لي أنه رأى رؤيا منذرة، يقول بأنه رأى طبقاً طائراً أخضر، يقوده شخصان أخضران، وانفتح الطبق، فبدا منه شخص عليه من الأنوار ما لم ير مثله، وكان في قرارة نفسه إن الذي رآه ملك من ملائكة الله تعالى، قال له: إن الناس يوشك أن يأخذهم عذاب من عند الله، بسبب خمسة أمور وهي: الزنا، واللواط، ومجامع الخمر، وأكل الربا، وعقوق الوالدين**) اهـ، انظر: جرس الإنذار، أحمد بن حمد الخليلي، ط مكتبة الضامري، ٢٠٠٥م.

(٣) خطاب الشيخ الخليلي حول إعصار جونو تجاهل أي أثر للأخطاء الإدارية في التسبب بما حصل من خسائر في الأرواح والممتلكات، وحصر الأمر في (عقاب وعذاب من الله)، فلم يتطرق الشيخ الخليلي للنقاط التالية (وهي على سبيل المثال لا الحصر):

- شبكات تصريف المياه، وبالذات في محافظة مسقط، لا سيما وأن المنطقة تتعرض بين فترة وأخرى لسيول جارفة ومدمرة، وذاكرة المجتمع تختزن كل هذه التجارب، فلم يعط هذا الأمر أي اهتمام طوال سنوات عديدة، فلما سالت الأودية لم تجد لها منفذاً فزادت من معاناة الناس وتسببت في المزيد من الخسائر، ولا أدري لماذا يهمل الفقهاء دائماً مثل هذه المفردات في خطابهم.

- ضرورة مراعاة قوة دفع المياه في تصميم الجسور والطرق، فهناك تجارب لدول كثيرة استطاعت تجاوز هذا الأمر، وتقليل الخسائر إلى أقصى حد ممكن، وشارع وادي عدي نموذج حي على عدم الانتباه لهذا الأمر، والآن ينبى الطريق من جديد، فنرجو أن ينتبه القائمون على الأمر لهذه النقطة بالتحديد، ويستعينوا بأهل الخبرة من أبناء المجتمع.

- إدارة الأزمة ذاتها، فهناك مناطق أصابها الإعصار بأضرار بالغة ظلت معزولة عن العالم الخارجي لعدة أيام (ولاية قريات نموذجاً)، وهذا عكس أمراً أشد منه، وهو أن المسؤولين عن إدارة الأزمة بقوا في حالة من الصدمة والذهول من هول ما حصل، ولم يعودوا قادرين على فعل شيء لعدة أيام، حتى أفاقوا من ذهولهم وصدمتهم وبدأوا في العمل لرفع آثار الإعصار وقاموا بجهود يشكرون عليها.

- البناء في الأودية، وما أدراك ما أودية عُمان، إنها عندما تنزل مياهها بدفقها الطبيعي تكون أنهاراً تحطم وتدمر كل ما يقع في طريقها.

كل هذه الأمور وغيرها لم يتطرق إليها الشيخ الخليلي في الحلقة الشهيرة من برنامج "سؤال أهل الذكر" بعد ١١ يوماً من الإعصار، واكتفى بمجرد اعتبار ذلك (عقاب وعذاب من الله)، وأن صاحب رؤيا "الطبق الأخضر الطائر" قد تنبأ بها.

وبصدور كتاب "العقل" في هذا العام، كان من المتوقع أن يكون ما حدث في إعصار جونو مادة خصبة لنقاشات الشيخ الخليلي عن "ارتباط النعم والنقم بحال الإنسان استقامة وانحرافاً" لا سيما وأنه قد أشار إليها في محاضرته في ٣/ ١٢/ ٢٠٠٧م والتي كانت هي المادة الأساية لكتاب "العقل"، فقال يومها: (نحن أمة- بحمد اللهِ - نعتزُّ بكتاب ربنا، ونعتزُّ بهديِ نبينا صلى اللهُ عليهِ وسلَّم، مع أنَّ هؤلاءِ الناس بدرت منهم بوادر، حتَّى دلَّتْ على الاستخفافِ بالقرآنِ، والاستخفافِ بالرسول عليهِ وعلى آلهِ وصحبهِ أفضل الصلاةِ والسَّلامِ، دلَّتْ على الاستخفافِ بالقرآنِ، نفسُ هذا الرجل الذيْ تولَّى كِبْرَ الدعوةِ إلى هذا الأمرِ ، كان بينه وبين أحد ، عندما أُشِيْع - قبل أن تحصُل حالات الأنواءِ التي حصلتْ عندنا هنا في السلطنةِ - أُشِيْعَ بأن هنديَّاً تنبَّأَ بأنه سيكونَ طوفان في البلادِ، وَيُغْرِق مناطقَ من البلادِ، وكان ذلك قبل ميقاتِ ما حصل، فكان الحديثُ ما بين هذا الرجل وبين الآخر، قال: لئن كان حصل هذا الطوفان سنقرأُ عليهِ - يتهكَّمُ يقولُ هكذا

– سنقرأُ عليه وسيسكن، يعني يتهكَّمُ بقراءةِ كتابِ اللهِ سبحانه وتعالى، سنقرأ عليهِ وسيسكن، وقلتُ له ما بلغني في الحوارِ الذِي كان بيني وبينهُ ولم يُنْكِرْ ذلِكَ) اهـ (انظر نص المحاضرة في منتديات فرق ومنتديات المجرة)، وقد صدرت في أشرطة سمعية عن: تسجيلات الهلال الإسلامية.

لكن الذي حدث أن الشيخ الخليلي **أعرض تماماً عن ذكر "إعصار جونو" ضمن مادة الكتاب**، لكنه لم ينس الذي يسميه "تولى كبره" فقال عنه في ص١٥٥-١٥٦ عند حديثه عن "قصة التيتانك" : (فكم ردد الذي تولى كبر هذه الدعوة منهم قصة السفينة العملاقة؛ التي أنشئت في أوائل القرن المنصرم وسميت "التيتانك" أي المارد، وذكر أكثر من مرة أن غرقها ما كان إلا عقوبة ما أصاب أهلها من الغرور والعجب بها...) اهـ.

وقد ذكر الشيخ الخليلي عند حديثه عن هذه المسألة ثلاثة أمثلة وهي:

– قصة السفينة تيتانك وغرقها

– قصة طفل ينجو على مخدة وسفينة تغرق

– قصة بيت مشعوذ تبتلعه الأرض

السؤال الآن: لم أعرض الشيخ الخليلي عن الحديث عن "إعصار جونو" مثالاً على "ارتباط النعم والنقم بحال الإنسان استقامة وانحرافاً"، مع تعاطيه المكثف له في حلقة برنامج سؤال أهل الذكر في ١٧/ ٦/ ٢٠٠٧م، وإشارته له في ٣/ ١٢/ ٢٠٠٧م في محاضرته الشهيرة بالجامعة؟.

التفسير الذي أراه: **هو أن دخول جلالة السلطان قابوس على الخط في هذه المسألة في يوم ٢٧ من شهر إبريل عام ٢٠٠٨م وتصريحه بما يرفض هذا التفسير الذي طرحه الشيخ الخليلي فيما يخص إعصار "جونو"؛ قد أوقع الشيخ الخليلي في مأزق حرج**، وذلك في حديث جلالته مع صحيفة السياسة الكويتية، وهذا الجواب المتعلق بموضوعنا:

(السياسة: سيدي جلالة السلطان: عندما جاء الاعصار الاخير "غونو" يقال إنك رفضت اي مساعدات، فهل هذا يندرج تحت بند انكم لا تريدون منة يلحقها اذى؟.

جلالة السلطان: ليس الموضوع بهذا الوصف، فنحن لم نرفض بالشكل الحاد المطروح في سؤالك، لكن عندما حصل الاعصار وجدنا أنفسنا مع شعبنا قادرين على حصر نتائج الكارثة، وأردنا أيضا أن نجرب قوتنا امام مثل هذه الكارثة، فشعبنا خضع للتجربة، وأقول لك: أننا نجحنا فيها، وهذه التجربة ايقظت الناس، والشعب العماني وجدناه لحمة واحدة واستطاع ان يقوم بالواجب الذي كنا

ندعو اليه دائماً، **فهناك مع الأسف من فسر هذه الكارثة على أنها عقاب إلهي، وهؤلاء يفسرون بعيداً عن مقاصد الشريعة**، وهذه القضية دعنا نأخذها على أنها تحذير إلهي ليتهيأ للناس بأن الحياة ليست دائماً من دون مصاعب، وأن عليهم أن يستعدوا لكل ما يقدر لهم، فهذا طبيعي، وعلينا ان نقول دائماً: الحمد لله على ما قدر ولطف.. فهناك دول أخرى، نجد أن هذه الكوارث الطبيعية عندها دائمة وليست استثناء، أما ما حدث عندنا، وربما يحدث مرة أو مرتين، نعتبره استثناء إذا ما قسناه بغيرنا ممن تقع عندهم الكوارث بشكل سنوي أو متعدد، ولقد واجهنا هذه الكارثة بتعاون عال من المشاعر الوطنية، وكنت أشد الناس سروراً لتعاون الشعب العماني على تجاوز نتائج هذا الإعصار دون هلع أو فزع أو فوضى وبقلوب مطمئنة) اهـ. انظر نص اللقاء على هذا الرابط:

Alseyassah Kuwait

وبسبب ذلك وجد الشيخ الخليلي حرجاً كبيراً في طرح مثال إعصار "جونو" في كتاب "العقل" بعد كلام جلالة السلطان، الذي اعتبر من يقول بذلك يفسر الأمور بعيداً عن مقاصد الشريعة. وبدلاً من إعصار جونو أطال الشيخ الخليلي في مثال "السفينة تيتانك" وما حل بها.

وللحقيقة: فإن جلالته لم يقدم نفسه يوماً فقيهاً أو مفتياً وهذا أمر معروف للجميع، لكنه-شأنه شأن أي مواطن- رأى أن الواجب يحتم عليه قول ما قاله، بعدما صدم الناسُ لما سمعوه في الداخل والخارج في شأن ما حل بالبلاد في إعصار "جونو".

- أما عن فيضانات وادي ميزاب؛ فهي فيضانات حلت بهذا الولاية الجزائرية يوم عيد الفطر المبارك ١٤٢٩هـ:

الفيضانات العارمة التي إجتاحت غرداية *- صور عدستي -* - منتديات الجلفة لكل الجزائريين و العرب

- فيضانات غرداية... من قلب الكارثةveecOs.net
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/٥٤CAEC٨B-D٥F٩-٤٣٤٧-٥A-٥٣٩DA٠٥٧٠E٥٢٢E.htm?wbc_purpose=B
::.www.irwane.org.:: الصفحة الرئيسية

حيث بلغت الفيضانات إلى ارتفاع ٨ أمتار في بعض النواحي كما تذكر بعض المصادر في الروابط التي أوردناها، مسببة خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات، ووادي ميزاب منطقة تسكنها أغلبية إباضية، وبينها وبين إباضية عمان علاقات تاريخية قديمة.

ولما وقع ما وقع لسكان وادي ميزاب يوم عيد الفطر من هذا العام، لم يتكلم الشيخ الخليلي بمنطق أن ذلك عذاب وعقاب من الله تعالى، رغم أنه تكلم بمثل هذا المنطق عما حصل في إعصار "جونو" في سلطنة عمان مع أن ما حصل في ميزاب لا يقل في خطورته وآثاره التدميرية عما حصل في "جونو"، وتفسير ذلك واضح، أن الناس في ميزاب تحترم الشيخ الخليلي لكنها لا تقدسه كما يفعل الكثيرون في بلادنا، فحديث الشيخ الخليلي بهذا المنطق في حقهم سوف يؤدي إلى إغضابهم بشدة وحصول جفوة في علاقاتهم بالشيخ الخليلي، وهذا بدوره يؤذن بانفضاضهم عنه، ومن يعرف الجزائرين عموماً والميزابين خصوصاً يدرك هذا الأمر بسهولة.

أمثلة تطبيقية

ذكر الشيخ الخليلي ثلاثة أمثلة على "ارتباط النعم والنقم بحال الإنسان استقامة وانحرافاً" وهي:

- قصة السفينة تيتانك وغرقها
- قصة طفل ينجو على مخدة وسفينة تغرق
- قصة بيت مشعوذ تبتلعه الأرض

انظر كتاب "العقل" للشيخ الخليلي ص ١٥٧-١٧٥.

(١) قصة السفينة تيتانك وغرقها

وهي قصة يعلمها الجميع، بسبب الضخ الإعلامي وتناوله الدائم لها في القصص والمجلات والصحف والمسلسلات والأفلام وغيرها، وقد احتلت قصة "التيتانك" الصفحات من ١٥٧ إلى ١٧٢ من كتاب "العقل"، ولم أجد داعياً لإيرادها، فهذه الحادثة حصلت ودُرست أسباب الغرق واستفاد الناس منها، وحاولوا تجنبها، فالسفن الحديثة الآن لديها "رادارات" متطورة تنذرها بوجود الجبال الجليدية، ووسائل دراسة الطقس والمناخ تطورت كثيراً عما كان أيام التيتانك في بدايات القرن

العشرين (١٩١٢م)، وها هي السفن التي تفوق "التيتانك" حجماً تجوب البحار كل يوم، وما تزال كل تلك المصائب والأمور التي قيل إنها تسببت في غرق "التيتانك" تمارس فيها!، نعم قد تحصل حوادث بين الفينة والفينة، لكن كل ذلك مع وجود (السير في الأرض والنظر) ينخفض كل يوم، وها هي حاملات الطائرات تطوقنا من كل مكان، وعلى مسافة قريبة منا ترسو سفن وحاملات طائرات الأسطول الأمريكي الخامس في البحرين، ومن خلال هذه القوة تفرض الولايات المتحدة سياساتها.

ماذا تعني لنا "التيتانك"؟، بالنسبة لغيرنا هي حادثة استفاد منها:

- منتجو الأفلام الذين كسبوا المليارات من وراء الترويج لقصتها.
- مهندسو ومصممو السفن العملاقة الضخمة، لتجنب الأخطاء التي تصاحب الأخطار في البحر.
- واضعو القوانين، بوضع قوانين تنظم عملية الإنقاذ البحري وما يترتب عليه.

أما عندنا، فكانت الاستفادة محصورة في أن ذلك "عذاب وعقاب من الله"، وبغض النظر عن كون ذلك صحيحاً أو لا، وقد قلنا إننا لا نستطيع اختراق حجب الغيب للقول بذلك، لكننا لم نصنع شيئاً...لم نطور شيئاً ... لم نعدل شيئاً...

ماذا سنستفيد إذا صرخنا بأعلى الصوت: إن ما أصاب "التيتانك" عذاب من الله؟ والأجيال تنشأ لدينا وترى كل يوم ما هو أقوى وأحدث وأكثر تطوراً من التيتانك...هؤلاء القوم صاروا يستفيدون من الأخطاء ويعدلون ويطورون تجاربهم الإنسانية وفق منهج (السير في الأرض والنظر)، ولا يزالون يمسكون بزمام الحضارة الإنسانية.

المطلوب منا بدلاً من هذا الكلام الانتقال من محاولة اكتناه عالم الغيب، أن نتناولها وفقاً لقواعد عالم الشهادة (بالسير في الأرض والنظر).

(٢) قصة طفل ينجو على مخدة وسفينة تغرق

وهي قصة أوردها الشيخ الخليلي في كتاب "العقل" وملخصها أن طفلاً صغيراً نجا على مخدة نوم سبحت به بين الأمواج العاتية والأعاصير الهوجاء حتى وصلت به بر الأمان سالماً، في حين قضت تلك الأعاصير على الآلاف من البشر.

انظر كتاب "العقل" ص١٧١، وقد ذكرها كذلك في ص١١٢.

والشيخ الخليلي يقصد بهذه القصة ما حصل في المد البحري "تسونامي" الذي حصل في أواخر عام ٢٠٠٤م، وعلق عليها الشيخ الخليلي بقوله: (فليت شعري بأي تفسير مادي يفسر منكرو الخوارق هذا الحدث الغريب؟ أيقذف البحر الهائج بأمواجه المتلاطمة سفينة فيخرجها عن محيطه الطبيعي تلك المسافات السحيقة في البر كما تعصف الرياح بالريشة الخفيفة، وتكون به نجاة هذا الطفل بهذه الطريقة المحيرة للألباب) اهـ انظر ص ١٢٢ من كتاب العقل.

أقول: ليس مهماً أن يكون لديك تفسير جاهز لأي ظاهرة طبيعية، المهم أن تبحث عن هذا التفسير، وهذه النقطة هي مرتكز العلوم الطبيعية من الفيزياء والكيمياء والأحياء وعلوم الأرض وغيرها، فالبحث فيها لا ينقطع ولا يتوقف، فهذه القصة أو غيرها كان لابد أن تثير لدى مراكز البحث العلمي لدينا في عالمنا الإسلامي-لا أدري إن كانت موجودة!- للبحث في الأسباب التي تؤدي إلى حصول مثل هذه الحوادث، فتضيف الكثير إلى المعرفة الإنسانية، وهذا كله دراسة للكون الذي خلقه وسيره الخالق تبارك وتعالى بلطفه وحكمته.

وبالطبع هذه الدراسات تكون في المعامل والمختبرات، وأحياناً تكون على أرض الواقع بدراسة أرضية الأحداث وطبيعتها وتكوينها والظروف التي صاحبت الحدث.

والشيخ الخليلي بحكم نشأته وتكوينه المعرفي يصعب عليه فهم كل ذلك-وهذا ليس عيباً- فكل جيل له معارفه وقناعاته، ولكنه بدلاً من إحالته مثل هذه القضايا إلى البحث والدراسة العلمية نقل الموضوع لتحد غريب فقال: (فإن أصر هؤلاء على عنادهم وادعوا -كما هو ديدنهم- بأن ذلك يرجع لأسباب طبيعية مألوفة فإنني أتحداهم أن يقذفوا بأولادهم بين أمواج البحر العاتية على مخدات تقطع بهم تيارها حتى تصل بهم بر الأمان، وإن شاءوا فليجربوا بأنفسهم بأن يقتحموا لججها على فرش أوسع من المخدات، وإلا فليدركوا أنهم يجادلون بغير برهان) اهـ (كتاب "العقل" ص١١٣).

(٣) قصة بيت مشعوذ تبتلعه الأرض

والقصة حدثت بجزيرة زنجبار كما يرويها الشيخ الخليلي: (تواتر إلى سمعي من أخبار الناقلين أن بيتاً صغيراً كان متخذاً مركزاً للشعوذة وغيرها من قبائح الأعمال التي تسخط الله تبارك وتعالى، وكان الناس يرتادونه من أجل هذا، فإذا بهم في أحد الأيام وفي وضح النهار يحسون برجفة تشمل

جوانب البيت، فخرجوا منه مسرعين، فما كانت إلا لحظات يسيرة حتى ابتلعته الأرض بما فيه، فتغلغل في عمقها قدر أربعين وغطته طبقة من الماء وظلت مكانه حفرة موحشة، وقد ذهبت إليه بنفسي عندما زرت زنجبار بعد هذا الحدث ورأيت هذا المشهد، وكان هناك مسجد ملاصق لذلك البيت ولم يصب بأي شيء ما عدا بعض الآثار الطفيفة التي لحقت الشاذروان المحيط بجداره، أولا تعد هذه من آيات الله التي فيها عظة لمن كان له قلب؟!) اهـ (كتاب "العقل" ١٧٥-١٧٦).

هذه القصة لي معها وقفات:

- هل يمتلك أحد وحياً من السماء أن هذا الحدث بعينه عقاب وعذاب من الله؟، ما يفعله ذلك المشعوذ محرم، وكون ما حصل له مما يتعظ به صحيح، فلو حصل لأي فرد ولو كان صالحاً لكان عظة لأي أحد، فالإنسان يتعظ مما يجري خيراً كان أو شراً، وأياً كان من وقع عليه، لا جدال في ذلك.

- لم يوضح لنا الشيخ الخليلي ما طبيعة هذه الأرض حتى تبتلعه؟، الحقيقة لمن عرف زنجبار أن فيها أراض طينية زلقة، والمياه فيها وفيرة، وتحصل فيها العديد من الانزلاقات الطينية، ولو كنا ممن نتابع (البرامج الوثائقية) على مختلف القنوات لعلمنا ما يمكن أن تحدثه الانزلاقات الطينية من طمر وغمر للمنازل حتى كأنما تبدو أن الأرض تبتلعها، وهذه الانزلاقات التي تحدث في المناطق الطينية كثيرة المياه تصيب المشعوذ وتصيب المؤمن وتصيب الطفل الصغير، فأي هؤلاء نجزم بأن العذاب واقع عليه؟!.

- شاهدت لسنوات العديد من البرامج الوثائقية عن الانزلاقات الطينية، لكن استبعد كثيراً أن ينزل المنزل في باطن الأرض لـ ٤٠ متراً !، فهذه مسافة ليست بالهينة، فهل حفروا المكان واستخرجوا الجثة ووجدوه على عمق ٤٠ م، القصة لم تحك لنا هذه التفاصيل ... يعني ٣م ، ٤م قد تكون مقبولة أكثر، لا سيما أن الشيخ الخليلي نقل هذه التفاصيل عن عوام الناس الذين كثيراً ما يبالغون، ولم يعاين المكان إلا بعد مدة من وقوع الحدث.

وهذه آفة كثير من هذه القصص التي تروى عن عوام الناس الذي كثيراً لا يضبطون ما يروون، وقصص الكرامات -على سبيل المثال- ما هي إلا نتاج لهذه الأوهام التي تعتري الناقلين.

وقبل أنهي هذا الفصل أحب أن أشيد بمقالة نشرت في جريدة الوطن العمانية على موقعها الالكـتروني في يوم الاثنين ١٧ جمادى الثانية ١٤٢٨هـ الموافق ٢ من يوليو ٢٠٠٧م.العدد(٨٧٤١).السنة الـ٣٧ على الرابط:

Alwatan.com

وهي بعنوان : (رب محنة أعقبت منحة)

وهي لـ حمد بن سليمان بن ناصر المعولي

مشرف تربية إسلامية ـ مسقط

وهي مقالة جيدة في الإجمال، وطرح المعولي طرح إيماني تربوي، تجاوز قضية (العقـاب والعـذاب) إلى الدروس المستفادة من الإعصار، وهذا ما نشجع عليه ونتمنى أن يحذو الجميع حذوه.

الفصل السابع

الرقية والعين

القرآن شفاء ورحمة

قال الشيخ الخليلي في ص٢٨٠ من كتاب "العقل" : (وبسبب هذا الغرور اندفعوا إلى إنكار كثير من الحقائق التي لم يحيطوا بها علماً، لأنهم يتصورون أن كل ما خرج من دائرة معلوماتهم فلا حقيقة له، ومن ذلك إنكارهم الرقية الشرعية بالقرآن الكريم، أو بأسماء الله الحسنى، فإنهم بالغوا في إنكار أن لا تكون في كتابه أو لأسمائه الحسنى بركة يستشفى بها من مرض، أو يدفع بها مكروه) اهـ

في هذا النص يحاول الشيخ الخليلي أن يُجلل ما يُروى عمن يرد عليهم برداء أسود؛ لا ترى فيه سوى الكآبة والظلمة، لكنه لم ينقل عنهم نصاً واحداً في هذا الموضوع، فهو صور الأمر على أنه:

- محض غرور

- إنكار الحقائق خارج دائرة معلوماتهم. (ومصطلح "إنكار" من أكثر المصطلحات التي شاعت في كتاب "العقل" في الرد على مؤلفي كتاب "الإيمان").

- إنكار الرقية الشرعية بالقرآن الكريم، أو بأسماء الله الحسنى.

- وفي عبارة أخرى له: (بالغوا في إنكار أن لا تكون في كتابه أو لأسمائه الحسنى بركة يستشفى بها من مرض، أو يدفع بها مكروه).

أي قارئ لمثل هذا الكلام سوف ينفر ممن يقول بهذه الأقاويل، لكن نتساءل أين الكلام الأصلي لمن تنسب إليهم هذه الأقاويل؟!.

أنقل للقارئ كلام مؤلفي كتاب "الإيمان" ص٣٥٣-٣٥٥ : (فالشفاء في قوله تعالى: "وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَاراً" الإسراء:٨٢ لا يعني الشفاء من الأمراض الجسدية، ومجرد الاعتماد على الإطلاق في الآية وحده لا يكفي، فالقرآن لم يذكر حدوث شفاء من أمراض جسدية بقراءته، إنما ركّز على أن الهداية والسعادة في اتباعه "الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ" إبراهيم:١ "وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ" الزمر:٥٥.

فما جاء في كتاب الله العزيز في باب "الشفاء" هو أن القرآن شفاء معنوي، أي يعالج أمراض النفوس ويصلح أوضاع الإنسانية بتشريعاته وهدايته:

– "يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ" يونس:٥ .

– "ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ "البقرة:٢.

– "شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ" البقرة: ١٨٥.

– "وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" الأعراف:٥٢.

– "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ" فصلت:٤٤.

وإذا لم نكن ظاهريين ونحصر أنفسنا في حدود الدلالة اللغوية للفظة "شفاء" فالقرآن شفاء من الأدواء العقدية والسلوكية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ونحوها مما تعاني منه البشرية إذا طُبِق وعُمِل بالقرآن "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً" الإسراء:٩.

ثانياً: لابد من النظر الكوني وإعمال المنهج التجريبي لفهم "الشفاء" الوارد في الآية "وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ"، فنحن نعلم أن قوله تعالى في شأن العسل حق لا ريب فيه "يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" النحل: ٦٩، لكن هذا الشفاء من خلال المنهج التجريبي القائم على التجربة والملاحظة والاستنتاج يؤدي بنا إلى اعتبار الخاصية العلاجية للعسل في أمراض بعينها، ولذلك ينبغي ألا نهمل هنا الكشف العلمي الذي أمرنا الله باتباعه، ولا يمكن لأي عاقل اعتبار العسل شفاء من كل داء، ولا يوجد دواء في العالم إلى يومنا هذا يشفي من كل داء.

وكذلك القرآن جعله الله هداية للناس وتشريعاً لهم، به تستقيم حياتهم، أما الأمراض الجسدية ككسور العظام والجروح والحروق والتسمم والسرطان والإيدز والكوليرا والملاريا ونحوها مجالها الكشف والبحث العلمي القائم على التجربة والملاحظة، قال تعالى: "قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ" يونس:١٠١، أي يا أيها الناس انظروا فيما بثه الله تعالى في الكون، وهذا النظر هو الذي سوف يوصلكم إلى العلاج أو أي أمر آخر في عالم الشهادة، وهذا ما دأبت عليه البشرية منذ القدم، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: (ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً)، وذات الوجع أو الحمى التي جاء الحديث أنها مما يرقى فيه المريض فإن النبي أمر بالتداوي منها.

فقد روى الربيع: عن ابن الزبير أن أسماء بنت أبي بكر إذا أُتِيت بامرأة قد حمت تدعو لها، وتأخذ الماء، وتصبه بينها وبين جيبها، وقالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نبردها بالماء"، فالنبي عليه السلام أمر بعلاج الحمى بما هو قائم على الاستفادة من الخبرة الإنسانية في المعالجة الطبية، وفعل الصحابية الجليلة أسماء بنت الصديق رضي الله عنهما يدل على فهم عميق للدين، فهي بدعائها للمريضة بثت روح السكينة والطمأنينة في قلب المريضة، ثم داوتها بالعلاج المعروف لديهم من خلال الخبرة الإنسانية، وهذه الثنائية المكونة من الدعاء والأخذ بالأسباب هي التي غفل المسلمون عنها في العصور المتأخرة، وهذا من أهم أسباب تخلفهم الحضاري) اهـ.

هذه هي خلاصة ما يقولونه:

- القرآن شفاء للنفوس وللمجتمعات من أمراضها بتشريعاته وهدايته.

- أما الأمراض الجسدية التي تصيب الناس، فمجالها هو السير في الأرض والنظر واكتشاف العلاجات لها.

ويقولون عن الأحاديث الواردة في الرقية أنها: (من حيث الجملة مقبولة ونحملها على:

١. دعوة الناس إلى الصبر وعدم الجزع والانهيار في المرض من خلال ربط الناس في هذا الحال وكل حال بالله جلَّ شأنه،وهذا ما يطالبنا به القرآن وهو أن نظل ذاكرين لله تعالى في كل حال؛ في الصحة والمرض والعسر واليسر؛ مصداقاً لقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً" الأحزاب:٤١ .

٢. بث الطمأنينة والسكينة في النفس، فالقرآن الكريم مما تطمئن به النفوس، قال الله تعالى: "أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" الرعد:٢٨، ومن المعلوم أن هذه السكينة والاستقرار النفسي ستعودان على المريض بمردود إيجابي من الناحية العضوية، كما أن الاضطراب النفسي يمكن أن يعود على الإنسان بالأوجاع والأسقام) اهـ كتاب "الإيمان" ص ٣٥٩.

وعليه فخلاصة رأي مؤلفي كتاب "الإيمان" أن الرقية بالقرآن ذات تأثير نفسي يعود بأثر إيجابي على الحالة العضوية للشخص، وأما الأمراض العضوية فمجالها اكتشاف الدواء من خلال (السير في الأرض والنظر)، وهذا ما فهمه جيل الصحابة، روى الربيع: عن ابن الزبير أن أسماء بنت أبي بكر إذا أُتِيت بامرأة قد حمت تدعو لها، وتأخذ الماء، وتصبه بينها وبين جيبها، وقالت: "كان رسول الله صلى

الله عليه وسلم يأمرنا أن نبردها بالماء". فعلينا أن نعمل بالأسباب: ندعو الله تعالى ونقرأ كتابه ونتداوى ونتعالج بما يسر الله به من علاج، والشافي هو الله وحده.

كلام جيد للقرطبي[٧]

قال القرطبي في كتابه "الجامع لأحكام القرآن"، ج١٠ تفسير الآية: ٨٢ من سورة الإسراء: "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً": (اختلف العلماء في كونه شفاء على قولين:

- أحدهما: أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الريب، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى.

- الثاني: شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحوه) اهـ.

القرطبي في هذا النص يحكي الخلاف الفقهي في هذه المسألة، ثم رجح القول الثاني واستدل له وانتهت القضية عند هذا الحد. فلم يتعامل الرجل –وهو مفسر وفقيه له مكانته– مع المسألة بمنطق أن من قال بخلاف ما أرى فهو مغرور ومنكر للحقائق، وتحشر هذه المسألة ومثيلاتها في الهجوم على الناس وتضليلهم وتبديعهم ورميهم بشتى التهم.

وهذه المسألة والعديد من المسائل تؤكد حقيقة ظاهرة للعيان: أن الشيخ الخليلي تتداخل لديه مسائل الدين ومسائل الرأي، وهذه حقيقة موضوعية ليس المقصد من إيرادها الإساءة إلى أحد أو الانتقاص من قدره، ولكننا أمام شواهد واضحة في كتاب "العقل" وفي غيره تثبت أن مسائل الرأي تتحول لدى الشيخ الخليلي بسهولة إلى مسائل دين، ولا أدري بالضبط ما أسباب ذلك؟.

هناك العديد من مسائل الفقه العادية يَرفع من سقفها ويحولها إلى مسائل يقطع فيها أعذار الخلق ويحكم عليهم بشتى الأحكام الصارمة القاسية، وسوف نناقش هذه المسألة لاحقاً.

وأحيل القارئ لدراسة هذه مسألة الرقية بالقرآن أو الاستشفاء بالقرآن وهي مسألة فقهية؛ إلى العديد من الكتب والدراسات التي ألفت حولها من القديم والحديث.

---

٧ هذا العنوان من وضع المرتب.

لكن تبقى جزئية واحدة وهي ما أورده الشيخ الخليلي في ص٢٨٠ - ٢٨١ من كتاب "العقل" عندما قال: (وقد عمي عليهم أن هذا مما ذكره الله في كتابه فقد ذكر الله أيوب وما أصابه من ضراء فقال: "وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) الأنبياء: ٨٣-٨٤

وذكر يونس ومحنته فقال: "وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ) الأنبياء: ٨٧-٨٨

فأنت ترى أن النبيين الكريمين عليهما السلام إنما لجآ إلى الله متضرعين إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، فنجاهما بذلك وكشف ضراءهما، فما الذي يمنع أن تسري هذه البركة لكل داع مخلص مبتهل إلى الله بأسمائه وصفاته، التي تضمنها كتابه، فيكشف الله ما به من ضر؟!) اهـ.

هذا الكلام أرى فيه تداخلاً بين مسألتين هما: الاستشفاء بالقرآن ومسألة الدعاء:

- فمسألة الاستشفاء بالقرآن لعلاج الأمراض الجسدية؛ تعني ببساطة وجود خاصية معينة في آيات الكتاب العزيز في شفاء الأمراض الجسدية، أما عموم الدعاء فهو طلب العبد من الله أن يقضي له حاجته كأن يشفيه ويعافيه من المرض.

- وعليه فالمثالان اللذان أوردهما الشيخ الخليلي لا ينطبقان على مسألة الاستشفاء بالقرآن في علاج الأمراض الجسدية، إنما يدخلان في نطاق الدعاء، وإجابة الدعاء من اختصاص الله تعالى، فهي مسألة غيبية، أي أننا مطالبون بالدعاء، والإجابة تكون بأمر الله وفق حكمته وتدبيره سبحانه، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

- وقصة نبي الله أيوب عليه السلام تؤكد على أمر في غاية الأهمية، وهي ارتباط الدعاء بالعمل، فالله تعالى استجاب لدعاء نبيه أيوب "فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ" ، لكن أرشده في خضم إجابة الدعاء أن يركض برجله، ويغتسل بسائل بارد ويشرب شراباً، مع أن من المقطوع به أن الله تعالى قادر على شفاء نبيه دون كل هذه الأمور، قال الله تعالى: (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ، ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ، وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ) ص: ٤١-٤٣، وكذلك الحال بالنسبة لنبي الله يونس عليه السلام عندما التقمه الحوت؛ نجاته كانت بسبب إيمانه، أي بسبب تلازم القول والعمل في حياته "فلولا أنه

كان من المسبحين، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون" الصافات ١٤٣-١٤٤ (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ) الأنبياء: ٨٧-٨٨. والله تعالى أمرنا أن ندعوه فقال: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) آل عمران: ١٨٦، لكنه طلب منا الاستجابة له والإيمان به، والاستجابة لله تكون بالعمل بشتى أنواعه، قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ) الأنفال:٢٤ وقال: (اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ) الشورى :٤٧.

عين

لا بد من التبيه على أن هناك فرقاً بين الحسد الذي جاء ذكره في الكتاب العزيز وتأثير العين الذي جاء في بعض الروايات التي يرويها الناس عنه صلى الله عليه وسلم، فالحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير، وهذه الرغبة النفسية قد تدفع صاحبها للكيد بمن يحسدهم ويحاول إيقاعهم في المتاعب:

قال الله تعالى: (وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) الفلق: ٥

(أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا) النساء: ٥٤

أما العين: فهي عبارة عن تصور تأثير للعين على الأشياء المنظورة، وبالتالي نحن أمام مفهوم آخر غير مفهوم الحسد الوارد في القرآن الكريم.

قال الشيخ الخليلي في ص ٢٨٢- ٢٨٣ من كتاب "العقل" : (وكذلك أنكروا ما عسى أن يكون للعين من أثر بدعوى أن إثبات ذلك موقوف على نص قطعي الثبوت والدلالة معاً، وقد جهلوا أن الإثبات إن كان يتوقف على قطعي فالإنكار مثله، إذ الواجب على الإنسان فيما لم يكن به علم التوقف لا الإنكار ويدل على ذلك قوله تعالى : "بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ" يونس: ٣٩

فليس للإنسان أن يكذب بما لم يقم له دليل قاطع على كذبه، على أن في الآية ما يدل بأن التكذيب والرد يجب الاحتياط فيهما أكثر مما يكون في التصديق والقبول؛ لأن التصديق يكون بثبوت الصدق من أي جهة كانت، بينما التكذيب لا يكون حقاً إلا عندما يحيط المكذب علماً

بجميع وجوه ما كذبه، بحيث لا يكون احتمال لصدقه قط، وهذا ما يؤذن به قوله تعالى " بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ") اهـ.

الشيخ الخليلي يناقش في هذا النص مسألة تأثير العين، ويلقي على من يرد عليهم تهمة "إنكار تأثير العين".

ويقرر هنا قاعدة مفادها: أن الإنكار يكون بنص قطعي كما أن الإثبات يكون بنص قطعي، ويستدل على ذلك بقوله تعالى: (بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) يونس:٣٩، وهو يكرر هنا ذات القاعدة التي قررها في موضوع الكرامات وهي أن (غير المنفي لا يمكن نفيه إلا بنص قطعي في باب الغيبيات)، وهذا الكلام عليه ملاحظات كالتالي:

(١) الحديث هنا عن موضوع تأثير العين، أنصار هذه النظرية يقدمونها على أنها من الغيب الذي لا يدرك كنهه بالحواس، فهو تأثير غير محسوس وغير مادي، يقول الشيخ الخليلي في كتاب "العقل" ص ٢٨٤: (ومن المعلوم أن ما يكون للعين من أثر إنما هو بما أودع الله تعالى في الإنسان من طاقة روحانية غيبية والعالم الروحاني عالم غيبي له خصائصه؛ التي لا يحيط الإنسان بها علماً، وإنما يعرف آثارها التي تبرز في عالم الواقع) اهـ

وإذا سلمنا جدلاً بهذا، ننتقل إلى السؤال التالي: هل تثبت الغيبيات بأخبار ظنية الثبوت والدلالة؟! وقد ناقشنا هذه المسألة بالتفصيل في مباحث سابقة.

(٢) السؤال الملح: هل تأثير العين منف أم غير منفٍ؟، الحقيقة أنه منف من أصله، وذلك استناداً إلى قانون السببية الذي خلقه وسيره المولى تبارك وتعالى، وهذا هو الذي نطق به الكتاب العزيز:

- (أَلَمْ تَرَ إِلَىَ رَبّكَ كَيْفَ مَدّ الظّلّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمّ جَعَلْنَا الشّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً) الفرقان:٤٥

فالله تعالى جعل الظل متمدداً وذلك تبعاً لحركة الشمس، ولو شاء لجعله ساكناً، فحركة الظل تبعاً لحركة الشمس أحد مفردات قانون السببية.

- (وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً) الإسراء: ٣٧

من مفردات قانون السببية: عدم قدرة الإنسان بقدراته الجسدية الذاتية على خرق الأرض وبلوغ الجبال طولاً.

- أطوار حياة النبات: قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) الأنعام:٩٩ .

فهذه السنن في النبات تسير سيرها المعتاد بحفظ الله ورعايته، فلا ينبت النبات في الهواء من غير تربة، ولا يعيش بغير ماء.

- نزول المطر من السحاب: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ) النور:٤٣.

فالمطر ينزل من السحاب، وهذه سنة ثابتة مستمرة أودعها الله في خلقه، وهي أحد مفردات قانون السببية، فلا نصدق من يأتينا ليقص لنا قصص أولئك الذين ينزل عليهم المطر بلا سحاب.

- اختلاف الليل والنهار (وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ) المؤمنون:٨٠، (يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَار) النور: ٤٤ وهذا الاختلاف يسري في كل الأرض حتى على تلك المناطق التي تعيش لأشهر في نهار دائم وأشهراً أخرى في ليل دائم، فليس هناك في الأرض ليل دائم ولا نهار دائم.

- تحليق الطيور في السماء: (أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) النحل:٩٧، وعليه فالإنسان بقدراته الذاتية التي ركبها الله تعالى فيه لا تمكنه من الطيران كالطيور.

- جعل الليل سُكنى والنهار مبصراً (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) النمل: ٨٦

- النوم بالليل وابتغاء المعاش بالنهار (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) الروم:٢٣

- جعل الإنسان أزواجاً وسكن كل منهما للآخر (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) الروم:٢١

- جعل قدرات للسفن للجريات في البحر (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) لقمان:٣١، وذلك بما ركبه الله تعالى من خصائص للمواد يكتشفها الإنسان ببحثه في الكون.

و(السير في الأرض والنظر) يوجب أنه لوقوع المسبب لا بد من سبب، فمقتل إنسان لابد له من سبب كأداة قاتلة أو بالسم أو حتى بالتعذيب النفسي أو ما شابهها من وسائل، لكن لا يمكن أن يأتي أحد ويدعي أن أحداً قُتل بنظرة ((العين))!

وكذلك في إتلاف المال، يكون بحرقه أو تهديمه أو تفجيره أو... أو...، لكن أن يأتي أحد ويدعي أن أحداً أتلف نخله وزرعه بنظرة ((العين)) فهذا ادعاء غير مقبول.

إذن تأثير العين ليس من الأمور المسكوت عنها، بل هو مخالف لقانون السببية، ما دمنا نتحدث عن تأثيرات في دائرة عالم الشهادة (منطقة البحث الكوني).

(٣) لكن مع كل ذلك؛ دعونا نخرج من نطاق الجدل النظري البحت، وننتقل إلى دائرة عملية تدفع بالبحث النظري قُدماً إلى الأمام، فموضوع (تأثير العين) في حقيقته ليس أمراً غيبياً كما يُتصور، فهو واقعاً وعملاً عبارة عن علاقة سببية بين (الناظر) و(المنظور إليه)، وهذه العلاقة تخضع لقوانين وسنن الحياة، وبالتالي على من يثبتها أن يقدم تفسيراً ((علمياً)) لها، أو على أقل تقدير أن يدعو إلى إخضاع الأمر برمته للبحث العلمي، وبذلك نخرج المسألة من نطاق الإثبات والنفي النظري لهذه الظاهرة المتوهمة أو المفترضة، وتصبح قضية علمية بامتياز يبحثها العلماء والباحثون في الطب والفيزياء والكيمياء والأحياء، وهذا الذي ينبغي أن يكون، فالقضية لا تحتاج لأن يقسم الناس إلى عقلانيين وغير عقلانيين، نحتاج فقط إلى (السير في الأرض والنظر) كما أرشد القرآن وبعدها سيختلف حالنا كثيراً.

العين وقطعية الثبوت

قال الشيخ الخليلي في ص ٢٨٢- ٢٨٣ من كتاب "العقل" : (وكذلك أنكروا ما عسى أن يكون للعين من أثر بدعوى أن إثبات ذلك موقوف على نص قطعي الثبوت والدلالة معاً، وقد جهلوا أن الإثبات إن كان يتوقف على قطعي فالإنكار مثله، إذ الواجب على الإنسان فيما لم يكن به علم

التوقف لا الإنكار ويدل على ذلك قوله تعالى : "بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ" يونس: ٣٩

فليس للإنسان أن يكذب بما لم يقم له دليل قاطع على كذبه، على أن في الآية ما يدل بأن التكذيب والرد يجب الاحتياط فيهما أكثر مما يكون في التصديق والقبول؛ لأن التصديق يكون بثبوت الصدق من أي جهة كانت، بينما التكذيب لا يكون حقاً إلا عندما يحيط المكذب علماً بجميع وجوه ما كذبه، بحيث لا يكون احتمال لصدقه قط، وهذا ما يؤذن به قوله تعالى "بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ") اهـ.

من خلال النص السابق نناقش ما قاله الشيخ الخليلي من أن (إنكار قضية ما يستلزم قطعية الثبوت والدلالة في النص)، وقد تصاغ هذه القاعدة بصياغة أخرى وهي (غير المنفي لا يمكن نفيه إلا بدليل قطعي) وهذه القاعدة يسوقها الشيخ الخليلي في باب الغيبيات، وهذه المنطقة لا يقال عنها إن (غير المنفي فيها لا يجوز نفيه إلا بدليل قطعي)، فهي ليست منطقة مفتوحة، يضاف إليها باستمرار كل جديد يكتشف. وقد قلت في حلقة سابقة إن الله تعالى يقول: (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) النساء: ١٦٤، فهناك رسل قد قص الله تعالى علينا أنباءهم، ورسل آخرون لم يقصصهم علينا، والسؤال الآن: لو جاء بعض الناس وادعى أن (زرداشت) أو (دانيال) أو (كونفوشيوس) أو أي من الحكماء الذين كانوا في الأمم السابقة هم من جملة الأنبياء؟، هل نقبل مثل هذا الكلام ونقول إن (غير المنفي في الغيبيات لا يجوز نفيه إلا بدليل قطعي)؟.

الصواب: أن منطقة الغيب منطقة محددة حصراً، لا يمكن إثبات مفرداتها دون نصوص قطعية، لأنها منطقة إيمان، وعليه لا يمكن إثبات نبوة أحد بعينه دون دليل قطعي من جهة ثبوته ودلالته، أما مجرد الاحتجاج بأنه من المحتمل أن يكون نبياً ولم يقص الله تعالى علينا نبأه؛ فغير مقبول، لأننا نؤمن في الجملة بأن هناك أنبياء لم يقص الله علينا أنباءهم، لكن إثبات نبوة أحد بعينه محتاج للدليل القطعي، وهذا ما يسميه الإباضية في مؤلفاتهم العقدية بولاية الحقيقة، حيث إنهم يتولون الأنبياء والرسل لكونهم من أهل الجنة، ولإثبات نبوتهم يرجعون في ذلك للدليل القاطع من حيث الثبوت والدلالة (راجع في ذلك: الاستقامة لأبي سعيد الكدمي، مشارق أنوار العقول للسالمي).

أما في منطقة البحث الكوني: فتكون قاعدة (غير المنفي لا يمكن نفيه إلا بدليل قطعي) صحيحة بعض الشيء، لكنها تحتاج لبعض التعديلات:

- ففي منطقة البحث يمكن ابتداء طرح الرأي العلمي النظري استناداً إلى بعض المقدمات النظرية، وهذا الرأي قد يكون إثباتاً أو نفياً أو أي شيء آخر.

- ثم بعد ذلك ننتقل للبحث التطبيقي المكثف القائم على (السير في الأرض والنظر) ليصحح هذه الآراء النظرية أو يعدلها أو ينشيء آراء جديدة، وطبعاً هذه المنطقة العلمية التطبيقية ليس فيها أحكام كافر وفاسق ومنكر السنة.... الخ ما هنالك من مصطلحات يتحارب بها الفقهاء في مجادلاتهم!.

أما إقحام قوله تعالى: (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِّ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِّ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) يونس: ٣٧-٣٩ لإثبات قاعدة أن (غير المنفي في باب الغيبيات لا يمكن نفيه إلا بدليل قطعي) فلا أراه سديداً للاعتبارات التالية:

١. أن الآيات تتحدث عن من كذبوا بالوحي الذي أنزل إليهم وخوطبوا به، ولم تتحدث عن تكذيب أمور لم يوح إليهم بشأنها شيء، بدليل السياق (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِّ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)، فهم (كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) أي لم يحاولوا أن يفهموا ويتعمقوا في معاني الوحي تشريعاً وهداية، بل سارعوا إلى تكذيبه، وهذه هي الحماقة بعينها من هؤلاء المكذبين.

٢. (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) فشأنهم شأن المكذبين من الأمم السابقة التي حكى لنا القرآن طرفاً من أخبارهم، وهؤلاء كذبوا رسل الله فيما أوحي إليهم، وهذه أمور أخبروا بشأنها وبلغوا بها بواسطة رسل الله.

مثلاً: ذكر الله تعالى الملائكة، ونفي عنهم صفة الأنوثة، لكنه لم ينف صفة الذكورة عنهم، بل لو واصلنا البحث الغيبي لوجدنا أنه لم ينف عنهم التناسل، فهناك كائنات تتناسل بجنس واحد (bisexual)، وكذلك لم ينف زواج بنات الإنس من الملائكة، هل نستطيع تطبيق قاعدة أن (النفي يحتاج كالإثبات إلى دليل قطعي ثبوتاً ودلالة) ونستدل على المكذبين في هذه القضايا بقوله تعالى: (بَلْ

كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) ؟!.

- أما عن قول الشيخ الخليلي: (فليس للإنسان أن يكذب بما لم يقم له دليل قاطع على كذبه، على أن في الآية ما يدل بأن التكذيب والرد يجب الاحتياط فيهما أكثر مما يكون في التصديق والقبول؛ لأن التصديق يكون بثبوت الصدق من أي جهة كانت، بينما التكذيب لا يكون حقاً إلا عندما يحيط المكذب علماً بجميع وجوه ما كذبه، بحيث لا يكون احتمال لصدقه قط، وهذا ما يؤذن به قوله تعالى "بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ") اهـ فعليه ملاحظة في غاية الأهمية:

- الشيخ الخليلي هنا يعكس خطته العامة في كتاب "العقل"، فهو يجعل التصديق حاصلاً بثبوت الصدق من أي جهة كانت، والاحتياط فيه أقل من التكذيب، ولعل هذا هو ما جعله يقبل روايات من يسميهم الثقات فيما ينقلونه عمن يرد عليهم دون تثبت وتمحيص طالما هو في باب الإثبات دون النفي!:

١. ص ١٩٠: (على أنني بلغني من بعد أنه صرح بهذا في الكتاب الذي اشترك في تأليفه مع صاحبيه الذين يشدان من أزره ويدعون بدعوته، فقد أخبرني من اطلع عليه -وهو ثقة أمين- أنه ذكر فيه قوله تعالى "وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى" وقال: "إن هذا فيما يبلغه من القرآن، أما في حديثه بنفسه فهو لا يعدو أن يكون بشراً يخطئ ويصيب"، بل ذكر لي الناقل أن مما قالوه في ذلك الكتاب "في بعض القضايا هذا ما فهمه الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن، ولكننا نفهم خلافه)اهـ.

٢. ص٢١٢: (ومن عجيب ما سمعته عنهم ما حدثني به أحد الثقات عن أحد أركانهم أنه قال: لو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بحقيقة غيبية، ولم تكن مذكورة في القرآن لم أكن مكلفاً أن أصدقه فيها)اهـ.

ولو رجعنا لفعل الصحابة الكرام رضي الله عنهم لوجدنا عندهم تثبتاً في التصديق لا يقل درجة عن الإنكار حتى فيما يرويه بعضهم عن بعض، والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

روى البخاري (٦٩٢٠) عن عبيد بن عمير قال: استأذن أبو موسى على عمر، فكأنه وجده مشغولاً فرجع، فقال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس؟ ائذنوا له. فدعي له، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: إنا كنا نؤمر بهذا. قال: فأتني على هذا ببيِّنة أو لأفعلنَّ بك، فانطلق إلى مجلس من

الأنصار، فقالوا: لا يشهد إلا أصاغرنا، فقام أبو سعيد الخدري فقال: قد كنا نؤمر بهذا، فقال عمر: خفي عليَّ هذا من أمر النبي صلى الله عليه وسلم، ألهاني الصفق بالأسواق) اهـ.

وكم تمنينا على علمائنا الفضلاء أن يتثبتوا -كما فعل عمر بن الخطاب- فيما ينقله لهم هؤلاء ((الثقات)) قبل أن يصدروا أحكامهم على الناس.

ولعل هذا الإفراط والاعتداد بكلام ((الثقات)) هو الذي أدى إلى شيوع الروايات المكذوبة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فليس المطلوب لقبول الرواية سوى مجرد (شهادة ثقة) تتحصل من هذا الفقيه أو ذاك.

العين والبحث الكوني

في موضوع (تأثير العين) أورد الشيخ الخليلي عدة أمور أرى من اللازم التعليق عليها:

١. ذكر الشيخ الخليلي قصة، وهي عبارة عن جلسة جلسها مع من يسميه "تولى كبره" فقال في ص ٢٨٤ من كتاب العقل: (**وفي آخر جلسة جلستها مع من تولى كبر هذه الدعوة سألته عن سلسلة نسبه: إلى أي جد يستطيع أن ينسب نفسه؟.**

فأجابني: بأن لا يعرف من أسماء آبائه إلا اسم ابيه وجده وأبي جده.

فقلت له: أو تستطيع أن تجزم بأنه ليس من آبائك من اسمه سعيد أو صالح أو سالم مثلاً؟ فقال: لا.

فقلت له: أولا يكفيك ذلك دليلاً على أنه لا يسوغ لك إنكار ما لم تحط علماً بعدمه، وأنه لا يكفي في إنكارك للشيء أن لا يكون لك علم بوجوده؟) اهـ.

هذا الحوار بين الشيخ الخليلي والشخص الذي يرمز له باستمرار "تولى كبره" وهو فيما يبدو الرمز الكودي للشيخ خميس بن راشد العدوي في كتاب "العقل"؛ وهذا الحوار لا ندري ما حقيقته وما دار فيه، ولا بد من الاستماع لكل الأطراف، وطالما استمعنا للشيخ الخليلي لا بد أن نستمع للشيخ العدوي، فنحن أمام ما يشبه الدعوى التي تحتاج لسماع كافة الأطراف.

لكن فلنفترض جدلاً صحة نقل هذا الحوار؛ الشيخ الخليلي يحاول من خلال هذا المثال إثبات قاعدته في الغيبيات وهي (أن غير المنفي لا يمكن نفيه إلا بالقطع)، ويستدل لها بمثال من عالم الشهادة (البحث الكوني)، وهذه مغالطة غير مقبولة، لأن طبيعة كل عالم تختلف عن الأخرى، فعالم الغيب

عالم محدد ومحصور لا يتم إثبات جزئياته إلا بالأدلة القطعية ثبوتاً ودلالة، بينما عالم الشهادة بطبيعته عالم قائم على البحث والتنقيب والاكتشاف، وقد شرحنا ذلك بالتفصيل في الحلقات السابقة.

فمثلاً في المثال الذي ساقه الشيخ؛ لا يستطيع الذي يحاوره الشيخ أن يجزم أن أحد آبائه لم يكن اسمه سالم أو صالح أو ...، لكنه يجزم بكل تأكيد أنهم من بني البشر؛ فهذه حقيقة بدهية من عالم البحث، لكن أسماءهم قد يتمكن من معرفة بعضهم من خلال البحث والتقصي بشتى الوسائل المتاحة.

٢. قال الشيخ الخليلي في ص ٢٨٤ من كتاب "العقل" : (ومن المعلوم أن ما يكون للعين من أثر إنما هو بما أودع الله تعالى في الإنسان من طاقة روحانية غيبية، والعالم الروحاني عالم غيبي له خصائصه؛ التي لا يحيط الإنسان بها علماً، وإنما يعرف آثارها التي تبرز في عالم الواقع) اهـ

يثور التساؤل: إذا كانت ظاهرة تأثير العين قضية غيبية، فإذن نحتاج للنص القطعي لإثباتها ديناً، وإلا فهي مجرد رأي لمن يثبتها، من حق الآخرين طرح آراء آخرى ولا داعي لتهويل الأمر وتصويره على أنه إنكار لحقيقة راسخة.

وأيضاً ما الدليل على ما يسمى "بالقوة الروحانية"؟ ما هي أدلتها من الشريعة، وما هي أدلتها من العقل، وما هي مستنداتها العلمية؟.

٣. قال الشيخ الخليلي في ص ٢٨٦ من كتاب "العقل" : (فأي عجب مع هذا كله أن يكون للعين أثر بما جعل الله سبحانه من طاقة روحانية في صاحبها، وهو وإن لم يدل عليه نص قطعي الثبوت والدلالة، فإن التجربة دالة عليه، فكم نظر معيان إلى بقرة حلوب فجف ضرعها، فإذا تلا عليها تال ما تيسر له من القرآن در ضرعها كما كان، وليست جميع الحقائق تتوقف معرفتها على نصوص دالة عليها، فهذه الثورة العلمية التي قلبت الحقائق رأساً على عقب، حتى غدا ممكناً ما كان مستحيلاً من قبل، هل يتوقف التصديق بها وبآثارها على نصوص قطعية الدلالة والثبوت؟ كلا، وإنما التجربة كافية لأن تكون كافية لأن تكون حجة مصدقة لها) اهـ.

أولاً يحسب للشيخ الخليلي في هذا الموضع دعوته للتجربة في مثل هذه القضية، وهذا أمر نوافقه عليه، لكن أتصور أن الشيخ الخليلي بحكم نشأته وتكوينه المعرفي لا يتصور ما هي التجربة العلمية، فالتجربة في موضوع تأثير العين مثلاً تتصور بدراسة عين الإنسان وخصائصها، وهل تصدر منها إشعاعات غير مرئية أم لا؟ وكذلك تدرس هل تؤثر هذه الاشعاعات -إن كان لها وجود- على ما حولها من الموجودات؟ وما هي طبيعة هذه التأثيرات؟ ... هذه هي الأسئلة التي تُسأل.

والتجارب العلمية تستعين بأجهزة قياس للترددات وللإشعاعات وبوسائل أخرى أنتجتها المعارف الإنسانية ....

وبعد القيام بسلسلة طويلة من التجارب، يتم الانتقال إلى تحليل البيانات المتحصلة ثم بناء استناجات عليها، وهذه الاستنتاجات قد تكون نظريات وهو الغالب أو ترفعها لمستوى أعلى من ذلك، ومع هذا لا يتوقف البحث، وتحاول فرق أخرى من العلماء والباحثين التحقق من النظريات السابقة وتطويرها والبناء عليها، وبتراكم البحوث والدراسات ترتقي مع الزمن لدرجة الحقائق العلمية، هكذا تجرى البحوث والدراسات العلمية.

وعندما يقول الشيخ الخليلي عن ظاهر تأثير العين (**فإن التجربة دالة عليه، فكم نظر معيان إلى بقرة حلوب فجف ضرعها، فإذا تلا عليها تال ما تيسر له من القرآن در ضرعها كما كان**) اهـ، فإنه لا يلام إلا بقدر محدود، فهذه هي حدود معرفته بحسب نشأته وتكوينه العلمي ولا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها، الملام بدرجة كبيرة هو المجتمع بكافة شرائحه عندما يقرأ هذا الكلام عن التجارب العلمية ثم يهلل للشيخ في رده على هذا أو ذاك أو يغض الطرف عنه مراعاة للمشاعر.

لدينا الآن بعد ٣٨ سنة من عمر التعليم الحديث في سلطنة عمان عشرات الآلاف ممن درسوا في الجامعات والكليات والمعاهد، وكثير من هؤلاء دخلوا المختبرات والمعامل وتعاملوا مع مختلف الأجهزة الحديثة، ثم بعد كل هذه السنين يقومون بنبذ هذه المنظومة التعليمية وراء ظهورهم ثم يمجدون مثل هذا الكلام الذي يهدم كل ما تعلمناه عن التجارب العلمية المعبرة عن (السير في الأرض والنظر)، والتي بسببها تقذف لنا المصانع والمعامل مختلف المنتجات التي نعيش بها حياة الرفاهية.

مسائل الدين ومسائل الرأي

مسائل الدين: تعرف بأنها المسائل التي تشكل أصولاً عقائدية أو تشريعية لا تجوز مخالفتها، وبالتالي يؤدي إلى قطع عذر المخالف، أي الحكم عليه إما بالكفر المخرج من الملة أو الفسق وذلك بحسب درجة المخالفة.

- فمثلاً من يقول بإباحة شرب الخمر؛ يحكم بخروجه من الملة لتحليله ما حرم الله.

- وكذلك من ينكر فرضية الصلوات الخمس؛ يحكم بخروجه من الملة.

- أما من تأول فأدى به تأويله إلى سفك الدماء المعصومة أو استباحة الأموال فهذا فاسق بتأويله.

لكن لا يحكم بكل ذلك في المسائل التي تحتمل النظر واختلاف الآراء وهي التي تسمى مسائل الرأي، ومن يقطع أعذار الناس فيها مخطيء بلا شك، وهو من الغلو غير المقبول.

و قد قلت فيما سبق إن الشيخ الخليلي تتداخل لديه مسائل الدين ومسائل الرأي، وهذه حقيقة موضوعية ليس المقصد من إيرادها الإساءة إلى أحد أو الانتقاص من قدره، ولكننا أمام شواهد واضحة في كتاب "العقل" وفي غيره تثبت أن مسائل الرأي تتحول لدى الشيخ الخليلي بسهولة إلى مسائل دين، هناك العديد من مسائل الفقه العادية يَرفع من سقفها ويحولها إلى مسائل يقطع فيها أعذار الخلق ويحكم عليهم بشتى الأحكام الصارمة القاسية.

أما عن الأسباب التي تؤدي بالشيخ الخليلي إلى ذلك، فلن أبحث فيها لعدم جدوى طرح ذلك الآن، وأكتفي بإيراد بعض الأمثلة على ما قلته، ولن أطيل فيها لأنني أنوي إنهاء الموضوع بسرعة:

١. قال الشيخ الخليلي في ص ٤٧ من كتاب "العقل": (**وإليك صوراً مما جاءوا به من الإفك لتغيير ثوابت الدين وإنكار حقائق القرآن**) اهـ، وذكر الشيخ أمثلة على ما يعده إنكاراً لحقائق القرآن وثوابت الدين، أي أنه يعتبرها من مسائل الدين:

أ. مسألة التقام الحوت لنبي الله يونس، فقال في ص ٤٨: (**زعموا أن التقام الحوت ليونس عليه السلام لم يكن ابتلاعاً له في جوفه، إنما أطبق عليه بفكيه**) اهـ

وقد أثبتا في هذه الملاحظات أن دلالات النصوص القرآنية لا تدل على انحصار الفهم على ما يقول الشيخ من أن الالتقام يأتي بمعنى الابتلاع، فهي مسألة رأي عادية جداً، وقد نبهت على أن الشيخ الخليلي اقتصر على معنى واحد في معاجم اللغة مما جعله يتصور أن القضية قطعية.

ب. مسألة نقل عرش ملكة سبأ: قال في ص ٤٨: (**زعموا أن الذي عنده علم من الكتاب ما جاء بعرش بلقيس إلى سليمان عليه السلام قبل أن يرتد إليه طرفه، وإنما ذلك كناية عن الإتيان به بالوسائل المعهودة**) اهـ وقد شرحنا هذه المسألة، وكون أن ارتداد الطرف كناية عن السرعة هو رأي الشيخ محمد يوسف اطفيش، وهي كذلك مسألة رأي عادية.

٢. المعراج:

قال الشيخ الخليلي في احدى حلقات برنامج "سؤال أهل الذكر"، نشر في جريدة "الوطن" الخميس ٢٩ من رجب ١٤٢٩هـ الموافق ٣١ من يوليو ٢٠٠٨م.العدد(٩١٣٤).السنةالـ٣٨: (**نعم، أما بالنسبة إلى الإسراء فلأجل النص القطعي في سورة الإسراء، وأما المعراج فمن حيث الإشارة إلى ذلك التي تكاد تكون صريحة في سورة النجم، مع الأحاديث المستفيضة، ولذلك قالوا بأن من <u>أنكر الإسراء فهو كافر كفر شرك لأنه رد نصاً صريحاً لا يقبل الجدل، ومن أنكر المعراج فهو فاسق</u>**) اهـ

مع العلم أن العلماء من قديم مختلفون في الإسراء: هل هو واقع بالجسد والروح، أم هو رؤيا منامية، والرأي الثاني هو قول السيدة عائشة وعليه بعض أصحاب السير كابن إسحاق، ونسبة الشيخ اطفيش في هميان الزاد إلى الإباضية (راجع هميان الزاد للشيخ اطفيش، تفسير قوله تعالى "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى..") .

وإنكار المعراج هو قول لبعض علماء الإباضية كابن أبي نبهان وسعيد بن خلفان الخليلي، وأيده زكريا المحرمي في كتابه "قراءة في جدلية الرواية والدراية".

كلمة أخيرة

بعد كل هذا التطواف حول كتاب "العقل" للشيخ أحمد بن حمد الخليلي، وتداول ما فيه من طرح، وقراءة لغته، أستطيع أن أقول بأن هذا الكتاب يعد خروجا عن النسق العام الذي سار عليه الشيخ الخليلي في مشواره الدعوي، وكل ما نخشاه أن تأتي أجيال من بعده –أطال الله في عمره– وتحسب هذا الكتاب هو الحصيلة النهائية لحركته في الحياة العلمية وأنه عصارة فكره، ولذلك مسارعتي إلى وضع ملاحظاتي عليه أحسبها خدمة للشيخ وأداء لبعض الواجب إليه، فالبشر بطبيعتهم خطاءون، ولا يستثنى من ذلك إلا الأنبياء الكرام صلى الله عليهم وسلم جميعاً الذين عصمهم الله لأجل أداء رسالته، وتقديرنا للشيخ الخليلي التقدير الحق أن نعرف منزلته بأنه أعطى وسعه وبذل جهده في خدمة الدين، ولكن يبقى علينا أن نعلم بأنه غير معصوم من الخطأ، ومن حقه على الناس من حوله أن ينصحوه إن أخطأ كما أنهم يؤيدونه فيما أصاب.

بعد كل هذا فإني أختم هذه الملاحظات التي استمرت منذ شهر رمضان الكريم وإلى هذا الوقت عبر سبعة أجزاء حاولت أن ألم بأهم القضايا، أختمها بنصائح خمس أتوجه بها إلى:

١. الكافة:

علينا جميعا – بمن فيهم أنا – أن نوقن إيقاناً تاماً لا ريب فيه ولا شك أننا واقفون بين يدي الله تعالى فيحسابنا على ما كسبنا في هذه الحياة الدنيا، خيرا كان أو شرا، فعلينا كافة أن نتقي الله تعالى وأن لا نقول كلمة تحسب ضدنا، ولا نكتم كلمة تقودنا إلى رضى الله ورحمته، وأنه علينا أن يكون الحق هو مبتغانا، لا ما قال فلان، أو أخبرنا علان، كما علينا أن لا نصغي إلى الإشاعات والدسائس، فالله لا يؤاخذنا بما يخترعه غيرنا من الإشاعة والتدليس، ولكن بدون ريب يؤاخذنا على نقل ذلك وترويجه في المجتمع إن قمنا به وشاركنا فيه.

٢. المنتصرين لأحد الطرفين:

وأقصد بهم من انتصر للشيخ الخليلي في هذه القضية أو الذين انتصروا لمؤلفي كتاب "الإيمان بين الغيب والخرافة"، أنه يوم القيامة لا أحد ينفعه اتباعه لهذا أو ذاك، وإنما أمرنا الله تعالى باتباعه واتباع

رسوله صلى الله عليه وسلم، وأعطانا العقل لننظر فيما جاءنا من الله تعالى ورسوله، ولنتدبره ونعمل به، وأن الانتصار لهذا أو ذاك دون تمحيص الحق من الباطل يؤاخذ عليه الإنسان.

وعلى كل طرف أن لا ينسى الفضل والخير الذي قام ويقوم به الشيخ الخليلي وكذلك أن لا ينسى الخير والفضل الذي قام ويقوم به هؤلاء الإخوة، وأن المجتمع محتاج إلى جميع الأطراف.

ويجب كذلك عليهم أن لا يخرجوا بهذه القضايا عن نطاق الرأي، فلا يجوز لهم أن يبرأ كل طرف من الآخر في مسائل الرأي، ولذلك أدعو نفسي والجميع أن نتفقه في مسائل الرأي ومسائل الدين، حتى لا نبرأ من إنسان في مسألة رأي، وبالتالي ندخل في منطقة مظلمة لا يعلم خطورة آثارها إلا الله تعالى.

فالله الله في أنفسكم، فالعاقبة عظيمة، والمآل له نهايتان لا ثالث لهما، إما جنة أو نار، نسأل الله السلامة لجميع المسلمين.

٣. الفئة الصامتة:

عمان تزخر بالعلماء والفقهاء، إلا أنهم منذ أخذ نجم الشيخ الخليلي بالصعود أخذوا ينزوون شيئاً فشيئاً، فالكبار في السن تحركت بهم الحياة حتى أسلمت معظمهم إلى ربهم فأدركهم الموت، ومن بقي فهو طاعن في السن لا يرتجى منه أن يقدم شيئاً الآن، والشباب منهم آثروا الإنزواء خوفاً من مخالفتهم لآراء الشيخ الخليلي وصولته تجاههم، فآثروا هدوء البال على ثورة الشيخ وانفعالاته.

وهؤلاء في تقديري لم يوازنوا الأمر بين خدمة العلم والفقه والفكر بإبداء آرائهم وعلومهم واجتهاداتهم، وبين احترامهم للشيخ وجعله أباً لهم، فهم عودوا الشيخ أن لا يُبدوا رأياً في وجوده، وهذا أعطى تصوراً عند الجميع –بمن فيهم الشيخ نفسه حسب تقديري– أن أحترام الشيخ هو عدم مخالفته في آرائه وفتاويه.

ليس المطلوب منهم أن يعرضوا عن آراء الشيخ الخليلي ولا أن لا يستفيدوا منها، ولكن أيضاً ليس مطلوباً منهم عدم خدمة العلم وانتظار الأيام لتذهب بهذا الحال، وكأننا والعياذ بالله ننتظر ذهاب الشيخ الخليلي عن هذه الدنيا، فأي تفكير عاقل هذا؟!.

وإن كنت أتوجه إليهم بالنصيحة في هذا الأمر، فإنني أيضاً ألومهم على السكوت المطبق الذي أبدوه حيال هذه القضية، فكان ينبغي منهم أن يتوجهوا إلى الشيخ الخليلي أولاً، ويعرفوا منه ما جرى، ثم

ينظروا في قوله وما يعيبه على هؤلاء الإخوة، فإن رأوا أنه على حق وأنهم على باطل، توجهوا إليهم بالنصيحة والموعظة الحسنة، وذلك بعدما يسمعوا رأيهم وحججهم أيضاً.

وإن رأوا أن الشيخ الخليلي مخطئ وأن هؤلاء الإخوة يمارسون حقهم في النظر، وإنهم وإن أخطأوا في مسائل الرأي، فلا يجوز قطع عذرهم ولا تسفيه رأيهم ولا إثارة الناس عليهم، فضلاً عن وصمهم بالعمالة للصهيونية واليهودية أو رميهم بالمروق من الدين وإنكار السنة، والطعن في أعراضهم وأخلاقهم، وعليهم أن ينصحوا الشيخ بعدم الولوج فيما ولج فيه اتجاه هؤلاء الإخوة، وأن الحق أعظم من البشر قاطبة بمن فيهم الشيخ الخليلي، فإن وافقه فهو المطلوب، وإن أعرض عنه، فقد علم الشيخ الخليلي أن الفقهاء والعلماء ليسوا معه، وأنهم واقفون ضد تعجله وانفعاله في هذا الأمر الحادث، وهذا مدعاة لمراجعة نفسه، وأدنى لهدوء باله، وأقرب إلى الله تعالى في ابتغاء الرضى منه سبحانه وتعالى.

وعلى كل حال، فما فات قد فات، وما هو آت آت، فبإمكانهم أن ينظروا في الموضوع بوجهة محايدة، وطرف عدل، فيتوجوا إلى كل طرف بما يقتضيه المقام من رأب الصدع وإصلاح ذات البين، ولا أظن أن الوقت قد فات.

كما أن عليهم أن يظهروا ما آتاهم الله من علم، فلا يتهيبوا من نشر كتبهم وبث فكرهم، وهذا لا ينقص من مقام الشيخ الخليلي شيئاً، بل يعلي من شأنه، ويحسب له أن أخرج فئة من أهل العلم قادرة على المشاركة في مختلف ميادين الفكر والفقه والاجتهاد والنظر.

٤. مؤلفا كتاب "الإيمان بين الغيب والخرافة":

لا أحد يطلب منكما ومن يوافقكما على رأيكما أن تقفوا عن الكتابة وطرح آرائكم التي ترونها تخدم الدعوة إلى الإسلام وتنهض بالمجتمع، ولكن كان ينبغي منكم – وقد اكتسب الشيخ الخليلي هذه المنزلة الاجتماعية لما قام به اتجاه المجتمع – أن لا تهملوا تأثيره، وأن تحسبوا لكلمته الحساب الوافي بها، وكان ينبغي لكم أن تتداركوا الأمر بأن تتوجهوا إلى طائفة من العلماء وتضعوا الأمر بين أيديهم وتحملوهم التبعة، وتقولوا لهم: إن الموضوع تطور إلى هذا الحد، ونريد معالجته بما يحفظ لكل طرف حقه، ولا يخرج به عن مقصده، وأن لا يتحول إلى مضغة في المجتمع يلوكها كل أحد.

أتصور أن إلقاء الكلمة في كتاب أو مقال أو محاضرة ثم الانزواء عن المجتمع ليس في صالح أحد، ليس في صالحكم، ولا صالح الناس، ولا صالح الشيخ، ولا الأفكار ذاتها.

ولذلك أدعوكم صادقاً أن تبحثوا أنتم قبل غيركم عن حل لهذه المشكلة التي يعاني منها المجتمع، خاصة وأن الأغلبية الصامتة من الفقهاء لا تريد أن تخسر أحداً من الأطراف حسب ظنها.

ومع ذلك لا يفتوني أن أذكر بالخير موقفكم تجاه الشيخ الخليلي، فرغم كل ما حصل إلا أنكم لزمتم الأدب تجاه الشيخ الخليلي، ولم تتكلموا بكلمة سوء في حقه، وهذا وإن كان يشكر ولا ينكر، لكنه أيضاً يبقى واجبكم نحو الشيخ الخليلي، فأرجو أن تحافظوا على هذا الهدوء والاحترام، سواء في حق الشيخ الخليلي أو غيره.

٥. الشيخ أحمد بن حمد الخليلي:

لا أحد ينكر منزلتك، ولا الأدوار التي قمت بها في خدمة الدعوة إلى الله تعالى، وقد لمس الصالحون فيك نبل المقصد وحرارة التوجه، فانضووا تحت توجهك النبيل، وكانوا أياديك التي تمتد بها بالخير إلى الناس، ولكن فيك شدة تنزل بها على أحبتك وإخوانك وأبنائك، فانصرفوا عن مشروعك واحداً تلو الآخر، ولم يعد كثير منهم يأتون إليك إلا مسلمين، أو تجدهم في المجالس والعزائم وأيام الأعياد أو الأحزان، ولا يزيد ما بينك وبينهم عن المجاملة باللسان، والسؤال عن العلوم والأخبار.

فهل سألت أيها الشيخ العزيز ما الذي أدى إلى هذا الحال، أرجو أن لا تحصر الأمر بخميس العدوي الذي كان ضمن من ابتلي مع إخوانه عام ٢٠٠٥م ودورك في الأمر لم يعد خافياً على أحد، وقد سارت بأحوالك مع طلابك من أهل العلم والفقه الأيام، ولا أظن أن هنا يجدي أن نعدد الأسماء على طول خطك الدعوي في البلاد.

خذها نصيحة من أضعف خلق الله تعالى، أيها الشيخ الجليل عليك أن تراجع خريطة سيرك في الحياة، صحيح أنك قد قاربت السبعين من العمر، ولكن قد تكون بركة ما بقي من العمر يفوق ما فات، وأنت قد قدمت الكثير والكثير، ولا يمنع أن تكمل باقي عمرك بما يؤلف بين النفوس ويهدئ المشاعر.

أيها الشيخ الكريم: قد لا أحسن الكلمات القوية المؤثرة، لكن أظن أن نصيحتي هذه لن تعدو نصابها، ولا تنحرف عن مقصدها، وأنت قوي العاطفة تتأثر بملمح النصح فضلاً عن صريحه.

أيها الشيخ الفاضل: إن ظهور آراء موازية لآرائك هو قوة لك، ويحسب من حسناتك، إذ استطعت أن تخرج مثل هؤلاء الفتية الذي يسهرون ليلهم ونهارهم لدراسة الشريعة والمحاولة في تقديم وجهات نظر تخدم الأمة والمجتمع، فإن أصابوا فلهم منك الشكر، وإن أخطأوا فالتمس لهم العذر، واسع فيهم بالنصح والتوجيه الحسن.

الله الله أيها الشيخ الوقور – إنك مقدم إلى الله، وكلنا مقدمون – فهل سألت نفسك لحظة ما إن الله سائلك: هل قلت الحقيقة في هؤلاء، أم أن الانفعال قد أخذك؟ هل أنت موقن أنهم من صنيعة اليهودية والصهيونية، وهم حقيقة من صنعتك وتربيتك؟ ألا تعلم أن رمي المؤمنين بما ليس فيهم أمر جلل؟ يا شيخ إنك لا تعلم من جهل، ولكنك قد تنسى وتأخذك العاطفة، وإن كان كذلك فلم يفت الأمر، فعليك أن تراجع نفسك، فوالله ليس بنافع أحداً علمه ولا الناس من حوله عندما يقف بين يدي الله، أعد الكرة فيما أنت فيه، ففضلك على الناس كان كثيراً، ولا يزال، فلا تخرمه بمثل هذه الأمور.

أسأل الله العفو لي ولجميع المسلمين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.